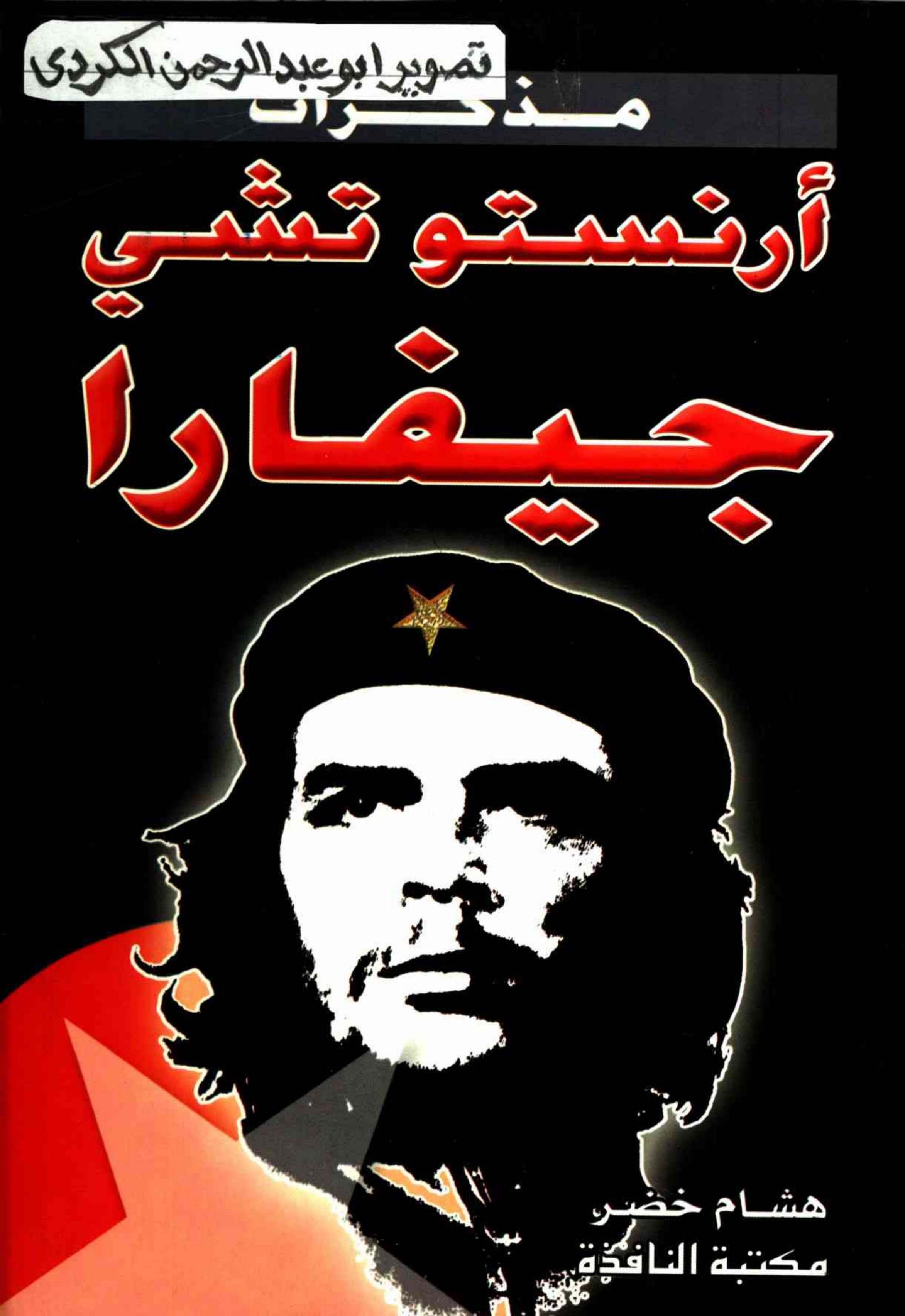
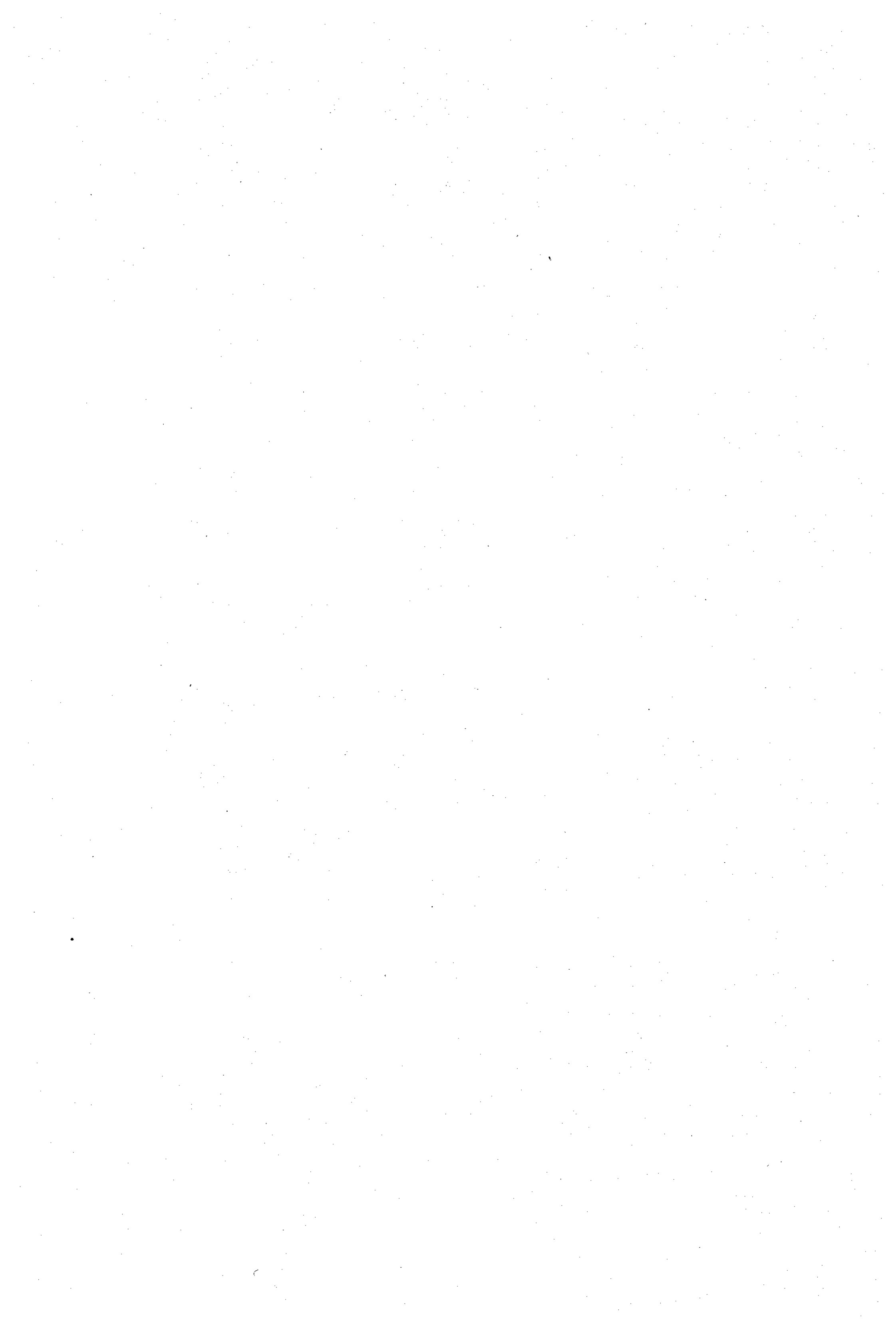


تصوير ابو عبد الرحمن الكردي
مذكرات
أرنستو تشي
جيفارا
هشام خضر
مكتبة النافذة

مذكرات
أرنستو تشي جيفارا



مذكرات
أرنستو تشى جيفارا

عرض وتحليل

هشام خضر

مكتبة النافذة

مذكرات أرنستو تشي جيفارا

هشام خضر

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

رقم الإيداع ١٣٧٧٠ / ٢٠٠٧

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى(ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com

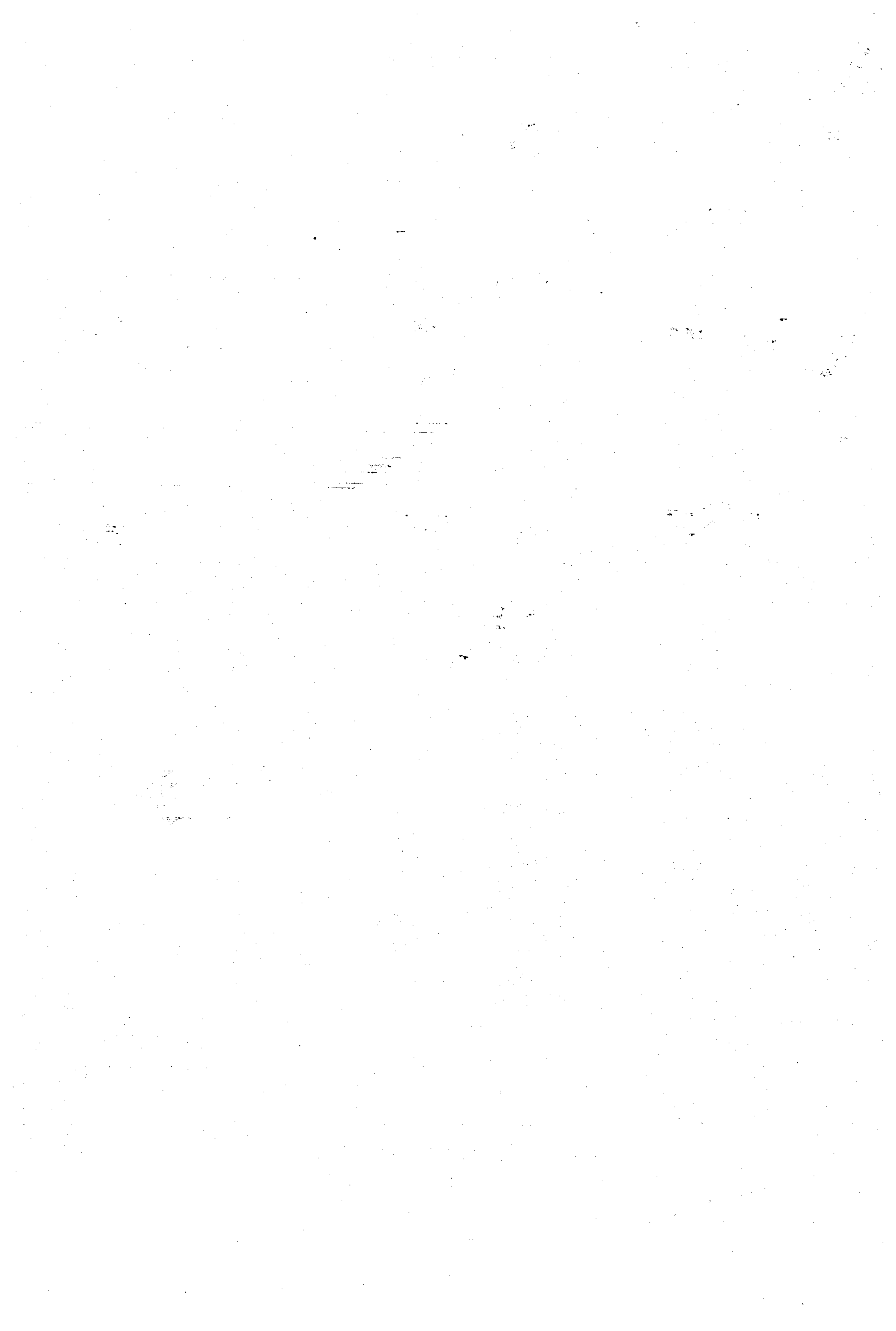
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لو أن الدكتور أرنستو تشى جيفارا حيا يسعى على قيد الحياة، لكان قد عض بنان الندم على سنوات الكفاح والمرارة والذل والتشرد والتشتت والنضال والعصيان والتمرد على الحكام الطغاة المستبدين الذين أشاعوا الظلم والفوضى والديكتاتورية فى طول البلاد التى حكموها فى أمريكا الجنوبية وعرضها أيضا.

كان جيفارا طبيب الأسنان ذو الميول الماركسية قد نذر نفسه فداء للحرية والتحرر من قبضة الاستعمار الغاشم، والنظم المستبدة فى شتى بقاع الأرض ظنا منه أن الماركسية بأفكارها ومبادئها ونظرياتها كفيلة بإنعاش الشعوب والمساواة بينهم والتحرر من أغلال الذل والعبودية لكنه كان واهما ولو طال به العمر لأدرك أن تلك الحقيقة ما هى إلا وهم من أوهام ماركس وأتباعه..

صحيح أن جيفارا كان نموذجاً خياليا يندر وجوده ومن ثم أصبح أسطورة يتداول الشباب فى شتى بقاع الأرض صوره ومذكراته بوصفه بطلا أسطوريا متصوفا زاهدا فى محراب الحرية لكنه للأسف كان لا يدرى أن كل من عاونهم للوصول إلى حكم بلدانهم بواسطة حروب التحرير أو العصابات كما يطلقون عليها لتأكد أن هؤلاء الثوار الذين فى وصولهم للحكم قد استقروا على عروشهم عقودا طويلة فاقت عقود سنوات احتلال بلدانهم ،وعلى رأس هؤلاء الديكتاتور (فيدل كاسترو) صديق جيفارا الحميم الذى لا يزال منذ الخمسينيات على رأس السلطة فى كوبا، وهى الدولة التى يروى فيها جيفارا مذكراته التى ننشرها فى هذا الكتاب بدءاً من اليوم الأول وحتى نجاح ثورة كاسترو ورئاسته للبلاد.



مدخل
ذكريات للتاريخ

منذ وقت بعيد ونحن ندرس إمكانية رسم وتصوير ووصف تاريخ لثورتنا بحيث نتمكن من رصد كافة جوانبها وزواياها دون إهمال وإغفال أى وجه من وجوهها المختلفة.

وكثيرا ما أكد قادة الثورة فى السر والعلن عن أمنيتهم فى تسجيل تلك المرحلة التاريخية الدقيقة.. ولكن المهام كثيرة، والأعباء ثقيلة والأعوام تمضى على عجل، والأيام أسرع من البرق، وذكريات النضال الثورى تضمحل فى الماضى دون أن تسجل فى صفحات الزمن الوقائع والأحداث التى أصبحت منذ تلك اللحظة جزءا لا يتجزأ من تاريخ أمريكا..

من أجل كل هذا انصرفت إلى تدوين حلقات من ذكرياتى الخاصة عن المعارك والمناوشات والهجمات التى شاركت فيها.

لم يكن الهدف من سرد هذه الذكريات الاكتفاء بهذا التاريخ الشخصى، وإنما أنا أهدف من وراء ذلك أن يتحرك كل من عاش تفاصيل هذه الأحداث الهامة إلى ضرورة تناول هذا الموضوع، ومحاولة توسعة هامشه بقدر المستطاع.

ولقد تعلق نضالى وكفاحى طوال المرحلة الثورية فى نقطة معينة ومحدودة من الأرض الكوبية وبديهى أن هذا عرقل مسيرة اشتراكى فى الأحداث والمعارك التى تهم مناطق أخرى.

ولكى يصبح المجال مفتوحا واسعا أمام جميع الذين انخرطوا فى صفوف الحركة الثورية لكى يرسموا صورة من قريب عما صنعوه وما وقعت عليه أعينهم أثناء تلك

الأحداث. . ولكن وحتى تبدو الصورة جلية نقية لمن يراها رأيت أنه من المناسب أن أتناول فى البداية سـرد وقائع المعركـة الأولى وهى المعركة الوحـيدة التى كان فيـها (فيدل كاسترو)[١] يعارض ما أوردناه من آراء، أقصد مفاجأة «أليجريا دى بيو».

ولايزال على قـيـد الحـياة عـدد قليـل من هؤلاء الذين شـهـدوا تلك اللحظة الحاسـمة، وكل منهم مدعـو لأن يسجل ذكرياته لكى تنضم إلى مـا سبق أن رواه غيرهم حتى يتم وضع قصة ذلك اليوم بصورة كاملة وعلى نحو دقيق.

ولا أطلب ممن يكتب تلك الذكريات إلا قول الصـدق والحق والصراحة، وينبغى على من يرغب بأن يدلى بدلوه أن يلتزم بتلك الخصال التزاما صارما فلا يميل أحد إلى تدوين أى أمر يشوبه أدنى ابتعـاد عن الضبط الكلى، من أجل تسليط ضوء أو إضفاء لون براق على موقف شخصى. . وليـعمد كل من أصحاب هذه الذكريات بعد أن يكتـب عدة صفـحات بشكل عفـوى وتلقائى دون تصنع أو تجـميل ووفـقا لقدراته وإمكاناته ومهاراته ومؤهلاته العلمية أن يجنح إلى القيام بممارسة النقد الذاتى لتجربته حـيث إن مثل هذا النقد قد يعمل على إسقاط كل ما هو غـير صحيح من الرواية فضلا عن أنه قد يكون موضع شك أو تحفظ.

من هنا ومن خلال هذه الروح أبدأ بتسجيل ذكرياتى.

أرنستو تشى جيفارا

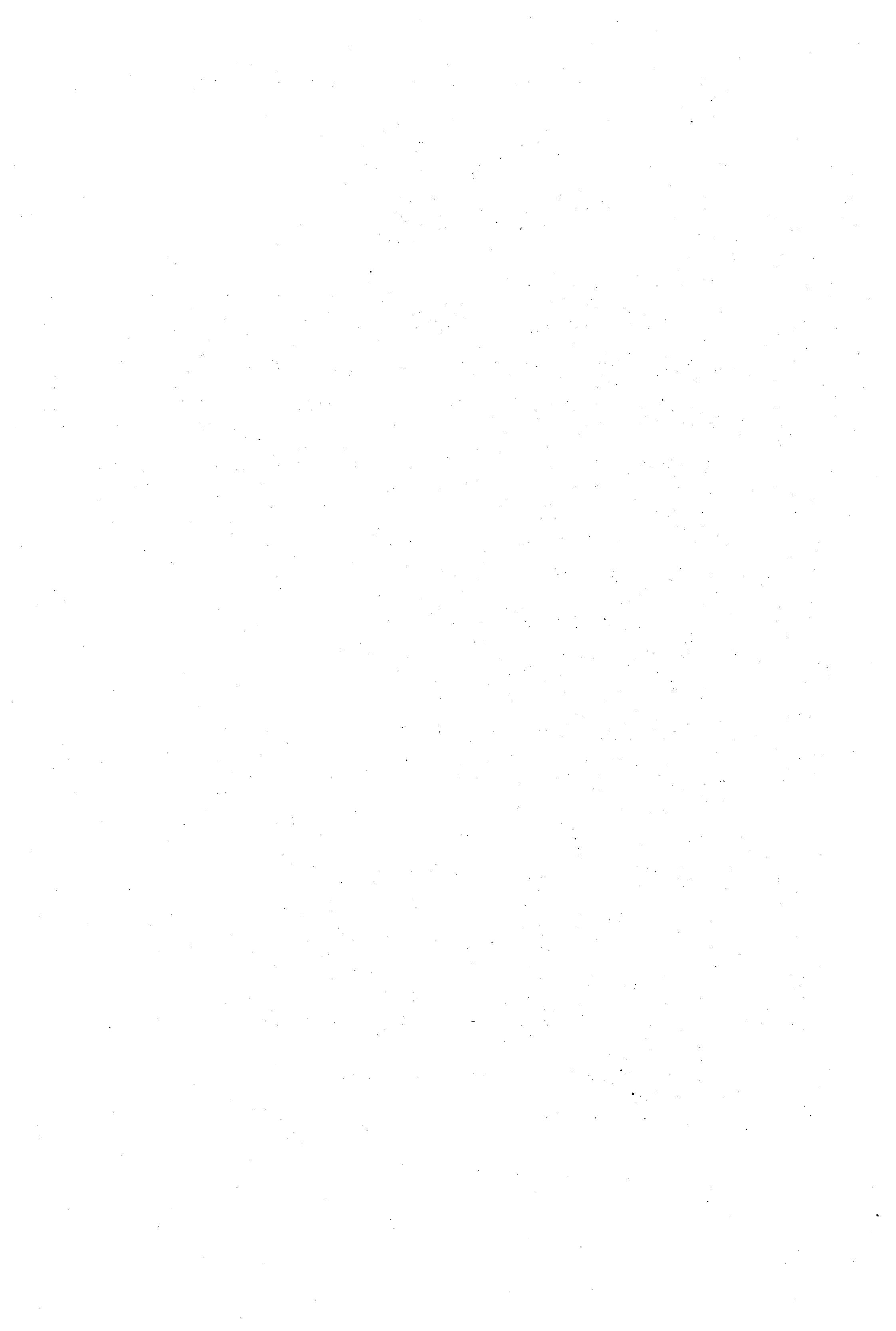
---

(١) رئيس كوبا الحالى.

الفصل الأول

مع كاسترو فى المكسيك

«كاسترو يقول لى فى السجن: لن أتخلى عنك أبدا»



الفصل الأول
مع كاسترو فى السجن

فى العاشر من مارس عام ١٩٥٢ . . وبغير أن تراق نقطة دم واحدة، وقع الانقلاب العسكرى الذى قاده «فولخنشيو باتيستا» . . ومن الطبيعى أن قصة هذا العدوان لا تبدأ فى نفس الساعة وذلك اليوم الذى وقع فيه انقلاب الثكنة، وإنما ينبغى البحث عن سوابقه بعيدا فى تاريخ كوبا . . قبل التدخل الذى قام به سفير الولايات المتحدة «همزولز» عام ١٩٣٣، بل قبل التعديل الذى قام به «بلات» على الدستور عام ١٩٠١، وقبل البطل «نوسيسو لوبيز» الموفد الذى أرسله أنصار ضم كوبا إلى الولايات المتحدة، حتى نصل إلى أصل الحكاية فى مرحلة «جون كوينس آدمز» الذى أوضح فى صورة براقة الطريقة التى تتعامل بها بلاده مع كوبا، خصوصا حين صرح بأن كوبا هى تفاحة سوف تسقط حين تنفصل عن أسبانيا بين يدى العمّ سام.

إن كل هذه الأحداث ما هى إلا حلقات من سلسلة العدوانات التى لم تكن كوبا هى فريستها الوحيدة.

إن المد والجزر فى أمواج الإمبرالية ينكشفان بوضوح عند سقوط وانفراط عقد الحكومات الديمقراطية من جانب، وعند قيام حكومات بضغط شعبى والذى لا يستطيع أحد مقاومته من جانب آخر.

هذا هو تاريخ أمريكا اللاتينية كلها . . حيث إن الأنظمة الديكتاتورية تشكل أقلية ضئيلة للغاية، ولكنها تأتى إلى الحكم بواسطة الانقلابات أما الحكومات التى تتسم بالممارسة الديمقراطية - تلك التى يؤيدها الشعب إلى حد بعيد - فلا تبلغ الحكم إلا بعد عناء وصعوبة ومشقة.

وغالبا ما تتصف قبل وصولها للسلطة بجميع التنازلات التى سبق لها أن قدمتها تحت ضغط رغبة البقاء فى الحكم والجلوس على الكرسى البراق.. ورغم أن الثورة الكوبية هى حالة استثنائية فى أمريكا كلها، ومن ثم لم يكن هناك مناص من أهمية الإشارة إلى ما قد سبقها من تطورات وأحداث هامة.

ولقد كان كاتب هذه السطور محمولا على أمواج الحركات الاجتماعية التى تهز قارتنا الأمريكية ،حتى أنها قد جرفته بعيدا إلى خضم الأحداث، فأصبح بذلك قادرا على التعرف على أحد المنفيين الآخرين هو «فيدل كاسترو»، لقد تعرفت على كاسترو فى إحدى ليالى الشتاء الباردة التى تشتهر بها المكسيك، ومازلت على عهدى أتذكر ما دار بيننا حول السياسة الدولية، وفى ساعات الصباح الأولى فى ذلك اليوم كنت قد تحولت إلى واحد من أعضاء حملة الفتح القادمة...

أود أن أوضح هنا كيف ولماذا قابلت فى المكسيك رئيس حكومة كوبا القادم؟!

كان ذلك وقت تراجع الأنظمة الديمقراطية فى عام ١٩٥٤، حين سقطت آخر ديمقراطية أمريكية ثورية كانت لاتزال فى ذلك الوقت تقف على قدميها فى نصف الكرة الأرضية، أقصد هنا بالتحديد حكومة «آرينزجوزمان» وذلك أمام العدوان الذى خططت ودبرت له ونفذته بضمير بارد الولايات المتحدة الأمريكية من وراء جبل شاهق من الدخان الكثيف كانت قد شيدته دعايتها فى شتى أنحاء القارة.. وكان الشخص الذى ظهر أمام العالم متحملا تبعات هذا العدوان هو وزير الخارجية الأمريكى «جون فوستر دلاس» الذى شاءت الصدف الغريبة أن يكون هو أيضا محامى شركة «الثمار المتحدة» (يونايتد فروت) وأحد كبار المشاركين بها، وهى الشركة الاستعمارية الكبرى الفاعلة فى جواتيمالا.

ولقد تركت البلاد وقد ساد بداخلى شعور بالمرارة مع جميع أبناء جواتيمالا باحثا وساعيا فى ذات الوقت عن المنهج الذى يمكن من خلاله بناء مستقبل جديد لهذه الأمة التى غرقت حتى أذنيها فى عتمة الليل الطويل.

وكان «كاسترو» قد أقبل إلى المكسيك باحثا عن أرض تتسم بالحياد، ولإعداد وتجهيز رجال من أجل القيام بعمل حاسم.

وكانت قد جرت عمليات فرز لهؤلاء الرجال لاختيار من يصلح منهم طبعا بعد وقوع الهجوم على موقع «مونكادا» فى «سانتيا جو» بكوبا.

وقد تم فصل كل من بدا مترددا، كما انخرط آخرون لسبب وربما أكثر إلى أحزاب سياسية أو إلى منظمات وحركات ثورية وتحررية يطلب منهم تقديم قدر أقل من العطاء والتضحيات.

وانضم الذين تطوعوا حديثا إلى صفوف الحركة الجديدة «حركة ٢٦ يوليو»، وكان على مسئولى الحركة مهام عسيرة خاصة فيما يتعلق بتدريبهم فى ظروف تدور فى إطار من السرية الكاملة، فكان عليهم مواصلة النضال ضد الحكومة المكسيكية وعملاء المكتب الاتحادى الأمريكى للتحريات (F - B - I) وعملاء «باتيستا»، وضد جميع المنظمات التى تزعم السيطرة فيما يلعب المال فى شئونها وتحركاتها دورا لا غنى عنه. وكان ينبغى من جهة أخرى وضع حساب دقيق لجواسيس «تروخيو» وهؤلاء المشبوهين الذين كانوا يبعثون بهم إلينا - وخصوصا من ميامى - ولم تكن السيطرة على كل هذه العقبات هى كل شىء، بل كان يجب النجاح فى الذهاب إلى كوبا.. ولابد بعد ذلك من القدرة على الوصول، ثم لابد أيضا من النجاح أخيرا فى قيادة ما تبقى، قيادة يكون التوفيق حليفها، وهو أمر بدا لنا ساعتئذ سهلاً يسيرا، أما اليوم فنحن نعلم كم يتطلب من تضحيات وجهود، بل وأرواح أيضا.

وقد راح «فيدل كاسترو» يدعمه نفر من أخلص الناس يعملون فى إعداد وتنظيم الجيش الذى سيتوجه إلى كوبا.. وقد بذل هذا التنظيم كل نشاطه وطاقته القصوى على الأداء العلمى، ولم يكن يعطى دروسا فى التكتيك العسكرى، إذ لم يكن لديه الوقت الإضافى لإعطاء مثل هذه الدروس.

وكان هذا هو دور الجنرال «البرتوبايو» (هو ضابط أسبـانى مرموق كان يعيش فى كوبا وله مؤلف بعنوان «دورى فى الثورة الكوبية»).

ومنذ الدروس الأولى تولد بداخلى اعتقاد جـازم بأننا سوف نفوز، (وأنا أقر هنا بأن النصر كان قد ظهر أمامى مشكوكا فيه عندما وضعت نفسى تحت تصرف قيادة الثورة ،هذه القيادة التى جذبنى لهـا للوهلة الأولى رابط رومانطيقى كان مكونا من المغامرة والاعـتقاد والتعـاطف وذلك بأن مثلا أعلى مثل الذى تعـمل له الثورة هو جدير بأن يموت فى سبيله الفرد فى بلاد غير بلاده).

ومضت الأيام والأسابيع وراحت تتجلى فى أغلبنا مهارة الرماية، حتى بات لدينا كوكبة من أمهر الرماة.. ووجدنا إحدى مزارع مدينة المكسيك بدأنا فيها من خلال إدارة الجنرال «بايو» لكى نجهز أوضاعنا من أجل الانطلاق إلى كوبا، وكنا قد ضربنا موعد ذلك التحرك فى شهـر مارس ١٩٦٥.. ولكن كانت هناك منظمتان من بين منظمات الشرطة مأجورتين من (باتيستـا) كانتا فى سباق مع الزمن لمطاردة وملاحقة «فيدل كاسترو» وقد تمكنت واحدة منهمـا (من الناحية المالية) من توقيف كاسترو بيد أنها قد ارتكبت خطأ فـادحا كان مرده الجشع فى الاسـتحواذ على المال ومن ثم لم تقتله بعد أن وقع فى شباك الأسر (كان العـميل السرى الذى أبلغ عن فيدل كاسترو إلى السلطات المكسيكية يطمع فى الحصول على جائزة مالية إذا حالفه التوفيق) ووقع عـدد من الأنصار فى براثن رجـال الشـرطة وقام هؤلاء بعـد ذلك بالتـفتـيش فى مـزارعنا الواقعـة فى أطراف مديـنة المكسيك ومن ثم وجـدنا أنفـسنا جمـيعـا فى السجن.

لقد أدى هذا الحادث إلى ضـرورة تأجيل المراجعة العامة الأخـيرة وكان بيننا من قضى فى السـجن زهاء ٥٧ يوما ولم يقض أحد مـدة أقل من ذلك إطلاقا وبدأت إجراءات تسليمنا إلى أوطاننا تبـدو لنا كالسيف المسلط على رقابنا جمـيعا (وكنت أنا وكاليستو جارسيا على علم ودراية بمعنى مثل هذا التسليم».

ورغم ذلك لم يهتز - على وجه الإطلاق - ما بداخلنا من ثقة فى (فيدل كاسترو) وينبغى القول إن فيدل كاسترو وفقا لما بيننا من صداقة قد صدرت عنه أشياء أوشكت أن تهدد موقفه الثورى. . فلقد عرضت أمامه إمكاناتى الشخصية. . لقد كنت أجنبيا تسللت إلى المكسيك وعلى كاهلى أحمل اتهامات لاحصر لها وقلت له ينبغى - على وجه الخصوص - ألا تتراجع المسيرة نحو الثورة من أجلى وأنه يمكنه أن يخلفنى وراءه وأننى أقدر الموقف تقديرا سليما وتداعياته السلبية ومن ثم سوف أحاول الانطلاق لميادين القتال أينما أرسلونى وكل ما أتطلع إليه هو أن يرسلونى إلى أى بلد قريب على ألا تكون الأرجنتين. وأنا لازلت أتذكر الجواب القاطع الذى أجابنى به فيدل كاسترو «لن أتخلى عنك أبدا» وكان ذلك بالفعل، فبعد مرور وقت قليل وحفنة بسيطة من المال. . وكلاهما عزيز. . أخرجونا من السجن المكسيكى إن سلوك فيدل نحو الذين يقدرهم يفسر فى ظنى ذاك التعلق غير المشروط الذى نراه فى أتباعه. . وهو تعلق يختلط فيه الالتزام بالقيم والمبادئ مع أهمية الولاء للشخص ولهذا السبب نرى هذا الجيش الثائر عبارة عن كتلة واحدة مترابطة متوحدة كأنها رجل واحد.

ولقد بذلنا جهودنا أياما عديدة فى الخفاء وكنا نختفى متى أردنا ذلك ونتحاشى الظهور فى الأماكن العامة. . وكان يندر سيرنا فى الشارع فى وسط المدينة، وبعد عدة أشهر قضيناها معاً على هذا النحو أدركنا أن بين صفوفنا عميلا خائنا لا نعرف من هو على وجه الدقة. . خائنا كان قد باع كمية من الأسلحة وتوافرت لدينا بعض المعلومات التى تشير إلى أنه قد تفاوض مؤخرا على بيع يخت كنا نملكه ومحطة إذاعة كانت فى حوزتنا وإن لم يكن عقد البيع القانونى قد تم بعد. . وهذه الخيانة الأولى برهنت للسلطات الكوبية أن الذى قام بها هو بالفعل من بين صفوفنا وأنه يعرف أدق أسرارنا. ومنذ هذه اللحظة تطلب الأمر القيام بنشاط فاعل وحيوى

فجهز المركب «جرانما» بسرعة جنونية وقمنا بتخزين كافة المواد الغذائية التى بحوزتنا - وقد كانت خفيفة - إلى جانب الملابس والبنادق والتجهيزات وبندقيتين مضادتين للدبابات وكنا فى تلك الأثناء نفتقد للذخيرة.. وأخيرا فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٦ وبالتحديد فى تمام الساعة الثانية صباحا راحت تتمثل كلمات فيدل كاسترو التى كانت فى ذلك الوقت محل تهكم وسخرية واستخفاف الصحافة الرسمية حيث كان يردد «عام ١٩٥٦ سنكون أحراراً أو شهداء»، وكانت جميع المصابيح قد انطفأت حين تركنا مرفأ «توكسبان» بين ركام ضخم من الرجال والحقائب.. وكان الطقس سيئاً للغاية حتى أن الملاحة كانت محظورة فيما كان مصب النهر هادئا كعادته.. وفى أعقاب خروجنا من المرفأ حتى أضيئت المصابيح مرة أخرى وكان من غير الممكن العثور على حبوب الدارمامين (وهى الحبوب الخاصة بالوقاية من الإصابة بدوار البحر والعلاج منه) رغم أن دوار البحر قد اجتاح أغلبنا وكنا نردد معا النشيد الوطنى الكوبى، ونشيد ٢٦ يوليو وربما استغرق معنا الإنشاد نحو دقائق قليلة فى كل مرة..

وكان منظر المركب يدعو للرثاء والضحك معا حيث كان من بيننا من ارتسم الحزن والخوف على ملامحهم وقد أمسك بعضهم بطنه بيده فيما كان هناك آخرون جلسوا على أرض المركب دون أن يحرك أى منهم ساكنا فى صورة من أعجب الصور وقد تلطخت ملابسهم بما تقيئوه... وبصرف النظر عن اثنين أو ثلاثة من الملاحين وأربعة أو خمسة أشخاص آخرين، أصيب الركاب الثلاثة والثمانون جميعا بأقسى وأفظع أنواع دوار البحر. وفى اليوم الرابع أو الخامس بدأت الأمور تتحسن تدريجيا واكتشفنا أن ما ظنناه مجرى ماء فى المركب لم يكن سوى نتيجة صنبور مفتوح فى الغرفة الخاصة بالأدوات الصحية ومن ثم اضطررنا إلى أن نلقى فى البحر كل ما لا نحتاج إليه حتى نخفف من أوزاننا.

وكان خط الإبحار الذى اخترناه يحتوى على منحنى هائل فى جنوبى كوبا سيرا بالقرب من شواطئ (جامايكا) وجزر (جران كايمان) لنرسو فى نهاية المطاف على شواطئ ساحل مقاطعة «أوريانتى» فى كوبا فى مكان ما بالقرب من بلدة «بنكيرو» وكان البطء هو السمة البارزة فى تنفيذ الخطة.. وفى ٣٠ نوفمبر أخبرنا الراديو أن اضطرابات اندلعت فى سانتياجو «بكوبا» وقد كان رفيقنا الكبير «فرانك باييس» الذى كان قد أطلق شرارتها الأولى تزامنا مع وصول حملتنا.

وفى أول ديسمبر بعد أن أسدل الليل أستاره اتجهنا على الفور إلى كوبا واليأس كاد أن يعصف بنا بعد أن تاهت منا معالم الاهتداء بمنارة «كابوكروز» (رأس الصليب) وذلك لحاجتنا الشديدة إلى الوقود والطعام والشراب وفى تمام الساعة الثانية من صباح هذا اليوم. وفى الليل الحالك ومن بين العواصف والأنواء كان الموقف غير مطمئن حيث إن خفراء الساحل يذهبون ويعودون أملا فى الوقوف على مصدر الشعاع الذى يظهر فى الأفق ساعة بعد أخرى وكان رفيقنا «روسك» وهو ضابط بحرى متمرس خوفا من مشاهدة (رأس الصليب) أخيرا صعد مرة ثانية جسرا صغيرا ومرتفعا فى المركب وسرعان مازلت به القدم فسقط فى الماء وقد أسرعنا لإنقاذه على جناح السرعة.. وبعد أن انتشلناه حيا إلى المركب عاودنا المسير حتى ظهر لنا شعاع الساحل أخيرا بيد أننا تقدمنا مشدوهين بهذا الضوء الذى جعلنا نشعر جميعا بأن رحلتنا تبدو وكأنها حديقة لها نهاية.

كانت الشمس قد سطعت مشرقة حين وصلنا ساحل كوبا واتجهنا إلى مكان يدعى «بيليك» على شاطئ «الكولورادس».

وشاهدنا أحد الزوارق وعلى متنه خفر السواحل وفى الحال أبرق إلى (جيش باتيستا) يخبرهم برؤيته لنا ولكننا توجهنا إلى الشاطئ بسرعة بالغة وقد حملنا على ظهورنا ما يمكن لنا أن نحمله من الحاجات الضرورية.

ولم يكن لدينا الوقت من أجل التغلغل فى المستنقعات حتى راحت طائرات جيش باتيستا تحلق فوقنا ولكن كانت هذه المستنقعات مغطاة بشجيرات الغزار وكنا نحن نمشى بينها ومن ثم عجزت هذه الطائرات من الاهتداء إلينا أو مهاجمتنا ولكن هذا العدو الغاشم بدأ يعد العدة لملاقتنا ومطاردتنا بأوامر عليا.

وأمضينا عدة ساعات قبل أن نخرج من هذه الورطة وقد ورطنا فيها أحد الحمقى من رفاقنا الذى زعم كذبا معرفته لتلك المستنقعات فلقد كنا هناك بالفعل على البر نتعثر وتذل بنا القدم فى الأرض الموحلة ونضل الطريق . كنا جيشا تكون من الأشباح تتقدم للأمام وكأن هناك قوة خفية تدفع بنا للأمام.

وكنا قد أمضينا من الوقت نحو سبعة أيام تضورنا خلالها جوعا وتألمنا فيها من مغبة دوار البحر وها هى ثلاثة أيام أخرى تضاف إليها لتصبح عشرة أيام لا نظير لها من حيث الرعب والهلع.

وبعد مرور عشرة أيام بالتمام والكمال من مغادرتنا للمكسيك وصلنا فى ٥ ديسمبر عند الفجر، وبعد رحلة ليلية رهيبة كانت الإغماءات وحالات القىء والغثيان وقلة الراحة من أهم معالمها ومظاهرها.

لقد اهتدينا أخيرا إلى نقطة تدعى «بهجة الناسك «أليجريا دى بيو» وكأن لعبة القدر تلاحقنا.

* * * *

التعميد بالنار

تقع «أليجريا دى بيـو» فى مقاطعة «أوريانتى» مديرية «ينكيـرو» فى مكان لا يبعد كثيرا عـن (كابوكروز) وفى تلك المنطقة باغتتنـا القوات الديكاتورية فى الخامس من ديسمبر عام ١٩٥٦.

ولقد وصلنا إلى أليجريا دى بيو» على آخـر نقطة بعد مشوار طويل بالطبع ولكنه كان عسيرا ومرهقا.. وكنا فى أثناء ذلك قـد توجهنا إلى الشاطئ فى ٢ ديسمبر فى مكان يدعى «شاطئ أكـولورادس» حيث إننا خسـرنا كل معداتنا ومن هناك مـشينا ساعات طوالا بين مسـتنقعات المياه المالحة بأحذيتنا الجديدة التى سـببت لنا قروحا لا يمكن أن يتحمـلها بشر.. لكن لم تكن الأحذية الجديـدة والأقدام التى تنزف دما أعداءنا الوحـيدين: ففى سبـيل بلوغ كوبا قطعنا سبـعة أيام من أجل اجتـياز خليج المكسيك وبحر الكرابيـب على مركب فى حالة سيئـة ودون أن يكون فى حوزتنا ما نتناوله من طعام.. وتعرض الجميع لدوار البحر.

صحيح أننا لم نكن على علم بأصول وقواعـد الملاحة ولكن عندما غادرنا مرفأ (توكسبـان) فى الخامس والعشرين من نوفـمبر كانت الرياح الشـمالية تجتـاح البحر بعنف حتى أنهـا أرغمت السلطات على إصدار أوامرها بمنع الإبحـار وقد ترك كل هذا آثاره فى قوتنا المكونة من رجال حديثى العهد بنا ولم يعرف أى منهم القتال قبل هذا اليوم..

ولم يكن قد بقى لنا من عتادنا الحربى أكـثر من البندقية وجناد الخرطوش وبعض الرصاصات المبـتلة.. وخسرنا تجهـيزاتنا الطبية وتخلى أكثـرنا عن كيس الجندى فى المستنقعـات.. وكنا بالأمس قد تقدمنا طوال ساعات الليل فى المنطقـة غير المزروعة بقصب السكر التى تسمى «ينكيرو» التى كان يملكها فى تلك الأيام «خوليولوبو» ولم

نكن نملك الخبرة الكافية فكنا نهدئ ظمأنا وجوعنا بمص العديد من عيدان قصب السكر كنا نقوم بنزعها من أطراف الحقول ونتخلص من فضلاتها فى عرض الطريق ثم بالإضافة إلى ذلك لم يكن جنود باتيستا فى حاجة لإجراء تحريات غير مباشرة فقد كان يكفيهم مؤونة ذلك دليلنا نفسه وقد اتضح لنا هذا بعد مرور سنوات - إذ أخذ على كاهلة أن يخوننا وأن يقود قوات المستبد الطاغية إلى حيث نكون - وكنا قد تركنا لذلك الدليل مساحة واسعة من حرية الذهاب والعودة وفق هواه فى الليلة السابقة وكان هذا خطأ ارتكبناه عدة مرات أثناء القتال إلى أن أدركنا وتنبهنا إلى أن عناصر الأهالى الذين لا نعرف ماضيهم ينبغى وضعهم تحت ميكروسكوب المراقبة الدقيقة ما دمنا متواجدين فى منطقة تتسم بالخطورة.

لقد كان لزاما علينا ألا نسمح إطلاقا لمرشدنا الخائن بأن يغيب عن أعيننا.

وفى فجر الخامس من ديسمبر كانوا آنذاك قلة هؤلاء الذين يشعرون بأنهم يملكون القدرة على أن يتقدموا خطوة أخرى إلى الأمام فالرجال الذين أرهقهم الإعياء كانوا يسيرون مسافات قصيرة فقط ويطلبون التوقف فترات طويلة ومن ثم تقرر أن نتوقف عند إحدى المزارع الخاصة بزراعة قصب السكر ضمن غابة صغيرة غير مكتظة ثم أشرقت الشمس وكنا فى سبات عميق وعند ظهر اليوم بدأنا نرى إشارات غير مألوفة لنا تنبئ بالخطر القادم حيث راحت الطائرات التى يملكها الجيش بغرض المراقبة والاستطلاع تحلق من حولنا حتى كانت هذه الطائرات تمر فوقنا وكنا نتظاهر بأننا غير عابئين بما يحدث ونحن غارقون فى قطع قصب السكر خاصة وإننا كنا مكشوفين لطائرات العدو التى كانت منخفضة الارتفاع.

وكنت بوصفى طبيبا يتولى شئون الفرقة والعناية بما أصاب أقدام أفرادها من جروح وقروح أذكر آخر معالجة طبية قمت بها فى هذا اليوم كان الرفيق الذى توليت علاجه هو (أوميرتولا مبوتى) وكانت هذه هى المرحلة النهائية حيث كان قد بدا لى

حينئـذ مجرد شـبح بائس يائس حامـلا بيده حذاءه الذى عـجز عن انتـعاله وكنت والرفيق مونتانيه نستند على جذع شـجرة ونتجاذب معا أطراف الحديث عن أولادنا وقد انهـمك كلانا فـى تناول الطعام الذى كـان مكونا من نصف قطعة من المـقانق ورغيفين من الحجم الصغير، وسرعـان ما سمعنا طلقا ناريا يدويا فى رحاب الفضاء وفى خلال ثوان تـبعتـه دفعة هـائلة من الطلقات النارية (أو هكذا بدا لأنفـسنا التى باغتـتهـا عمادة النـار هذه) على رجالنا البـالغ عددهم نحو ٨٢ رجـلا. ولم تكن بندقيـتى من أكفأ وأحدث الـبندقيات. حيث كنت قـد طلبت بإرادتى أن تكون من هذا المستوى لأن حالتى الصحية كانت تدعو للرثاء بعد أن داهمتنى نوبة ربو شديدة طوال أيام عبورنا البحر، ولم أكن أحـرص على أن تضيع بندقية كفء بين يدى.. لست أدرى فى أية ساعـة أو حتى كيف حدثت الأمور وتفـاعلت.. أوه لقد بدأت الذكريات فى الأفـول.. إنما أذكر أن رفيقى «الميـدا» الذى كان حينئذ بدرجـة كابتن جاءنـى أثناء تساقط المطر الغـزير يطلب الأوامـر بيد أنه لم يكن هناك أحـد يعطى الأوامر وأخبرونى فيـما بعد أن فيدل كاسترو حاول لكن دون جـدوى إعادة تحشيد الرجال فى إحدى المزارع المجاورة لقصب السكر وحتى يصل الرد إليه كان يكفى أن يختار المـنطقة غير المزروعـة.. بيد أن المفاجأة كـانت كبيرة إلى أقـصى درجة وأما إطلاق النار فقد كان كثـيفا للغاية.. وعاد الميدا لكى يولى اهتمـاما بفرقته وفى ذات الوقت ألقى أحد الرفـاق صندوقا مكتظا بالرصاص أمـام قدمى وحينما سـألته عن المعنى وراء هذا الأمر أجابنى وقد بدا لى مهمـوما وكسيرا قائلا: «ليس هذا الوقت الملائم للاهتمـام بصناديق الرصاص» ومـا كاد يفرغ من هذه العـبارة اليائسـة حتى أطلق ساقه للريح قاصدا مزرعة القصب (وأثناء ذلك سقط قتيلا على يد أحد جنود جيش باتيستا ووقفت أتسـاءل.. هل سأنذر نفسى للطب أم لواجبى كجندى ثورى؟ ربما كانت تلك هى المرة الأولـى التى واجهت فيـها هذا المأزق بشكل واقعى: فـها

هى حقيبة قد امتلأت بالأدوية وصندوق زاخر بالرصاص وثقل كليهما يحول بينى وبين حملهما وإذا بى أحمل صندوق الرصاص وأترك حقيبة الأدوية لكى أعبر المسافة المكشوفة التى تفصل بينى وبين مزرعة قصب السكر وأذكر بكل وضوح أننى شاهدت «فوستينوبيريز» وقد جثا على ركبتيه فى المنطقة غير المزروعة وهو يطلق النار من بندقيته الرشاشة وإلى جوارى أحد الرفقاء ويدعى البنيتوسا» فى طريقه إلى مزرعة القصب وإذا بدفعة كثيفة من الطلقات تصيبنا نحن الاثنين وأحسست بضربة عنيفة قوية فى صدرى مع جرح نازف فى عنقى واعتبرت نفسى حينئذ فى عداد الموتى وأما (البنيتوسا) الذى كان الدم ينزف من فمه وأنفه ومن ذاك الجرح الغائر الكبير الذى ينزف من عنقه الذى سببته رصاصة عيار ٤٥ فقد راح يصرخ قائلاً: «لقد أصابونى» وراح يطلق الرصاص كالمجنون حيث لم يكن أمامه أحد فى تلك اللحظة فالتفت وأنا مضرج فى دمائى على الأرض إلى «فوستينو» وقلت له: إنهم يثيرون سخطى «بل إننى قد استخدمت كلمة أكثر حماقة».

أما فوستينو فقد رمقنى بنظرة وأخبرنى ببساطة الأمر وإن كنت قد قرأت فى عينيه ما يعنيه الجرح الذى أصبت به من حكم على حياتى.

* * * *

وظللت متمددا وبعثت طلقاً ناريا فى اتجاه رجال المقاومة فى رضوخ للحافز الكامن فى نفسى الذى دفع رفيقى الجريح لإطلاق النار بصورة جنونية وعشوائية. بعد ذلك فكرت فى أفضل طريقة للموت فى تلك اللحظة التى فيها وكأن كل شىء قد انتهى . . وعادت إلى ذاكرتى قصة «جاك لندن» القديمة التى يستند فيها البطل على جذع شجرة وهو يتأهب للتخلص من حياته فى ثورة كرامة طارئة بعد أن علم أن حكما بالموت بواسطة التبديد ينتظره فى مناطق الأسكا الجليدية.

وهذا هو المشـهد الوحيـد الذى مازلت أتذكـره فى تلك اللحظة الخطيـرة وكان هناك أحدنا جاثيـا على ركبتيه يصـرخ صرخات مدوية داعيا إلى الاسـتسلام ومن ورائنا تناهى لأسـماعنا صوت يزمـجر «وقد علمت بعـد ذلك أنه صوت» كـاميلو سينفـويجوس» «مامن أحد يسـتسلم هنا» وأعقب تلك العـبارة بكلمة وقحـة وبذيئة واقتـرب بونس وهو كالموج المتلاطم منقطع الأنفـاس يشير إلى الجـرح الذيكان يبدو مخترقاً صدره وقال لى إنه جرح فأفهمته بلا مبالاة كلية أننى أيضا قد جرحت وتابع بونس تقدمه صـوب مزرعة القصب كما كـان يفعل بقية الرفاق الذين لم يتـعرضوا لأذى الرصاص الجارح والقاتل.

وبقيت فترة من الزمن بمفردى هناك فى انتظار الموت وأقبل ألميدا نحوى وشجعنى على الاستمرار فى عمليـة الزحف ورغم ما بى من آلام تمكنت من الوصول زحفا إلى مزرعة الـقصب. ورأيت قرب جذع الشـجرة رفيقنا العـزيز راوول سوارز وقد دمرت رصاصة إبهامه «وفوستينو بيريز» يضمدها له ثم اختلط كل شيء حيث مرت الطائرات على ارتفاع منخفض للغاية وراحت تطلق النار من رشاشاتها مما زاد الأمر سوءا على سوء حتى كنت كمن يعيش فى جحيم دانتى، وتارة تبعث على الضحك فلقد كنت تارة مقاتلا يتسم بضخامة الجسـد يحاول أن يختبئ وراء حزمة كبيرة من قصب السكر أو تجد آخر يطلب الالتـزام بالصمت دون أن يعرف أحد لماذا. . بين ثنايا هذه الصراعات العنيفة التى كانت تسببها الطلقات النارية.

وتشكلت مـجموعـة من الرجال كان فى طـليعتـهم (ألميدا) وكانـت تتألف من رامـيدو فـالديس الذى يشـغل الآن درجة قـومندان (وكان برتـبة ليـوتنان فى ذلك الوقت) كما كـانت تضم الرفيقين تشاو وبنيـتز وأنا، واجتزنا بقيادة ألميـدا آخر منطقة غير مزروعة فى مزرعة القصب قبل أن نصل الجبل الذى سنعتصم به.

وفى الوقت ذاته تناهى لآذاننا صوت الصرخـات الأولى التى تعالت بإشعال النار فى المزرعة وشاهدنا أعمدة الدخان واللهب يتصاعد منها ولا يمكننى أن أؤكد هذا المشهد فقد كنت فى تلك اللحظة أفكر فى مرارة الهزيمة، وفى قرب موتى أكثر مما أفكر فى أحداث القتـال وتطوراته البالغة. . ومشينا حـتى أقبل الليل الذى حال بيننا وبين المسير ومن ثم قررنا جـميعا أن ننام جنبا إلى جنب يهاجمنا البـعوض ويلتهمنا الجوع ويفترسنا العطش.

هذه كانت خلاصة عمادتنا بالنار فى الخـامس من ديسمبر عام ١٩٥٦ فى جوار «نيكيرو» وهكذا أخـذ الجيش فى التفاعل حـتى بدأ يتبلور ليصبح بعـد ذلك جيش الثورة».

* * * *

الفصل الثانى

الجريمة التى لا تغتفر

«إن تخليكم عن أسلحتكم جريمة حمقاء لا تغتفر»

فيدل كاسترو



الفصل الثانى
الجريمة التى لا تغتفر

فى اليوم التالى المفاجأة «ألجريا دى بيو» مضينا فى طريقنا حيث الأراضى المغطاة بالأشجار فيما كانت الطلقات النارية تصدر على فترات زمنية متقطعة من هنا وهناك ولم نتمكن من الوصول إلى الطريق الصحيح ولاحظ (تشاو) الخبير والمتمرس فى الحرب الأسبانية أننا إذا اتجهنا فى طريقنا الطويل المظلم فمن المؤكد أننا سوف نقع فى براثن العدو ومن ثم أرى أنه يجب علينا أن نبحث عن مكان ننتظر فيه أن يرخى الليل ستائره حتى نعاود المسير مرة أخرى.

كنا فى واقع الحال بغير ماء وحتى علبة الحليب الوحيدة التى كانت معنا قد وضعها (بنيتز) فى جيب سترته معكوسة ليتساقط الحليب من ثقوبها دون أن ندرى وحين حل موعد تناول الطعام وهو عبارة عن أنبوب فيتامين فارغ كنا نملأ هذا الفراغ بالحليب الكثيف مع إضافة قليل من الماء، ولأن الحليب قد بلل سترة (بنيتز) بفعل وضع العلبة المعكوس فقد عجزنا عن تدبير احتياجاتنا الغذائية.

واستطعنا أن نختبئ فى شيء ما يشبه المغارة ومن خلال هذا المكان كان أمامنا مدى كبير وواسع تهيم فيه العين من جانب ولكن كان شاقا على النفس أن ترى العدو أمام عينيك يقتحم هذه المغارة.. ومع ذلك فحيث إننا كنا نحرص على ألا يرانا أحد أكثر من حرصنا على أن ندافع عن أنفسنا قررنا البقاء هناك طول النهار دون أن يتردد أى أحد منا على وجه الإطلاق نحن الخمسة فى التعهد القاطع بالنضال حتى الموت وهذه هى أسماء الذين أقسموا هذا اليمين «راميرو فالديس» (وخوان الميدا) و(تشاو) و(بنيتز) وكاتب تلك المذكرات وقد كتب لنا جميعا أن نظل أحياء على ظهر الحياة بعد مرارة الهزيمة القاسية وما ترتب عليها من معارك.

وحين أقبل الليل عاودنا السير وشرعت فى تنشيط ذاكرتى حتى أتذكر معلوماتى التى استوعبتها فى الماضى فيما يخص العلوم الفلكية فاستطعت أن أهتدى بنجمة القطب للتقدم خلال اليومين التاليين باتجاه ناحية الشرق والوصول إلى جبال «سيرا مايشرا» وبعد مرور عدة أشهر علمت أن النجمة التى استرشدنا بها نحو الشرق لم تكن نجمة القطب لقد أخذنا إذن بطريق الصدفة المحضة[1] الاتجاه السليم حتى نجد أنفسنا عند الفجر أمام الصخور العالية القريبة من الشاطئ.

وكانت هناك صخور تفصل بيننا وبين البحر ترتفع عالية نحو خمسين مترا وإلى الجانب الآخر كانت هناك صورة براقة جذابة ساحرة هى صورة رقعة المياة التى كنا نحسبها مياها عذبة.

لقد كان العطش هو مصدر عذابنا الرهيب وفى أثناء هذه الليلة تكاثرت من حولنا سراطين الأرض فأغرنا عليها إغارة ضخمة بدافع الجوع والعطش ولأننا لا نستطيع أن نوقد ناراً فقد التهمنا الأجزاء الجيلاتينية من أجسامها نيئة الأمر الذى أصابنا بعطش لا يمكن تحمله.

وقد قضينا وقتاً معقولا قبل أن نعثر على ممر كان علينا أن نعبره طلبا للماء ولكن فى ذهابنا وإيابنا غابت عن أعيننا رقعة المياه التى وقعت عليها أعيننا من شاهق.

وكان علينا أن نقف أمام برك مياه صغيرة هى ما تبقى من مياه الأمطار سقطت من قبل فى بعض الحفر.

وساعدتنا مضخة صغيرة يتم استخدامها ضد الربو على نزح الماء ولم يكن نصيب الواحد منا أكثر من بضع نقط لا تشفى الغليل.

* * * *

---

(١) بل.. تصاريف القدر ياجيفارا.

واستأنفنا السير على غير هدى حتى انهارت معنوياتنا.. ومن وقت لآخر كانت تحلق إحدى الطائرات فوق البحر.

وكان السير بين الصخور مرهقا للغاية فاقترح أحدنا أن نمشى ملتزمين جوانب الصخور الراسية على الشاطئ.. ولكن كان لهذه الطريقة آثار سيئة واضحة هى أن العدو يستطيع حينئذ رؤيتنا.. وأخيرا تمددنا تحت ظلال بعض الشجيرات فى انتظار ساعة المغيب وحينما تقدم الليل وأعلن مجيئه عثرنا على شاطئ رملى صغير فتوجهنا إلى البحر من أجل الاستحمام والتخلص من القاذورات التى حاقت بنا..

وحاولت من جانبى أن أطبق فكرة كنت قد قرأتها فى تقرير شبه علمى أو فى نشرة طبية أو ربما فى إحدى الروايات.. المهم أن خلاصة هذه الفكرة هى أن المياه الحلوة إذا اختلطت بمياه البحر بنسبة الثلث إلى الثلثين تعطى المرء ماء صالحاً للشرب بالإضافة إلى أن كمية المياه تصبح أكبر، وقمت بإجراء التجربة فى قطعة يابسة ولكن كانت النتيجة تبرهن على الفشل فالماء تحول إلى ملح أجاج مما جعلنى بعد هذه التجربة موضع انتقاد شديد من رفقائى وعاودنا السير وقد استردت أجسامنا عافيتها بفعل الاستحمام وكان الليل على وشك التسلل على الكون، وأذكر ليلتها أن ضوء القمر كان قويا جذابا فشاهدت أنا (وألميدا) وكنا فى مقدمة المجموعة وشاهدنا كوخاً صغيراً أقامه أحد الصيادين على الشاطئ وكان بداخله ثلاثة رجال يتأهبون للنوم وكنا على يقين أنهم جنود.. ولكننا كنا قد اقتربنا كثيرا من الكوخ بحيث لم يعد ينفع أن نعود من حيث جئنا مرة أخرى وتحمل ألميدا مسؤلية التوجه إلى هؤلاء الرجال ولهول المفاجأة التى لم نكن نتوقعها بحال من الأحوال فقد اكتشفنا أن الرجال الثلاثة كانوا من رفقائنا فى المركب «جرانما» الذى عبرنا فيه بحر المكسيك وهم «كاميلو سينفو يجوس» وبانشو جونزالز» روبابلو أوزنادو» وفى الحال أخذنا نتجاذب الآراء المختلفة معا والأخبار والأنباء والأفكار حول بعض ما توافر لدينا من

معلومات وقدموا إلينا حزمة من قـصب السكر كانوا قد اقتطعوها قبل هروبهم من المزرعة فكانت هذه المادة السكرية السائلة ما نسد به جوعنا.

وبينما كنا نمضغ قصب السكر كانوا هم يتناولون مـا قدمناه لهم من سراطين البر بلهفـة شديدة ووجـدوا طريقا لإرواء ظمـأهم باستـخراج الماء مبـاشرة من الحـفر الصغيرة فى الصخر من خـلال أنبوب أو خشبة صغيرة فارغة واسـتأنفنا السير معا وأصبح عـدد المقاتلين الذين كتـبت لهم النجاة ممن كانـوا على متن المركب (جرانما) ثمانية إذ لم تكن لدينا أية معلومات عن وجود أحياء آخرين..

لقد قـدرنا من حيث المنطق أنه ينبـغى أن تكون هناك مجمـوعات أخرى تشـبه مجـموعـتنا ولكن لم تكن لدينا أى فكرة عن المكان الذى يمكنـنا أن نلتقى مـعهم بداخله.. وكل ما كنا نعرفه هو أننا فى طريق سيـرنا، والبحر إلى يميننا إنما كنا نتجه ناحيـة الشرق يعنى صوب الجبل «سـيرا» حيث يجب أن نلجـأ.. ولم نكن لنخدع أنفسنا فـبين هذه الصخـور المرتفعة وبيـن البحر حـيث نسير لم يكن لنا أى مـجال للهرب فى حال مبـاغتة قوات العدو لنا ولا أذكر الآن هل مـشينا يوما أو يومين أو مشـينا ثلاثة أيام على طول الشـاطئ.. ولكن أذكر فقط أنـنا كنا نأكل من الصبـير الصغير الذى كان ينبت بين الصـخور ولم يكن نصيب أى فرد منا يزيد عن واحدة أو اثنتين عـلى أكثر تقـدير من هذه الثمـار البرية ولكنها علـى أية حال هدأت من عذاب جوعنا.

وأما بخـصوص الظمـأ الرهيب الذى اكـتوينا منه فكان يقطع أمـعاءنا حـيث كنا مضطرين أن نوفر قطرات الماء القليلة التى كانت فى حوزتنا حـتى لا تنفد منا جميعا وذلك بقدر ما نستطيع.

وذات صباح وعند ساعة الفجر داهمتنا حالة من الإجهاد الشديد ونحن بعد أن وصلنا شاطئ البحر وتمددنا هناك فى مقاومة عنيدة للنوم ونحن على شوق لوضوح الرؤية حتى نعثر على أحد الممرات قبل أن نمشى على صخور عالية ومرهقة.

وعند شروق الشمس عثرنا على ممر وتوقفنا أمام منزل ضخم شيد بواسطة سعف النخيل وبدا أمام أعيننا أن صاحبه فلاح ميسور الحال وكان لدى إحساس أن مجرد الاقتراب من هذه البيوت أمر ينطوى على مخاطر جسيمة ينبغى تجنب الوقوع فيها ربما كان يقطن بها أحد أعدائنا بل قد يكون ثكنة من ثكنات العدو شيدوها لخداع أمثالنا ولم يشاركنى «بينيتز» هذا الرأى وانتهى بنا الأمر إلى الذهاب معا إلى البيت.

وقفت أنا فى الخارج أترقب الأمر فيما كان «بينيتز» يتسلق ويقفز فوق سور من الأسلاك الشائكة (وكان برفقتنا شخص آخر لا أذكر الآن من هو؟ وفجأة رأيت فى الظل شبح أحد الرجال يرتدى ثياباً عسكرية حاملا فى يده بندقية من طراز (م. ا.) وتصورت فى التو أننا نعيش لحظات العمر الأخيرة على الأقل بالنسبة (لبينيتز) الذى أصبح على بعد خطوات من الرجل العسكرى ومن ثم لم يعد ممكنا تحذيره.. لكنه عاد إلينا مسرعا وهو يقول فى سذاجة مفرطة أنه رأى رجلا يحمل بندقية ولم يشأ أن يسأله وأحسسنا أننا قد ولدنا مرة أخرى من جديد ولكن جولتنا الرهيبة والعجيبة لم تنته فبعد تحريات فى الأماكن المجاورة وجدنا أنفسنا فى اضطرار لتسلق الصخور الشاطئية التى كانت على ارتفاع عادى.. واقتربنا فى الواقع من منطقة (أوخو دى بوى): عين الثور التى سميت بهذا الاسم لأن ساقيه صغيرة تصب فى البحر تخرق الصخر هناك من جانب إلى الجانب الآخر.

وباغتنا النهار قبل أن ننتهى من التسلق ولم يكن بوسعنا سِوى ما يكفى للوصول إلى مغارة تشرف على المشهد بأكمله إشرافا رائعا وكان الصمت قد ران على المكان وقد رأينا زورقا من زوارق البحر ينزل منه على الشاطئ رجال بلغ عددهم أمام أعيننا ثلاثين رجلا بينما يصعد غيرهم إلى الزورق فى شبه عملية إحلال وتبديل كما تراءى لنا..

وعلمنا فيما بعد أنهم كانوا جنود (لورانت) سفاح البحرية الرهيب الذى جاء من أجل استبدال رجاله بعد أن فرغ من مهمته الدموية فى إعدام عدد من رفقائنا.

وظهرت أمام عينى «بينيتز» المبهورتين أشباح هؤلاء الرجال الذين يحملون البنادق. . ولم يكن موقفنا على ما يرام إذ لم تكن هناك أية إمكانيات لتوافر شروط السلامة إذا عثر علينا جنود العدو ومن ثم وجب علينا القتال حتى النهاية.

وطوال ساعات النهار لم نستطع أن نتناول أى شىء والماء بالطبع قد تم تقنينه إلى أقصى درجة كما سبق لى أن أشرت لذلك. . لقد كانوا يوزعون الماء فى عدسة منظار تليسكوبى فلا توجد طريقة تضمن عدالة التوزيع من مثل هذه الطريقة.

وفى الليل واصلنا السير حتى يمكننا الابتعاد عن تلك المنطقة الخطرة التى قضينا فيها عدة أيام هى من أكثر أيام الحرب إثارة للقلق والرعب حيث يفترسنا الجوع ويتملكنا الظمأ ويسيطر علينا إحساس بالهزيمة وباقتراب الخطر الذى يتولد من رحمه اعتقاد بأننا لسنا غير فئران وقعت فى المصيدة.

وبعد تحريات لا حصر لها. . تمكنا من اكتشاف مكان الساقية الشهيرة التى تصب فى البحر أو على أحد روافدها على أقل تقدير. . وتمددنا على الأرض على بطوننا من أجل أن نشرب الماء كما تشرب البغال والخيل وكنا على استعداد لمواصلة الشرب لولا أن معدة كل منا قد أبدت امتعاضها من فرط ما شربناه. . وملأنا القرع اليابس بالماء وتابعنا الرحلة. . وعند الفجر وصلنا ذروة إحدى الأكمات التى تزينها كوكبة من الأشجار وتوزعنا فى نقاط حرصا منا على أن نختبئ أحسن الاختباء ونقاوم أفضل مقاومة وقضينا أغلب ساعات النهار نتأمل طائرات صغيرة تحلق فوق رؤوسنا فى ارتفاع منخفض للغاية وقد كانت مزودة بمكبرات صوتية تصدر عنها أصوات غير واضحة استطاع (ألميدا) وبينيتز» أن يفهما وهما محاربان من قدامى محاربى (مونكادا) أنها أوامر تدعو للاستسلام. . وكانت تصدر من حين لآخر من داخل الغابة ضوضاء من العسير معرفة مصدرها أو حتى إدراكها.

وفى الليلة التالية قادتنا جولاتنا إلى قرب منزل تصدر عنه أصداء توقيعات أوركسترا تعزف الموسيقى ومرة أخرى تصاعدت حدة القلق والتوتر «فراميرو والميدا» وأنا كنا على يقين بأن من واجبنا أن نتجنب الظهور فى حفل راقص أو حتى اجتماعات بهجية مثل هذا النوع، ذلك أن الفلاحين سوف يتحدثون عن وجودنا لجميع الجيران وإن كان ذلك بدافع النميمة التى اعتاد هؤلاء عليها، أما بينيتز وكاميلو فقد أعربا عن رأيهما بوجوب الذهاب إلى المنزل مهما كلف الأمر من أجل تناول الطعام وأخيرا وقع اختيار الرفقاء علينا أنا وراميرو للتوجه إلى المنزل وتسقط الأنباء مع العودة ببعض الطعام، وكدنا نصل إلى البيت حتى توقفت الموسيقى فجأة وسمعنا بصوت واضح رجل يقول ما معناه «والآن لنعزف على شرف جميع رفقائنا فى السلاح الذين كانت بطولاتهم وأعمالهم لامعة وبراقة.

وقد كفانا ذلك حتى يمكننا العودة على جناح السرعة بخطى الذئاب لكى نبلغ بقية الرفاق إلى أية جهة يدين هؤلاء الذين يشاركون فى الحفل بالولاء والانتماء.

وعاودنا السير ولكن فى كل مناسبة كان الرجال يرفضون التقدم وفى هذه الليلة وربما فى الليلة التالية أبدى جميع الرفاق باستثناء قلة قليلة عن عدم رغبتهم فى الاستمرار فاضطررنا أمام تلك الرغبة المفاجئة إلى أن نطرق باب أحد الفلاحين إلى جانب الطريق فى مكان يدعى «بوركاس جورداس الخنازير السمينة» بعد مرور تسعة أيام من مفاجأة «اليجريا دى بيو» استقبلنا الفلاح هاشاً باشا وأصبح كوخه ملاذاً لنا لتناول الطعام والشراب وكانت الساعات تمضى بنا ونحن نأكل ونأكل حتى فاجأنا النهار ونحن غارقون فى الطعام وأصبح من العسير علينا أن نخرج من الكوخ.

وشاهدنا فى صباح ذلك اليوم أفواجاً كثيرة من الفلاحين توافدوا على الكوخ للتعرف علينا والاحتفاء بنا بالطعام والهدايا والمودة ولكن هذا البيت الصغير الذى جئنا إليه سرعان ما تحول من جنة صغيرة إلى قطعة من جهنم فكان «ألميدا» أول من

تعرض للإصابة بالإسهال الشديد ثم تبعه باقى الرفقاء حيث كان منهم من راح يتقيأ بيد أن يابلو أورنادو تمكن من النهوض وهو الذى أجهدته الأيام السابقة بكل ما كان بها من مصاعب ومتاعب ودوار بحر وجوع وعطش شديدين وطرق شاقة وصخور جبلية عالية الارتفاع وطلقات نار تنهمر علينا كأمطار السماء.

وقررنا على إثر ذلك مغادرة الكوخ ليلا.. وقال لنا الفلاحون إن الأخبار التى تجمعت لديهم تفيد أن فيدل كاسترو مايزال على قيد الحياة واقترح أحدهم أن يذهبوا بنا إلى أحد الأماكن التى قد يكون كاسترو متواجداً بها هو (وكريستنتو بيرس) ولكنهم اشترطوا علينا أن نتخلص نهائيا من ثيابنا العسكرية ونترك أسلحتنا ولكن احتفظت أنا وألميدا بمسدسين رشاشين من طراز ستار. أما البنادق الثمانية والرصاص فقد ظلت باعتبارها وثيقة ضمان فى منزل الفلاح فى حين تشاطرنا إلى مجموعتين الأولى مكونة من ثلاثة رجال والثانية مكونة من أربعة كى نحل ضيوفا على منازل الفلاحين وبعدها نتوجه إلى جبل سيرا مايسترا» على فترات زمنية.

وكان فريقنا مكونا من يانتشو جونزاليس وراميدو وفالديس وألميدا وأنا.. أما الفريق الآخر فكان يضم كاميلو وبينيتز وتشاو ولم يتمكن «يابلو أورنادو» المريض من مغادرة المنزل.

وما كدنا نذهب حتى أخبر صاحب البيت صديقه بالطريقة المثلى لإخفاء السلاح ولكن نجح هذا الصديق من إقناعه بضرورة بيعها وكان هناك لص ثالث مستعداً للشراء وكان هذا هو الذى أفشى حقيقة موقفنا إلى الجيش ومن ثم كان المنزل الذى استضافنا قد وصل إليه العدو بعد أن غادرناه بساعات قليلة ليلقى القبض على يابلواورنادو ويستولى على جميع الأسلحة.

وكنا عند رجل من الإدفنتست اسمه «أرخيليو روسابال» يشتهر بلقب الراعى وعندما علم بالنبأ الخطير أرسل إلى فلاح آخر فى الحال على دراية بأحراش المنطقة لكى يبلغونا النبأ لاتخاذ الاحتياطات اللازمة.

أما الفلاح الذى التقينا به فى تلك الساعة كان يدعى (جيرموجاريتا) وهو الآن قائد جيش منطقة أوريانتى وعضو الإدارة الوطنية لحزبنا.

* * * *

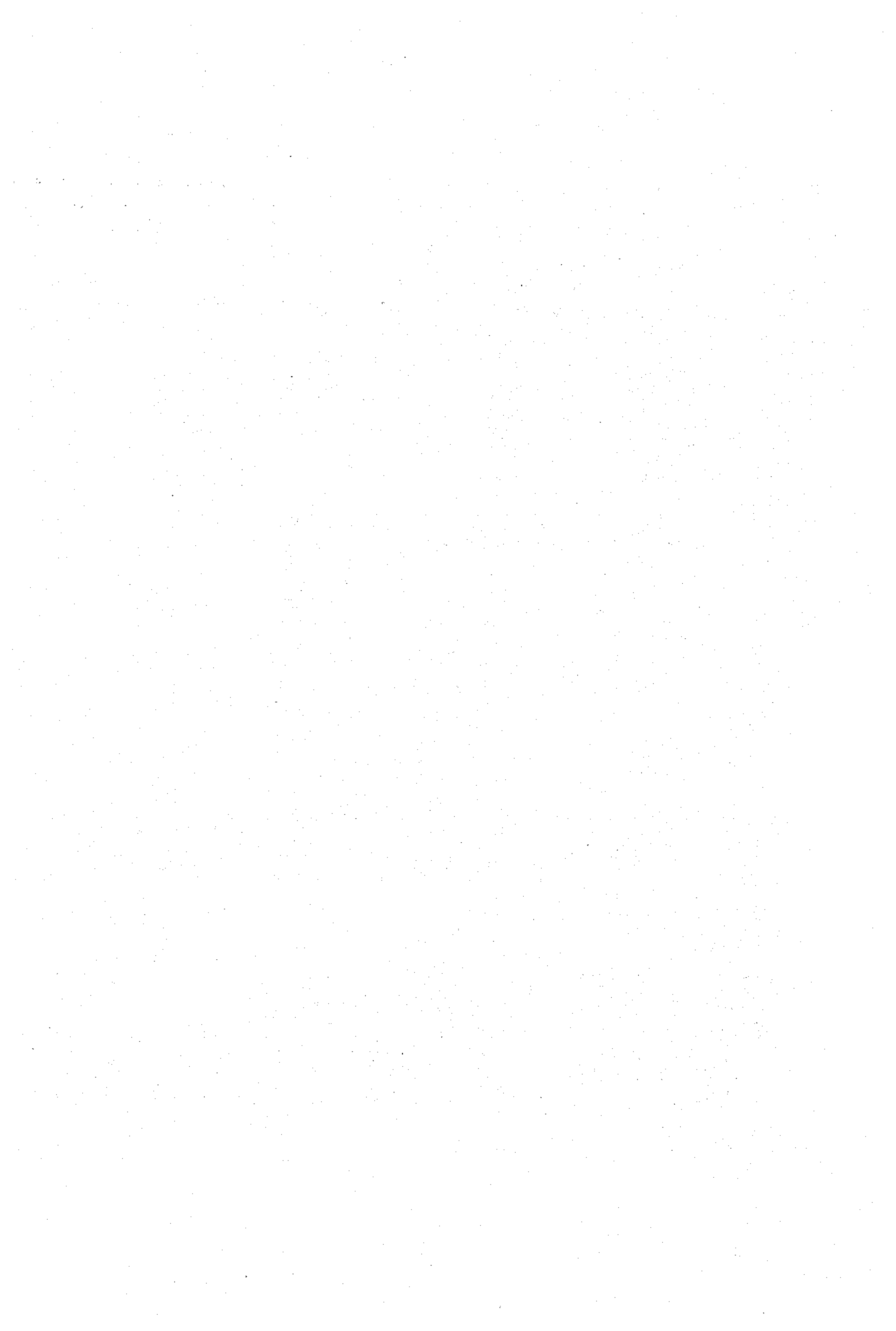
كان الفلاحون قد استقبلونا بعد ذلك فى منازلهم وكان فى مقدمتهم الفلاح كارلوس ماس الذى انضم إلينا بعدها وبيروتشو وغيرهما من الرفقاء الذين سقطت أسماؤهم من ذاكرتى.

وذات صباح باكر وبعد أن اخترقنا طريق «بيلون» سائرين دون أن نعتمد على أى دليل بلغنا مزرعة (مونجو بيرس) شقيق «كرستينتو» وهناك فى هذا المكان التقينا مع باقى الرفقاء الأحرار الذين كتبت لهم السلامة والنجاة حتى الآن.. ونزلت قوتهم على شاطئ كوبا وهم (فيدل كاسترو) واونفر سوسانتش» (وفوستينو بيرس) (وراوول كاسترو) و(سيرو روندو) (وافخيتوا ميخيراس) (ورينه روديجس) (أرمنه درودريجس) وبعد مرور عدة أيام التحق بنا كل من موران وكرسيو وخوليتو دياس وكاليستو جاريتا وكاليستو مورالس وبرمودس.

وتقدمت فرقتنا بدون أزياء عسكرية أو حتى أسلحة وكان فى حوزتنا مسدسان فقط وقد وجه فيدل كاسترو إلينا لوما شديدا وطوال الثورة كانت كلماته ترن فى مسامعنا ولعلى لا أبالغ إذا قلت إنها ترن حتى الآن.

وعلى سبيل المثال كان يقول بصوت عال جهورى يشق الجدران:

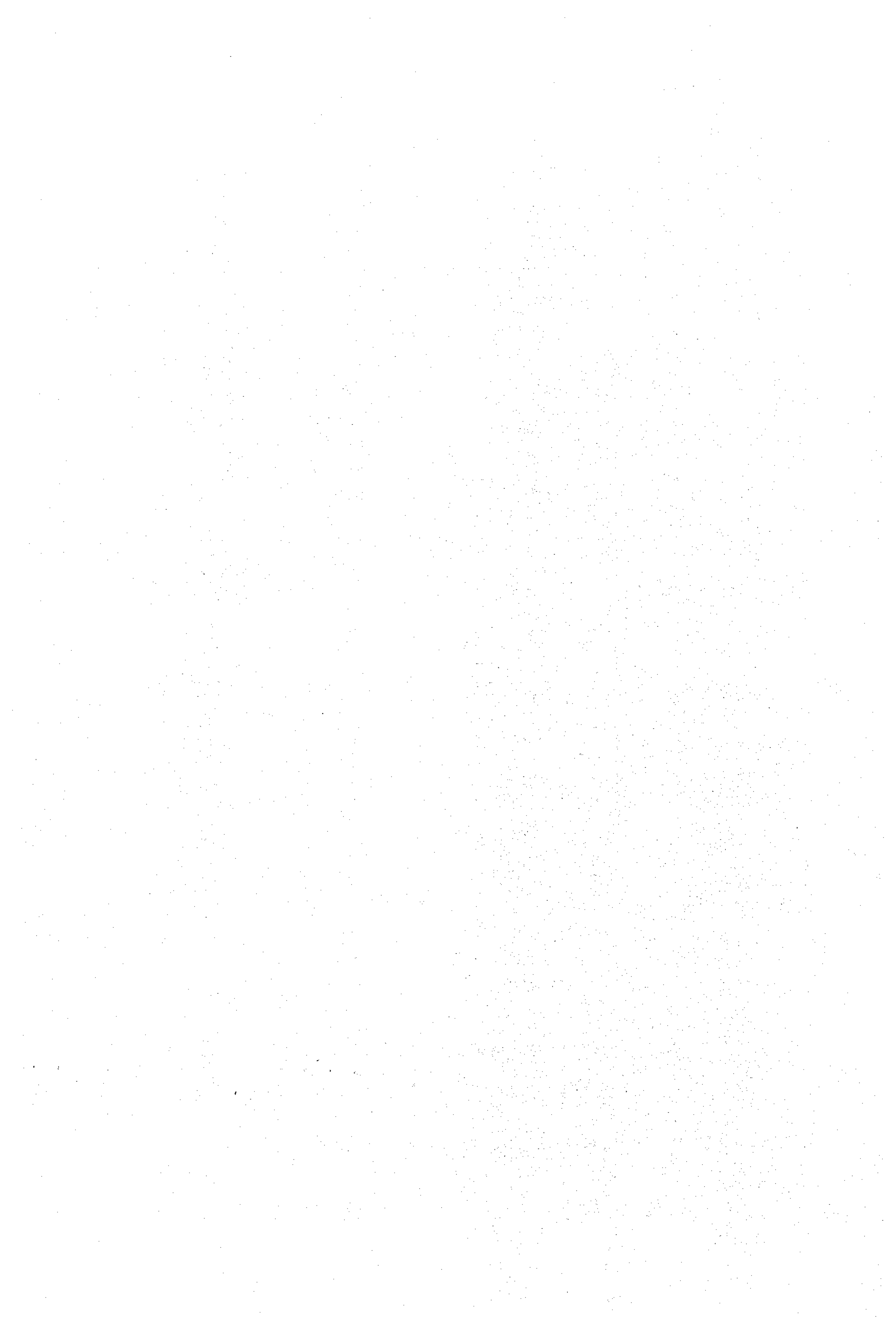
[أنتم لم تدفعوا ثمن هذا الخطأ الفادح الذى ارتكبتموه حيث إن الذى يتخلى عن سلاحه فى مثل هذه الظروف إنما هو يدفع بذلك حياته ثمنا لمثل هذا التصرف الطائش. لقد كانت أسلحتكم هى نقطة الضوء الذى تستطيعون من خلالها أن تهتدوا لنهاية الطريق وتبقوا على قيد الحياة حتى لو واجهتم الجيش نفسه وجها لوجه.. إن تخليكم عن أسلحتكم جريمة حمقاء لا تغتفر».



الفصل الثالث

الطريق إلى النصر الأول

«أنا لا أزال أذكر الكلمات التى كان ينطق بها هذا الفلاح المسكين حيث كان يقول على مسمع منى: أنا إنسان مثلكم: فيجيب عليه الكابورال باسول اخرس وامشِ إذا أردت ألا نجبرك على السير بالسياط».



الفصل الثالث
الطريق إلى النصر

كان هجومنا على موقع صغير يقع على مصب «الريودى لاباتا» نهر الفضة فى منطقة «سيرا مايسترا» أول نصر حققناه وقد أدى لإحداث ردود أفعال واسعة النطاق ولفت الانتباه فى كل مكان وبرهن على أن الجيش الثائر حقيقة واقعة وليس خرافة كما يظن هؤلاء.. أما فيما يخصنا نحن فقد كانت المعركة فرصة ذهبية أكدنا من خلالها مدى إيماننا بالنصر النهائى.

وفى ١٤ يناير عام ١٩٥٧ بعد شهر تقريبا من مفاجأة «الجريا دى بيو» توقفنا قرب «ما جدا لينا» التى يفصلها عن نهر لابلاتا امتداد صخرى لجبل (مايسترا) المنحدر إلى البحرين بين الواديين الصغيرين وتنفيذاً لأمر «فيدل» قمنا هنا ببعض التدريبات على الرماية بهدف تدريب الرجال حيث كان البعض منهم يقوم بالرماية للمرة الأولى فى حياته وأخذ كل منا حماما رائعا بعد شقاء الأيام الماضية وعذاباتها بل واستبدل بعضنا ثيابه التى رواها العرق وتلونت بلون الرمال والأتربة وفى هذا الوقت كان لدينا نحو ٢٢ قطعة سلاح فعالة منها: تسع بنادق ذات نظارات تلسكوبية وخمس بنادق نصف أوتوماتيكية وأربع ذات مذلاج لضمان السلامة ورشاشان من طراز تومبسون ومسدسان رشاشان وبندقية من عيار ١٦ وفى ذلك اليوم عبرنا بعد الظهر آخر جبل يفصل بيننا وبين ضفاف «لابلاتا» وسلكنا فى الغابة الصغيرة ممرا ضيقا نادرا ما يعبر الناس منه وقد اهتدينا إليه بواسطة رجل يعمل مزارعا من المنطقة يدعى [ملكيادس ايلياس] وقد أراد أن يحرث أرضه بخنجره الطويل من أجلنا وقد أبلغنا أن اسمه (أوتيميو) وفى ذلك الوقت كان أوتيميو نموذج الفلاح الثورى وكان شديد الأهمية بالنسبة لنا.. ولكن بعد مرور وقت قصير ألقى كاسياس القبض عليه

وبدلا من الإجهاز علـيه هام بشرائه بعد أن وعده بمبـلغ عشرة آلاف دولار إذا هو قام بقتل فيدل كـاسترو وكاد أوتيميو يفعل ذلك ولكنه لم يجد أخـيرا الشجاعة على إتمام جريمته ومع ذلك فقد حاول ونجح فى الإساءة إلينا وذلك بإفشائه للعدو أسرار وأماكن المخابئ التى كنا نختفى فيها.

فى تلك الأثناء كان أوتيميو يقدم خدماته لنا بإخلاص حيث كان ينتمى إلى ذلك الجـيش الذى يتألف فى الفـلاحـين الذين يناضلون ويقـاتلون ويدافعـون عن قطع الأرض التى يزرعونها ضد ملاك الأراضى فى المنطقـة والنضال أيضا ضد أصحاب الأملاك العقارية دفع بهم فى الوقت نفـسه إلى الانقلاب على الحرس الريفى الذى كان يمثل آنذاك الحليف الوفى المخلص لتلك الطبقة الاحتكارية.

وفى ذلك اليوم وبينمـا نحن فى طريقنا أوقفنا بعض الفلاحين لنتـأكد من أقرباء الدليل وقد أطلق سراح أحدهما فيما ظل الآخر أسيرا من قبل الاحتياط.

وفى اليوم التالى الخـامس عشر من يناير اكتشفنـا موقع ثكنة «لابلاتا» التى كانت مجهزة للبناء بصفائح الزنك ورأينا مجمرعة من الرجال وقد ارتدت نصف ثيابها بيد أننا اكتشفنا ملابس العدو العـسكرية عليهم ودان لدينا مزيد من الوقت لكى نشاهد فى الساعـة السادسة بعد الظهـر قبل غروب الشمس وصـول أحد الزوارق المكتظة بالحرس الذين هبطوا منه لكى يصعد إليـه آخرون. . وإذا لم نفهم تماما مدلول هذه الحركات فقد قررنا أن نؤجل الهجوم إلى اليوم التالى.

ومنذ فجر السادس عشر من يناير وضعنا الثكنة تحت الرصد والمراقبة وكان خفر السواحل قد قام بالانسحاب خلال ساعات الليل فأرسلنا رجال استطلاع لكنهم لم يروا جنودا فى أى مكان.

وفى الساعة الثـالثة من بعد الظهر قررنا أن نقـترب من الطريق الذى ينطلق من الثكنة ويساير مـجرى النهر من أجل المحـاولة لرؤية أى شىء. . وعند حلول الظلام

اجتزنا «لابلاتا» دون جـهد وعناء وقد تمركزنا على الطريق بعد مـرور خمس دقائق أوقفنا فلاحين وأفهمناهما من نحن وأنذرناهمـا بأنهما إن لم يتعاونا معنا فإن نوايانا نحوهم لا تتـصف بالليونة وسرعـان ما تلقيـنا معلومات ذات مكانة، لقـد كان فى داخل الثكنة حوالى خمـسة عشر جنديا وفضلا عـن ذلك كانوا ينتظرون بين الحين والآخر وصول أحـد مدراء المنطقة الثلاثة المشـهورين «نشتيـشو أورسوريو» وهؤلاء المديرون يمثلون جزءا من مملكة عـائلة «لافيتى» التى أنشأت إقطاعية كـبيرة حافظوا عليهـا بالإرهاب بواسطة أشخاص من طراز «نشـتيشـو أورسوريو» وبعد فـترة رأينا المدعو «نشتيشو» يظهر ثملا راكبـا على ظهر بغل وراءه على ظهر البغل عبد صغير وخرج «أولينـفرسو» طالبـا إليه التـوقف باسم الحرس الريفى فـأجاب! بغـير تردد: بعوض وكانـت هذه كلمة السر وجواز المرور وعلى رغم مـا بدا على وجوهنا من شحوب واصفرار ربما بفضل درجة الثمالة التى بدا بها الرجل أمامنا استطعنا خداعه وقال له فيـدل بنبرة الحانق إنه كولونيل فى الجـيش وإنه جاء من أجل أن يشرح لماذا أخفق الجيش حتى الآن فى التخلص من الـثوار وأنه لم يتراجع عن المضى قدما فى التغلغل داخل منطقتـهم ومن أجل هذا كله فقد أطلق لحيتـه وأضاف أن الجيش فى هذه القضية لا يقوم إلا بأعمال تتسم بالتردد.

وفى النهاية أسمعه فـيدل كلمات نابية وعنيفة وحادة حول السـمات العملية التى تشتهر بها قوات العدو واستسلم «نشتيشو أورسوريو» لما سمع وراح يروى لنا حكاية الحرس الذين كانوا يهـتمون اهتمامـا بالغا بالتهام الطعـام فقط ولا يفعلون أى شىء آخر داخل الثكنة.. باستـثناء القيام ببعض الجولات الروتيـنية فقط ثم راح يعلن فى ثبات إصراره على تصفية جميع الثوار والقضاء عليهم.

وألقينا على مـسامعه تساؤلات عـديدة ومن ثم أدركنا من خلال أجوبته مـعرفة من الذين يقفون مـعنا ومن الذين يناصبوننا العداء وكان من المألوف أن نعـتمد آراء

أخرى عكس مـا ورد على لسانه أمامنا. فكل من كـان يطلق عليه إنسانا حقـيرا أو قذرا كنا نعده ضمن قـائمة أصدقائنا وبلغت القائمة نحو عشـرين اسما ومضى هذا الثرثار يتـحدث بإسهاب دون توقف وقـد روى أمامنا ملابسـات موت رجلين فى أنحاء البحر ولكن الجنرال باتيستا قد أطـلق سراحى فى التو كما أكد لنا أنه قد صفع فلاحين منذ لحظات قليـلة تجاوزوا حدود اللياقة قليـلا واستطرد أنه يظن أن الحرس عاجز عن القيام بمثل ذلك فهم يدعـون الفلاحين يتحدثون دون أن يركلوهم وراح فيدل كاسـترو يسأله ماذا يفعل بفيـدل كاسترو إذا نجح فى اعتقـاله فأجاب أنه يصر على قطع... وعبر عمـا ينتويه بحركة قوية من يديه وأضاف أنـه سوف يفعل مثل ذلك مع كرستنشـيو ثم سرعان مـا اكتشف أن أحذيتنا المصنوعـة فى المكسيك الأمر الذى اضطر أمامه أن يقف مشـدوها وهو يقول «ما هذا.. إن أحد أبناء... الذين قضينا عليه كان ينتعل مثل هذه الأحذية وأسقط فى يده وأدرك على الفور أنه سقط بين من كـان يتوعـدهم منذ قليل ومن ثم فقـد بات على بعد ثوان أو دقـائق من الموت ولكن راح فيـدل من جانبه يقنعـه بأن يتقدمنـا إلى الثكنة على أن نظهر فيـها فجأة بين الجنود حـتى يشعروا بالخجل من فرط إهمالهم ومـا حاق بهم من فوضى وتخبط.

إذن بات علينا أن نمضى ناحية الثكنة بقيادة «نشتيشو أورسوريو» ويجب أن أعترف بأننى لم أكن على يقين من أن الرجل لم يكشف خطتنا ومع ذلك فـقد راح يقودنا بكل بلاهة حيث كـان ثملا لدرجة أنه بات لا يعرف ما الذى يفـعله وفى حين كن نعبر النهر مرة أخرى لنصل إلى الثكنة قـال له فيدل إن الأنظمة العسكرية تدعو إلى تقيـيد الأسرى وشـد وثاقهم فـإذا بالرجل يرضخ لتقيـيده دون أن يبـدى أمامنا أية مقاومة ويواصل سيـره دون أن يدرى كأسير حقيقى وأخبـرنا بأن نقطة الحرس الثابتة الوحيدة تقع بين مدخل للثكنة مـازال تحت الإنشاء ومنزل مدير آخر زميل له يدعى

«أونوريو» وتقدمنا إلى موضع قريب من الثكنة يمر فيه طريق «ماسيو» وأرسلنا الرفيق «لويس كرسيو» وهو الآن بدرجة قومندان فى مهمة استطلاعية وحين أكد لنا أن المعلومات التى قدمها لنا «نشتيشو» صحيحة فقد رأى البنائين بوضوح ولاحظ وجود النقاط الحمراء بينهما منبعثة رغم الظلام من السيجار الذى يدخنه أعضاء الحرس.

وقررنا المضى قدما حين اضطررنا للاختباء كى نترك ثلاثة من الحراس يمرون على جيادهم وهم يقودون أسيرا يمشى على قدميه مثل الحمار.. وقد مشىٰ هذا الإنسان بالقرب منى وأنا لا أزال أذكر الكلمات التى كان ينطق بها هذا الفلاح المسكين حيث كان يقول على مسمع منى «أنا إنسان مثلكم» فيجيب عليه الكابورال باسول أخرس وامشِ إذا أردت ألا نجبرك على السير بالسياط» وأدركنا أن هذا الفلاح المعذب يتعرض لخطر أقل لأنه لن يكون موجودا فى الثكنة التى سنطلق نحوها رصاصتنا أثناء اندلاع الهجوم ولكنهم فى اليوم التالى بكل خسة ونذالة فى «الماسيو» حين انتشر خبر المعركة والنتيجة التى ترتبت على ذلك.

وكان فى حوزتنا ٢٢ قطعة سلاح هجومى وكانت هذه لحظة فارقة حيث كان قد بقى فى حوزتنا القليل من الرصاص فكان ينبغى السيطرة على الثكنة ولم يكن الإخفاق يعنى لنا سوى فقدان كل ما لدينا من ذخيرة فكان على الرفيق «خوليو ديز» وكان حينئذ برتبة ملازم واشتهر بعد ذلك فى موقعة «الأوثيرو» يساعده كاميلو سينفويغوس بينيتز (وكاليستو مورالس) مسلحين جميعا بأربع بنادق نصف أوتوماتيكية كان عليهم محاصرة المنزل من أقصى اليمين وكان على فيدل وأونفرسو سانتش «ولويس كرسيو» وكاليستو جارسيا وفاخاردو وأنا بينهم أن يهاجموا من القلب وكان على راوول ومن معه والميدا وأنصاره أن يبدءوا الهجوم على الثكنة من جهة اليسار.

وتوزعنا على هذا الاتفاق ومضينا حتى اقتربنا من الموقع بمسافة لا تزيد عن أربعين مترا وكان ضوء القمر ساطعا منيرا وكان فيدل أول من بدأ اطلاق النار من

رشاشه ومن خلفه بدأت جميع البنادق تنطلق ودون تردد دعونا جنود العدو للاستسلام ولم نتلق جوابا وحين جاء وقت التحول إلى الهجوم أعدمنا الخائن السفاح « نشتيشو أورسوريو» وقد بدأ الهجوم فى الساعة الثانية والدقيقة الأربعين صباحا وواجهنا العدو بمقاومة عنيفة لم نكن نتوقع حدوثها على الإطلاق وكان هناك عريف يرد علينا بوابل من النيران كلما دعوناه للاستسلام وأصدرنا أوامرنا بإلقاء القنابل اليدوية البرازيلية الصنع وراح لويس كرسيو يقذف بقنبلته ثم ألقيت أنا بقنبلتى ولكن لم تنفجر أى من القنبلتين وألقى راوول كاسترو بقرص من الديناميت ولم ينفجر أيضا ولم يبق أمامنا سوى التقدم وإشعال النار فى مبانى الثكنة حتى لو تعرضنا لخطر الموت. . وكان أونيفوسو سانتشس» أول من قام بالمحاولة ولكنه قد أخفق.

ثم تبعه كاميلو سينفو يجوس وفشل هو الآخر وأخيرا اقتربت أنا ولويس كرسيو من كوخ كان لويس قد أشعل فيه النيران وفى ضوء ألسنة اللهب اكتشفنا أن الكوخ كان عبارة عن عنبر يحفظ بداخله جوز الكوكو من المزرعة المجاورة ولكن النيران كانت تكفى لنشر الرعب فى قلوب الجنود الذين تراجعوا عن القتال حتى أن أحدهم سقط على الأرض أثناء هروبه بعد أن تعثر فى بندقية لويس كرسيو) الذى قام بطعنه فى صدره ونزع منه سلاحه فيما كنا نحن نواصل إطلاق النار على الثكنة وراح كاميلو سيفو يجوس يختبئ خلف جذع شجرة ليطلق النار على العريف الهارب حتى نفذت كمية الرصاص التى كانت فى حوزته.

وقد تمكنت رشاشتنا من إصابة العديد من الجنود الذين رفضوا الاستسلام بيد أن كاميلو سينفو يجوس دخل قبل الجميع من ناحيتنا إلى المنزل الذى كانت تتعالى منه صرخات الاستسلام وقمنا بحصد ما أمكننا الاستيلاء عليه بعد هذه المعركة وقد بلغت حصيلة الغنائم نحو ثمانى بنادق سيد نجفيلد ورشاشين من طراز تومبسون وحوالى ألف رصاصة. . أما نحن استخدمنا نحو ٥٠٠ رصاصة وقد

استطعنا الاستيلاء على جنادات وعلى وقود وعلى مؤن وملابس وأطعمة. . فيما كانت خسائر العدو فى الأروح تترواح بين قتيلين وخمسة من الجرحى وثلاثة من الأسرى فى حين نجح بعض الجنود فى الهروب. . أما صفوفنا فلم تتعرض لأى خسائر وقد أشعلنا النيران فى غرف الجنود ثم انصرفنا من المكان من أجل إسعاف ثلاثة من العدو كانت جراحهم خطيرة تستدعى سرعة التحرك لكى يتماثلوا للشفاء لكننا علمنا أنهم ماتوا بعد ذلك وقد انضم أحد الأسرى إلى رجال القومندان «راوول كاسترو» وبلغ رتبة ملازم وقد توفى فى حادث طيران بعد النصر.

لقد كان موقفنا جليا من جرحى العدو حيث كان العدو لا يبالى بجرحانا بل لا أغالى إذا قلت إنه لم يكن يبالى إطلاقا بجرحاه وقد كان هذا التصرف له أبلغ الأثر فى النفوس وكان ربما هو أحد عناصر ومقومات الانتصار فى الثورة.

لقد أصابتنى صدمة هائلة ولأنى طبيب كنت أحس بأهمية الاحتفاظ بكميات احتياطية من الأدوية لقواتنا بيد أن فيدل كاسترو قد أصدر أوامره بتسليم الجنود الأسرى كل ما فى حوزتنا من أدوية من أجل تأمين العناية بالجرحى ونفذت أمره فى الحال . . ومن جانب آخر أطلقنا سراح المدنيين.

وفى تمام الساعة الرابعة والنصف من صباح السابع عشر من يناير تركنا المكان واتجهنا نحو مرتفعات «سيرا» ووقع بعد ذلك أمامنا منظر يدعو للرثاء والعطف ففى الليل أقبل كابورال بإقناع جميع الأسر القاطنة فى المنطقة المجاورة بأن الطيران سيقصف تجمعاتهم السكنية بالقنابل ومن ثم بدأت هجرة الأسر إلى الشواطئ وبما أن أحدا لم يكن على علم بوجودنا فى تلك المناطق فما من شك أن الأمر كان مؤامرة بين السلطة والحرس الريفى من أجل الاستحواذ على أراضى الفلاحين وأملاكهم ولكن بسبب هجومنا فى الغد أخبرهم الكذاب بالأمر حتى يقذف الرعب فى قلوبهم وأصبح من غير الممكن أن نوقف حركة تدفقهم.

كانت هذه هى أول المعارك التى استطاعت قوات الثورة أن تحقق فيها نصرا ساحقا وكانت هذه المعركة والتى تليها مباشرة هى التى كنا نمتلك فيها أسلحة بأكثر من عدد الرجال طوال فترة الكفاح الثورى.

إن الفلاح لم يكن مستعدا بحال من الأحوال للانخراط فى صفوف الثورة ولم يكن لنا حتى تلك اللحظة أية اتصالات بقواعد الإمداد والتموين فى المدن.

* * * *

معركة نهر الجحيم
٢٢ يناير ١٩٥٧

«نهر الجحيم» هو عبارة عن ساقية صغيرة قصيرة المجرى تصب فى نهر يالماموتشا» وقد أدرنا ظهورنا لليالما موتشا وشرعنا فى تسلق المرتفعات الملاصقة لضفافه حتى يمكننا أن نصل إلى منحنى مستدير وإن بدا لنا صغيرا للغاية مبنى عليه كوخان من القش وبالقرب منهما أسسنا مخيماً خاصاً بنا دون أن نفكر فى احتلال أكواخ الفلاحين.

كان فيدل كاسترو وقد قرر أن الجيش سوف يطاردنا وسينجح فى تحديد المكان الذى آلينا إليه ومن ثم قرر اختيار هذا المكان من أجل تجهيز ونصب كمين لكى نفاجئ به قوات جيش العدو، وتم توزيع الرجال على نقاط ومراكز شتى من أجل إتمام هذا الهدف.

ولم يكن «فيدل» يترك الخطوط دون وضع فرق مراقبة ورصد حيث كان يقوم بجوالات من أجل أن يتأكد من فعالية وصلابة الدفاع، وفى صباح التاسع عشر من يناير كنا مشغولين باستعراض قواتنا حينما وقع حادث كان من الممكن أن يكون له تداعيات خطيرة للغاية: فلقد أتيت من معركة «لابلاتا» بغنيمة هى عبارة عن قبعة جميلة لكابورال من جيش باتيستا.. كنت أرتديها بكل فخر وللقيام بجولتنا التفتيشية على القوات توغلنا فى الجبال إلى مسافات بعيدة ونما لمسامعنا أصوات الخفر تتقدم من مكان بعيد وشاهدنا مجموعة على البغد يترأسها رجل يضع على رأسه قبعة تشبه قبعات جيش باتيستا.. ولحسن الطالع كان الرفاق فى تلك الأثناء منهمكين فى تنظيف أسلحتهم ولم تكن هناك إلا بندقية فقط جاهزة للعمل كانت تخص «كاميلو

سينفو يجوس» الذى أطلق عيارا ناريا فوق رؤوسنا ولاحظ أنه لم يصب أحداً بأذى وحاول الاستمرار فى إطلاق النار ولكن خذلته بندقيته.

إن هذا الأمر يشير إلى مدى استعدادنا وتطلعنا إلى القتال وهو ما يشبه لهفة الأسير على التحرر من قيوده.

لقد كنا أثناء هذه اللحظات الدقيقة - حتى الذين كانت أعصابهم من حديد - نشعر بركبنا تصطك بعض الشيء وكل منا يتحرق شوقا لبلوغ ساعة الحرب الحاسمة أقصد لحظة الاصطدام والاشتباك ورغم ذلك لم يكن القتال فى الأساس هو ما نصبوا إليه وإنما كنا نمارسه لأنه كان أمرا تقضيه الضرورات.

وفى صباح الثانى والعشرين من يناير نما لأسماعنا عدة طلقات نارية منعزلة فى منطقة «الريو يالما موتشا» وقد ساعدنا ذلك على تحسين وتطوير أوضاع خطوطنا وتكثيف اليقظة لجيش العدو الذى كان على وشك أن يداهمنا بين لحظة وأخرى.

وإذا قدرنا أن جنود العدو قد أصبحوا على بعد أمتار منا فلم نتناول حتى اللحظة أية أطعمة لا فطور ولا غداء واتضح أمامى أنا وكرسيثو عش دجاجة فاستولينا على ما فيه من بيض وأكلناه.

وتشير الأعراف والعادات إلى أن نترك دائما بيضة واحدة فى العش لإغراء الدجاجة على مواصلة وضع البيض ومن ثم تقيدنا بتلك القاعدة ولكن فى ذلك اليوم قرر الفلاح كرسيو متأثرا بطلقات النار التى سمعناها جميعا أن نتناول البيضة الأخيرة وحين نطق بذلك كنا قد التهمناها قبل أن يفرغ من قراره.

وعند الظهر شاهدنا بأعيننا ظل رجل داخل كوخى القش وكنا فى بداية الأمر قد ظننا أنه أحد رجالنا وأنه قد عصى الأوامر فى الطواف حول البيوت بيد أننا اكتشفنا أنه أحد جنود باتيستا جاء للاستطلاع والرصد والمراقبة وفى التو لاحظنا

وصــول ستــة رجال توافــدوا على المكان وغــادر ثلاثة بعــد قليل وظل ثلاثة تحت أبصارنا. . وتفــرغنا لرؤية هذا الجندى الذى راح يلقى نظرات حــائرة من حوله إلى انتزاع قبضة من الحشائش ووضعها خلف أذنيه من أجل إخفاء نفسه ثم جلس هادئا مطمــئنا فى ظل شجــرة، وكنا نراقب بالمنظار ملامح وجــهه التى كــانت تشيــر إلى شجاعــته وفتح فيدل النار عليــه فسقط غارقا فى بركــة من الدماء وهو يصرخ آه يا أمى وتصاعدت حــدة تبادل النار بيننا وبين الجنديين الآخرين حتى سقطا مــعا بفعل رصــاصاتنا القــاتلة وســرعان مــا لاحظت داخل الكوخ جنديــا آخر يحــاول تجنب رصاصــتنا وقد شــاهدنا ساقيــه حيث كــان سقف الكوخ يحجب عن بــقية جــسده وأطلقت نحوه عيارا ناريا لكنه لــم يصبه بيد أن الرصاصة الثانية قــد اخترقت صدره فسقط على الفور صريعا مضرجاً فى دمائه وبتغطيه من الفلاح كرسيو بلغت الكوخ فاستــوليت على بندقية الجندى وما لــديه من ذخيرة بعد أن تأكدت مــن موته حيث بدأت جثته فى التصلب وقد يكون ذلك بســبب إجهاده الشديد خلال سيره الطويل وقد كانت هذه المعــركة تتسم بالوحشية والقــسوة والعنف وحين وصلنا إلى أهدافنا انسحبــنا كل من طريقه الذى جاء منه ولكن بأقصــى سرعة وأجرينا الجــردة كالعادة فتــبين أننا استهلكنا ٩٠٠ رصــاصة لكى نكسب سبــعين رصاصة فــضلا عن جناد مكتظ بالرصــاص وبندقيــة واحدة وقــد أعطيت هذه البندقــية من طراز «جــاراند» للقومندان «افــيجتــينوا إميخيــراس» فاستــخدمها فــترة طويلة من فتــرات الحرب. . وعددنا أربعــة قتلى من الأعداء ولكننا علمنــا بعد أشهر عــديدة عند اعتقــالنا أحد الخــونة إنه كان هنــاك قتــيل خامــس ولم يكن هذا انتــصارا بالمعنى الشــائع لكلمــة الانتصار، لكنه لم يكن أيضا انتــصارا انتحاريا. . لقد اختبــرنا قوتنا مع قوات جيش العدو فإذا بنا نكتشف أننا اجتزنا الاختــبار وحققنا النجاح مما أدى إلى رفع معنوياتنا وشجعنا على مواصلة التــسلق نحو مرتفعات الجبل حتى نتــجنب الوقوع فى كمائن

العدو ومن ثم بلغنا القلب الآخـر للجبل لهذا كنا نواصل سيرنا باتجـاه مواز لجيش باتيستا الذى كان بدوره يهرب ويعبر القمم لبلوغ القلب المعاكس.

وعلى مدار يومين كانت قوات العدو وقواتنا تسير جنبا إلى جنب دون أن يدرى أى منهمـا، بل حدث أن استـسلمت بعض هذه القـوات للنوم فى كوخـين على جانبى نهر صغـير هو نهر (لابلاتا) الذى ينعرج أكثر من مـرة بين الكوخين وكانت دورية العدو تعـمل بأوامر من الملازم «ساتتش مـوسكيرا» الشهيـر بسوء الخلق فى منطقة «سيرا مايسترا» بسبب تجاوزاته.

وجديـر بالذكر أن الطلقـات النارية التى نمت لأسمـاعنا قبـل عدة ساعـات من اندلاع الاشتباك أطلقها جنود كانوا ينفذون الاعدام رميا بالرصاص بأحد «الأجانب» من أحفاد أبناء هايتى الذين كانوا قد توافدوا بـأعداد هائلة إلى مقاطعة أورينتى بعد نشوب حريق ثورة العبيـد وكان هذا الرجل الأجنبى قد رفض أن يرشد الجنود إلى مخبأنا الصغير ولو أنهم لم يرتكبوا جريمة القتل الحقيرة لهذا المسكين لما وجدونا فى انتظارهم على أهبة الإستعداد ومرة أخرى اكـتشفنا أننا نعانى من ثقل أحمالنا حيث كان أغلبنا يحـمل بندقيتين وكـان شاقا علينا مواصلة الـسير بيد أن مـعنوياتنا كانت مرتفعـة بأكثر مما كانت عليه بعد كـارثة الجريا دى بيو» فقبل مـرور بضعة أيام هزمنا كتلة صغيرة من الجنود الذين تحصنوا فى إحدى الثكنات..

واليوم نتغلب وننتصر على قافلة يزيد عدد جنودها على عدد جنودنا.. إن هذه المعركة جـعلتنا نلمس كلمس اليد كم هى ضرورية فى هذا النوع من القتال تـصفية المقدمـة الأولى حيث يصـبح الجيش من غـير مقـدمة ومن ثم يعـجز عن الحـركة والانتقال والتحول.

* * * *

الفصل الرابع

غارة جوية والرفيق الخائن

«واجبى هنا أن أعترف أن بندقيتى ليست مسئولة عن سقوط قتيل أو وقوع جرحى فى تلك اللحظة فأنا لم أقم بشىء سوى التراجع الإستراتيجى على جناح السرعة»



الفصل الرابع
غارة جوية والرفيق الخائن

بعد تلك المعركة الرائعة التى كان النصر حليفنا فيها على قوات سانتس موسكيرا» مشينا على ضفاف نهر لابلاتا ثم عبرنا ماجدا لينا للعودة إلى قطاع سبق أن عرفناه قريب إلى «رابيه كاراكاس، وفى الأيام الأولى لإقامتنا عشنا سرا على تلك الرابية نفسها وكانت القرية كلها تؤازرنا. . أما الآن فالمكان يظلله مناخ شديد الإختلاف حيث كانت قوات «كاسياس» فى الواقع قد عادت للمنطقة ونشرت فيها الرعب وأقدمت على ارتكاب الفظائع ومن ثم هجرها الفلاحون وإن بقيت أكواخهم الخاوية على عروشها فضلا عن رأس ماشية أخذناه طعاما لنا. . ولقد تأكد لدينا أنه لا يجيد العيش داخل الأكواخ والمنازل ولهذا وجدنا أنفسنا خارج المكان بعد أن أوينا طيلة ساعات الليلة داخل الكوخ المنعزل[1] وأنشأنا مخيما خاصا بنا عند نبع ماء على أعلى قمة فى ربوة «كاراكاس» وقد جاء مانويل فاخاردو» يسألنى بقوله: هل يمكن ألا ننتصر فى هذه الحرب؟

وكان جوابى فى العادة لا يختلف كثيرا عن نفس السؤال حتى إذا لم نكن فى لحظة من لحظات النشوة التى تجتاحنا وهو أننا سنربح الحرب بالضرورة وقال لى «مانويل» إنه إنما يوجه إلى هذا لأن «الجاليسى موران أكد له أننا نسير إلى الكارثة وأننا خاسرون ودعاه فضلا عن ذلك إلى أن يترك كل شىء[2] وقد توجهت إلى إبلاغ

(١) لقد كان (فيدل كاسترو) أبرز من سدد نفقات تلك التجربة بعد حملة (مونكادا) حيث قام هو ورفقاؤه بعد أن أرهقهم التعب فى كوخ بعيد فى «الجران بيدرا» وأمر بالملازم الأسود «ساريا» يفاجئهم حين جاء يفتش الكوخ الذى كان هدفا طبيعيا لتحريات هذا الضابط من ضباط الجيش».

(٢) يصف الكوبيون الناس عادة بأصولهم الاجتماعية أو العرفية فهم يقولون على سبيل المثال: الفلاح كرسيو والصينى وونج والجاليسى موران وكان والدموران هذا قد جاء من منطقة جاليسيا فى أسبانيا وكذلك كان والدفيدل كاسترو جاليسيا.

فيدل كاسترو على هذه الحكاية ولكننى اكتشفت أن الجاليسى (موران) كان قد تعجل الأمور فقال لفيدل إنه كان يقوم بعمليات جس نبض من أجل اختبار معنويات الرفقاء ورأينا أن مثل هذه الخطة تحتمل المناقشة على الأقل، وراح فيدل كاسترو يلقى خطاباً قصيرا دعا فيه الرفقاء على الالتزام بقدر وافر من النظام وشرح أمامهم الأخطار والتحديات التى سيواجهونها إذا لم نتقيد بالنظام وأعلن بالإضافة إلى ذلك أن ارتكاب أى من المخالفات الثلاثة التالية يتعرض صاحبه للحكم عليه بالإعدام بتهمة التمرد والهروب والانهزامية.

لم تكن أوضاعنا تبعث على البهجة فى تلك الأيام حيث كان طابورنا تنقصه صفات المثابرة والصبر والجلد التى يتسم بها المناضلون أينما كانوا كما كان يحتاج إلى وعى أيديولوجى جلى ومن ثم لم يتمكن من تشكيل وحدة ذات روابط صلبة ومتينة. وفى كل مناسبة كان عدد من الرفقاء يرفضون قبول القيام بمهمات فى أى مكان، وهى أحيانا مهمات عسيرة وخطيرة ولكنها كانت على الأقل تتيح لهم التخلص من ملابسات الحياة الشاقة وظروفها الصعبة والشاقة فى البرية.. ولكن حياة البرية لم تظل كما هى إذ أن (الجاليسى موران) لم يكن ينال من التعب وخصوصا فى البحث عن المؤن وإقامة اتصالات مع فلاحى المنطقة المجاورة وكانت الحالة فى صباح يوم ٣٠ يناير كالآتى: لقد طلب أوتيميو جيرا» - الخائن - إذنا من فيدل كاسترو بالسماح له لكى يذهب إلى زيارة والدته المريضة وقد وافق فيدل على الفور ودون تردد ومنحه بعض النقود من أجل إتمام رحلته التى كانت تستغرق بضعة أسابيع ولم نكن قد تنبهنا حتى تلك اللحظة لحزمة من الحقائق وقد جاءت تصرفات وسلوكيات وأفعال هذا الشخص لتلقى عليها مزيدا من الضوء الساطع.

وحين عاد (أوتيميو) من رحلته صرح لنا بقوله إنه حينما بلغ (ياللما موتشا) عرف أن القوات الحكومية تطاردنا وتلاحقنا فبذل أقصى ما يستطيع من جهد لكى يحذرنا

ولكن حين بلغ كوخ «دلفين» وهو أحد الفلاحين الذين جرت فى داخل أراضيهم معركة (نهر الجحيم) وجد جثث جنود فاقتفى أثرنا فى «السيرا» (الجبل) حتى وصل أخيرا إلى حيث كنا. . وهذه هى القصة التى رواها لنا «أوتيميو» بيد أن الحقيقة كانت على عكس ذلك تماما حيث إن (أوتيميو) كان قد ذهب قاصدا خدمة العدو بعد أن اتفق معه على قتل فيدل كاسترو مقابل مبلغ مالى كبير والحصول على رتبة عسكرية رفيعة المستوى ولإتمام هذا المخطط غادر «أوتيميو» المخيم فى الليلة الماضية.

وفى صباح ٣٠ يناير بعد ليله شديدة البرودة وبعد أن استيقظنا من النوم سمعنا صوت محرك الطائرة فبذلنا أقصى جهد لتحديد مكان الطائرة حيث كنا فى مكان مكشوف وكان المطبخ مضادا على بعد أكثر من ٢٠٠ متر أسفلنا، بالقرب من نبع صغير وكان يتمركز فيه رجال الخفر الأمامى، وعلى نحو مفاجئ غير معهود سمعنا انقضاض طائرة مقاتلة وفى أعقاب ذلك سمعنا صوت الرشاشات تنطلق ثم سرعان ما ترامى لنا صوت قنابل تنفجر ولم نكن آنذاك نتمتع بخبرات قتالية خاصة فى هذا الأمر المفاجئ وبدأت الانفجارات تقع حولنا من كل جانب وكانت الرصاصات من عيار ٥٠ تتفجر عند وقوعها على الأرض حتى تصورنا أنها تنبعث من الغابة ذاتها فيما كنا نسمع طلقات الرشاشات فى الهواء مما جعلنا نظن أن القوات البرية قد تمكنت من حصارنا وشنت هجومها علينا.

وتوليت مهمة ترقب رجال الخفر الأمامى وجمع بعض الأمتعة التى تركت مكانها ساعة الهجوم، وكان مكان التجمع «مغارة الدخان» وكان رديفى فى تلك المهمة هو «تشاو» ذلك المقاتل القديم فى الحرب الأسبانية وراح كلانا ينتظر بعض الوقت وصول بعض الرفقاء الذين فقدنا أخبارهم ولكن دون جدوى، ثم مضينا فى أعقاب الطابور على طول طريق غير ممهد والأحمال قد أثقلت كاهلنا وبعد مدة قررنا الجلوس لنستريح فى مكان ما بالغابة لم يكن فيه أشجار وبعد فترة قصيرة سمعنا

أصوات زاعقة تبرهن على وصول «جيرمو جارسيا» (وهو اليوم برتبة قومندان) وسرخيو أكونيا) وقد مضى على الطريق نفسه وكانا يشكلان فصيلا من المخفر الأمامى وقد جاءا للحاق بالطابور، وبعد أن تباحثنا فى الأمر عدت مع جيرمو جارسيا إلى المخيم فقد كان ينبغى معرفة ماذا حدث؟ وكان قد اختفى كل صوت كما اختفت الطائرات أيضا.

لقد كان منظرا كئيبا وفظيعا ذلك الذى وقعت عليه أعيننا، فلأن الدقة البالغة فى الرماية ظلت تلك اللحظة فريدة من نوعها فى كل تاريخ الحرب.. لقد هاجم الأعداء المطبخ فحطم الرشاش الفرن قطعة قطعة. وانفجرت قنبلة داخل مخيم المخفر الأمامى الذى كان الجميع قد تركوه وكان الجاليسى «موران» قد توجه مع أحد الرفقاء فى مهمة استطلاعية فعاد بمفرده مؤكدا لنا أن هناك قوات برية فى المنطقة القريبة لنا.. ومضينا فى المسير نحن الخمسة وعلى كاهلنا أحمال ثقيلة فى قلب المشهد الدامى مشهد البيوت المتهدمة التى كان يقيم فيها أصدقاؤنا الفلاحون فى السابق وكل ما رأيناه فى تلك الأكواخ قطة كانت تموء بشكل يدعو للرثاء والإشفاق على حالها المتردى وخنزير خرج عندما اقتربنا منه.

لم نكن على علم بأحوال مغارة الدخان باستثناء اسمها ولم تكن لدينا أية فكرة كاملة عن مركزها.. وهكذا ظللنا طوال ساعات الليل ضحايا للقلق والتوتر والاضطراب على أمل أن نلتقى مع رفقائنا وفى نفس الوقت يفترسنا الهلع من لقاء العدو.

وفى ٣١ يناير تجمعنا على قمة ربوة تفرض سيطرتها على قطع من الأرض الصالحة للزراعة وأخفقنا بعد محاولات عديدة لتحديد مكان المغارة وقد تصور (سرخيو) أنه رأى شخصين يرتديان على رأسيهما قبعة لاعبى البيسبول ولكنه عاد فى وقت متأخر دون أن نصل إلى أى شىء وهبطت مع جريمو فى رحلة

استطلاعية حتى أعماق الوادى بالقرب من شواطئ نهر «آخى» حيث قدم لنا صديق لجيرهو ما نتناوله من طعام بيد أن الناس كانوا فى هلع شديد وأبلغنا هذا الصديق أن رجال الحرس الحكومى نهبوا وأضرموا النيران فى كافة بضائع «سيروفرياس» كما تمكنوا من مصادرة جميع البغال بل أنهم قتلوا بعضها وأشعلوا النار فى حانوت «سيرو فرياس» واعتقلوا زوجته وكان هؤلاء قد مروا بالمكان فى الصباح تحت إشراف القومندان «كاسياس» الذى استسلم للنوم العميق بالقرب من المنزل.

وفى الأول من شهر فبراير لم نترك مخيمنا الصغير الذى بدا مكشوفا مفتوحا للرياح وكان ينبغى علينا أن نسترد قدرا من عافيتنا ونشاطنا بعد متاعب جمة من السير فى الليلة السابقة.

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم سمعنا طلقات نارية خرجت من بنادقها وبالتحديد من الجهة الأخرى للربوة ثم سرعان ما سمعنا أصواتا قريبة منا تئن بالشكوى وكأنها صرخة تتعجل الاستغاثة ولم تتحمل أعصاب «سرخيو اكوينا» فقذف ببندقيته وجناده دون أن يحرك أى من شفيته وترك الحراسة التى كنا قد عهدنا بها إليه.

وقد دونت فى مفكرتى اليومية حينئذ أنه توجه مرتديا قبعة من القش وعلبة من الحليب المكثف وثلاث قطع من المقانق وفى الحال تجمعت أفكارى وتوحدت على الحليب والمقانق.

وبعد مرور بضع ساعات سمعنا جلبة وانتابتنا حالة من الخوف من أن تكون هناك خيانة قام بها رفيقنا الهارب ومن ثم تمركزنا فى موقف دفاعى، ولكنه كان كرستيشو الذى وصل يتبعه طابور طويل وضخم مكون من جميع رجالنا تقريبا ومن متطوعين جدد أقبلوا من «مانزاينو» يتقدمهم «روبرتوبيسانت أما من رجال المقدمة فلم يكن إلا «سرخيو أكوينا» الهارب والرفيقان كاليستو جارسيا (ومانويل اكوينا) وكنا

نحتاج لمتطوع جـديد قد انضم إلينا فى الآونة الأخيرة كنا فـقدناه عند تبادل إطلاق النار الذى وقع فى رائعة نهار أول فبراير.

وعدنـا للهبـوط من وادى (أخى) وفى أثناء سيـرنا وزعت علينا أشيـاء بدت لنا مختلفة كـان قد حملها نفر من المتطوعيـن الذين جاءوا إلينا من «مانزاينو» ومن بين هذه الأشياء وجدت حقـيبة جراحة وملابس داخلية لنا جميـعا وقد كان رائعا منظر الملابس الداخلية النظيفة التى طرزتها أصابع فتيات ماتزاينو.

وفى الثانى من فبراير كـانت قد تكونت منا مجموعة تألفت مع بعـضها البعض وانضم إليه عـشرة رجال آخـرين جاءوا من مـاتزاينو وتملكنا شعـور جارف من أننا أصبحنا أقوى وأكثر وأشـجع من أى وقت مضى وراح البعض منا يتناقش فى مسألة الغارة الجـوية وكيف وقعت ولماذا وتسـاؤلات حولها عـديدة وتوصلنا إلى أن دخان المطبخ هو الذى أرشد العدو إلينا ولهذا أصبحـنا بعد ذلك نتجنب إشعال النيران فى الهواء الطلق خوفا من الوقوع مرة أخرى فى مصيدة الغارات الجوية.

كـيف يمكن أن نتخـيل أن الرجل الذى كـان فى طائرة الاستطلاع هو الخـائن العميل «أوتيميو جيرا» وأنه كان يرشد القومندان (كاسياس) إلى الموقع الذى نتمركز بداخله؟ إن هذا الأمر بالطبع كان حـقيقة لا يخالجنا الشك فى مصداقـيتها فلم يكن ما زعـمه «أوتيـميو» من المرض الـذى داهم والدته سوى حجـة من أجل الذهاب لاستقدام السفاح المجرم كاسياس.

ولقـد مضى (أوتيـميـو جيـرا) بعد ذلك مـدة من الزمن يمارس دوراً شـديد الخطورة على حركتنا الثـورية فى حرب التحرير التى كنا نخوض غـمارها أمام عدو غاشم.

* * * *

مفاجأة جبال أسبينوزا
٩ فبراير ١٩٥٧

بعد الغارة الجوية المفاجئة التى ذكرت تفاصيلها فى الصفحات السابقة تركنا ربوة (كاراكاس) فى محاولة للعودة مرة أخرى لمناطق كنا نعرف دروبها وخطوطها ومسالكها كما نستطيع أن نبنى شبكة من الاتصالات الحية مع «مانزانيو» فضلا عن استقبال مساعدات من الخارج بشكل أكبر وأوسع وأضخم بما يتناسب مع حجم قواتنا وأعبائنا ونفقاتنا وتحدياتنا وتأسيس فكرة أكثر وضوحا عن مجمل الأحوال فى طول البلاد وعرضها.

ها نحن قد عاودنا المسير فى طريق العودة وها هو نهر (أخى) قد عبرنا صفحة مياهه واجتزنا أماكن ومناطق عرفناها حتى بلغنا بيت الشيخ (مندوزا) وكان واجبنا أن نفتح بواسطة الفأس ممرات الجبل حيث مضى زمن بعيد لم يستعملها أى إنسان الأمر الذى أدى إلى عرقلة مسيرتنا وتقدمها بخطوات ثقيلة ثقل الجبال ومضينا الليل بأكمله على أحد هذه المرتفعات ولم يكن فى حوزتنا ما نتناوله من طعام ولا أزال أذكر حتى اليوم كما لو أن الأمر يتصل بمأدبة ضخمة فخمة شهدتها فى حياتى تلك اللحظة التى جاءنا فيها الفلاح «كرسيو» حاملا معه علبة تحتوى على نحو أربع قطع من المقانق كان قد امتنع عن تناولها فى الماضى وظل محتفظا بها لمواجهة مثل هذه الأزمات الطارئة والمفاجئة مؤكدا أنها للأصدقاء وتذوقتها أنا وفيدل والفلاح كرسيو وأحد الرفقاء الذى كان يشاركنا تلك اللحظة كان الطعام رديئا للغاية وإن بدا أمام أعيننا كأنه على مأدبة ملكية وعاودنا مواصلة المسير حتى وصلنا إلى المنزل الكائن على يمين رابية (كاراكاس) حيث جهز لنا الشيخ مندوزا ما نلتهمه من طعام، كان الرجل قد تسلل إليه الخوف رغم ما يتصف به كفلاح من رجولة وولاء كان الشيخ

لا يتردد فى الاحتفـاء بنا كلما مررنا عليه حيث إن الصداقة التى ربطتـه «بكرستنيتو بيريز» أو بفلاح آخر من رفاقنا كان لها ضـروراتها ولـم يكن هذا الشيخ ليتهرب منها على وجه الإطلاق.

وقد كانت عملية السير ترهقنى للغاية حيث كنت دائم الشكوى من حمى الملاريا ولم أستطع الوصـول إلى هذه الرحلة المنهكة إلا بفضل الفـلاح «كرسيـو» والرفيق الذى سيظل ساكنا فى ذاكرتى «خوليو زينون أكوستا» وحين كنا نبلغ أماكن من هذا الطراز لم نكن نستـسلم للنوم داخل المنازل وكنت أعانى من الإعياء أنـا والجاليسى موران الذى أمسى مريضا هو الآخر وقد أوفدونا لننام فى الداخل بينما ظل الرفقاء فى موقف المراقبة لا يدخلون المنزل إلا عند تناول الطعام.

وأصبح من الأهمية بمكان تطهير الفرقة حيث كانت تحتوى على عدد من الرجال الذين اتصفوا بالمعنويات المنخفضة والحمـاس الفاتر هذا بالإضافة إلى أن رفيقا واحدا أو رفيقين اثنين كـانا قد تعرضا للإصابة بجروح خطيرة وكـان أحد هذين الجريحين «رامـيرو فـالدس» وزير الداخليـة الحـالى وكـان الثانى هـو (أجناسيـو بيـريز) ابن «كرسـتنتيو» الذى اشتـهر فيمـا بعد وهو يحمل رتبـة كابتن لكن (راميرو) كـان قد أصـيب بضربة قـوية فى ركـبتـه التى كانت لاتزال تشـكو من الجروح الغـائرة التى تعرضت لها إبان معركة ثكنة (مـونكارا) ومن ثم وجب الانفصال عن راميرو وتركنا أيضا بعض الفتيان الآخرين ولكن الفرقة ظلت على حالها السيئ.

ولازلت أتذكر واحـدا من هؤلاء الفتيان الذى تـعرض لنوبة عصبـية وراح يشق بصرخاته سكون البـرية بعد أن اكتشف أننا نشكو قلة أو ندرة الطعام ونفـتقد لوجود أسلحة دفاعيــة ضد الغارات الجوية التى أرغمتنا على التـرحال من مكان لآخر كل يومين خوفـا من ملاحقة ومطاردة العدو لنا إذا نجح فى تحـديد أماكننا، وعانينا من فقرنا للماء والطعـام والاستحمام وهو الأمر الذى كان شـاقا على نفس هذا الغلام

الذى كان يظن أنه قادم لنزهة سياحية حتى وجد نفسه يتضور جوعا ويعانى من الظمأ والاتساخ ليطلق صرخاته المدوية بيد أن هناك من الرفاق من تحمل مثل هذا العناء بشجاعة وبسالة ووصل (سيروفرياس) مع رفقاء انخرطوا مؤخرا فى صفوف العصابة وكان حاملا معه حزمة هائلة من الأنباء المضحكة والغامضة فمثلا كان (دياس تامايو) على وشك تغيير موقفه والخوض فى مفاوضات مع قوات الثورة و«فوستينو» نجح فى حشد ألوف «البيسو» الكثيرة والبلاد كلها على أية حال أضحت مسرحا للتدمير والخراب حتى أن الحكومة أصبحت كأنها تمشى فى أوحال الفوضى ولكنها لا تستطيع المضى قدما للأمام فى حالة من الفوضى لا مثيل لها.

وأخبرنا أيضا نبأ غير سار ولكنه يحمل من الدلالات الكثير حيث قال إن (سرخيو أكونيا) - وهو الذى لاذ بالهرب منذ أيام وتوجه إلى أقرباء له ونزل لديهم وراح يقص على أقاربه قصة بطولاته كأنه أحد الثوار الأبطال وقد سمعه رجل يدعى (بدرو هريرا) ونقل أمره إلى رجال حرس الحكومة على الفور وجاء الكابورال المعروف روسللو بنفسه[1] وانهمك فى تعذيب سرخيو واطلق عليه أربع رصاصات ثم سمعنا أنه قد شنقه ولقد بينت هذه الواقعة لفرقتنا أهمية التوحد والتضامن وعدم الارتكان على أى محاولة للفرار الشخصى من المصير الواحد فضلا عن ذلك دفعنا ذلك إلى تغيير معسكرنا إذ خشينا أن يكون هذا الهارب المسكين قد أوشى بنا تحت ضغوط التعذيب البدنى الرهيب وكان يعرف بيت (فلورنتينو) الذى كنا نعيش بداخله فى تلك الأثناء.

* * * *

(١) تم اعدامه بعد ذلك على يد أبناء الشعب.

فى هذا الوقت بالذات وقع حادث عجيب جعلنا إلى جانب العديد من البراهين والأسانيد نفتح أعيننا حيث أعلن «أوتيميو جيرا» أنه شهد فى الحلم وفاة سرخيوا أكونيا» وذهب إلى أبعد من هذا فأضاف أن الكابورال «روسللو» هو الذى قام بقتله . .

وحينئذ نشأت مناقشة علمية فلسفية لمعرفة ما إذا كان التنبؤ بوقوع الأحداث اعتمادا على الأحلام ممكنا أم مستحيلا ، وبما أنه كان ينبغى على أن أقدم كل يوم للرفقاء أحاديث مختصرة ومقتضبة فى محاولات الثقافة والسياسة فقد شرعت فى الشرح وقلت إن هذا التنبؤ من الجانب العلمي يعد بالطبع مستحيلا حدوثه وأنه يمكن أن يكون نتاج صدفة كبيرة إننا جميعا نعتبر فى خانة الاحتمال كنهاية «سرخيوا أكونيا» وأن (روسللو) اشتهر بعنفه وبعشقه لإراقة الدماء وإشعال النيران فى المنطقة . . . . ولكن جاء صوت أجش أثار فزعنا كان صاحبه هو وينفرسو سانتتشس يؤكد أن (أوتيميو) كان (هازلا) ومن المؤكد أن يكون بعض الناس قد أبلغه بالخبر حيث كان قد توجه فى الليلة السابقة وعاد حاملا معه خمسين علبة من الحليب وفانوسا عسكريا .

وكان من بين الذين يؤمنون إيمانا صادقا بنظرية الأشراق فلاح يحمل علوم القراءة والكتابة ويبلغ من العمر خمسة وأربعين عاما كنت قد تحدثت عنه ويدعى «خوليو زينون أكوستا» وكان أول من تتلمذ على يدى فى «السيرا» حيث أرهقت نفس فى إكسابه مبادئ القراءة والكتابة وكنت كثيرا ما أنتهز فترات التوقف لكى أعلمه الحروف الأولى وقد استطعنا تمييز حرف «أ» من حرف «أو» وحرف (أ) من حرف (أى) وبقدر واسع من الشجاعة والقوة وبغير اهتمام بالأعوام المنصرمة التى مضت وتولت وباهتمام كلى نحو ما ينبغى أن يحلم به ويتطلع إليه انكب (خوليو

زينون) على تعلم القراءة وربما كـان نموذجا رائعا[1] لجميع الفلاحـين من رفقائه فى تلك المنطقة زمن الحرب أو الذين علـى علم بقصته ذلك أن (خوليو زينون أكـوستا) قدم أثناء ذلك أكـبر الخدمـات. . . لقد كان الرجل الذى لا يهـدأ ولم تكن المنطقة بأكملهـا تخفى عليه سراً وكـان على الدوام على استعداد لإغـاثة رفيق بائس له أو ابن المدينة الذى لم يكن قد تم له من صلابة العـود ما يجعله ينهض بمفرده من زلة وقع فيـها. وكان هو الذى يأتى بالماء من النـبع البعيد وهـو الذى يوقد النار فى لمح البصر وهو الذى يجد الأغصان الجافة لإشعال النيران فى أيام الشتاء لقد كان بمفرده بإيجاز أوركستـرا عازفة فى ذلك الزمان وفى أحد الليالى الأخـيرة قبل أن نكتشف خيانتـه شكا «أوتيميـو جيرا» من أنه دون غطاء يتلحف به وطلب إلى فـيدل إن كان يمكنه أن يمنحه غطاء حيث كان الجو باردا فى مرتفعات الجبال خاصة وأننا فى شهر فبراير الذى نحن فيه، فأجابه فيدل أن كليـهما سوف يشعر بالبرد بهذه الطريقة وأن من الأفضل أن يتدثرا مـعاً بالغطاء نفسه حتى يدفـعا البرد عنهما وما كـادا يفعلان ذلك حتى ظل أوتيميـو جيرا الليل بأكمله ممداً بالقرب من فيدل ومـعه مسدس من عيار ٤٥ أعطاه له كاسياس لكى يجهز عليـه به فضلا عن قنبلتين يدويتين كان عليه استـخدامـهمـا لتغطيـة فراره من مرتـفعات الجـبل وفى تلك السـاعـة راح يطرح التساؤلات على أونيفر سوسا نتشس وعلىّ أيضا وكنا بشكل دائم بجوار فيدل حول أدوار الحرس وقد أكد لنا فى سياق حـديثه «أن مشكلة هؤلاء الحراس هى التى تثير قلقى للغاية حيث إنهم لا يأخذون ما يكفى من الاحتياطات وشرحنا له هناك حوالى ثلاثة رجال يحـرسون، أما نحن رفيـقى الجرانما ومحط ثقة فـيدل كاسترو فـقد كنا نتبـادل الحراسة طوال الليل لكى نسـهر على أمنه وسلامـته الشخصـية ولذلك ظل

---

(١) كتب جيـفارا هذا المقطع عام ١٩٦١ وهو العام الذى أعلن فيه فـيدل كاسترو بوصفـه رئيس البلاد أنه عام مكافحة الأمية فى كوبا.

أوتيميو طوال الليل إلى جوار قائد الثورة فيـدل كاسترو الذى كانت حياته معلقة فى فوهة مـسدس، وأتيميو يـنتظر تلك اللحظة الملائمة لقتله ولكنه لم يسـتطع أن يقرر مصيـره وطوال هذه الليلة كان جزء هائل من الثورة متـعلقا بما يدور فى ذهن هذا الخائن وعلى ما يدور فى رأسه من صراع بين شجاعـته وخوفه وإجرامه وصرخات ضميره وأحلامه فى الحاضر والمستقبل ولكن من أجل إنجاح ثورتنا أشرقت الشمس ولم يتعرض فيدل لأذى.

وغادرنا منزل (فلورنتينو) وشيدنا مـخيما عند مجرى نهر صغيـر جاف فيما كان (سيرو فرياس) قـد ذهب إلى بيته - الذى كان قريبا -ثم سرعان مـا عاد منه حاملا دجاجات ومؤنا غذائية حيـث إن تلك الليلة الممطرة والباردة قد وجدت فى الصباح ما يعوضنا عن عذابها فى إعداد طعام طازج وحساء ساخن. وأخبرنا أن أوتيمو كان قد مر من هذه النقطة هو أيضـا، وكان أوتيميو يذهب ويعود حـيث كان محل ثقة وكان قـد التقى بنا عند «فلـورنتينو» وأخبـرنا أنه بعد أن ذهب لرؤية والدتـه المريضة شاهد نفسـه كل الوقائع التى جرت فى رابيـة (كاراكاس) وأنه اقتفى أثرنا لـيعلم ما حدث بعد ذلك.. وقد أكد لنا أن والدته تماثلت للشفـاء وكانت تبدو عليه علامات شجاعة مؤقتة مدهشة فقد كنا فى مكان يسمى «مرتفعات إسبينوزا» وهى قريبة للغاية من سلسلة الروابى المرتفعة كرابية لومـون، والحمار) كاراكاس، إلخ..، التى شنت عليها الطائرات نيراناً كثيفة دون انقطاع وبلهـجة الواثق والعالم بما سيأتى به المستقبل كان أوتيميو يقول على سبـيل المثال «اليوم أنذركم بأنهم سوف يطلقون نيرانهم على رابية الحمار» وبالـفعل تحلق الطائرات على رابية الحمار وتقصـفها بعنف وراح على إثر ذلك يرقص فرحا وطربا من صدق تنبوءاته.

وفى ٩ فبـراير ١٩٥٧ ذهب «سيروفرياس» ولويس كـرسبو» كالعـادة فى البحث عن طعام وكـانت الأمور هادئة فى العاشـر صباحا حـينما كان فـلاح شاب يدعى

«لابرادا» انخرط مؤخرا فى صفوفنا قام باعتقال رجل يتردد ذهابا وإيابا فى تلك المنطقة معلناً أنه نسيب كرستينيو ويعمل مستخدما فى مخزن «سلتينو» حيث توجد قوات (كاسياس) وقد علمنا منه أن فى ذلك المخزن نحو ١٩٤٠ جنديا وكنا نستطيع رؤيتهم عن بعد فى قمة احدى الروابى.

وصرح لنا الأسير أنه تجاذب أطراف الحديث مع (أوتيميو) وأن هذا أكد له أن المنطقة سوف تتعرض لقصف عنيف بالقنابل فى اليوم التالى.

* * * *

لقد كانت قوات كاسياس تتحرك دون أن تحمل معه خطة المستقبل وهنا فقط ساورت فيدل الشكوك حيث انتهى سلوك أوتيميو إلى إثارة وإخراج حاسة النقد لدى أى منا دون تردد أو إبطاء وبدأت التفاسير والشروح تلعب دورها وفى الساعة الحادية عشرة والنصف أمر فيدل بإخلاء المكان فانتقلنا إلى أعلى الرابية تسلقا حيث انتظرنا رجالنا الذين ذهبوا فى مهمة استكشافية، وبعد قليل عاد سيروفرياس (ولويس كرسبو) وأكدا أنهما لم يلاحظا شيئاً غير عادى حيث كان كل شىء كما هو لا جديد من حوله وكنا فى ذلك الوقت فى نقاش حاد عندما خيل «لسيرو ردندو» أنه رأى ظلا يتحرك فطلب السكوت قليلا ودك بندقيته وفى الحال انفجرت الطلقات النارية والقنابل من كل جانب لقد كان الهجوم كثيفا وعنيفا خاصة على تلك الأماكن التى تركناها منذ دقائق وفى لمح البصر كان المخيم قد تم إخلاؤه وعلمت بعد ذلك بفترة قصيرة أن «خوليو زينون إكوستا» ظل إلى النهاية على قمة ذلك الجبل حيث إن هذا الفلاح البسيط غير المثقف والأمى تمكن من أن يدرك أن أية مهمة كبيرة ينبغى على الثورة الاطلاع عليها والذى راح يستعد للمشاركة فى تلك المهمات بادئا بالحروف الأبجدية الأولى، لم يتمكن من أن يصل بمحاولته حتى النهاية السعيدة.

وتفرق باقى رجال الفرقة زاحفين أو راكضين فيما كانت الحقيبة التى كنت أفتخر بها والمكتظة بالأدوية والكتب والأغطية فقد ظلت هناك فى مكانها وكل ما تمكنت من جمعه هو معطف من معاطف جيش باتيستا اغتنمته أثناء معركة (لابلاتا) وارتديته وفررت هاربا على جناح السرعة، والتقيت بعد قليل مع مجموعة من الرجال مكونة من ألميدا، خوليتودياس، أونيفر سوسانتشس، كاميلو سينفويجوس، جيرمو جارسيا، سيروفرياس، موتولا، بيسانت، إمبليو لابرادا، ويابو، ومشينا فى طريق منعرج فى محاولة لتجنب طلقات الأعيرة النارية دون أن نعلم مصير باقى الرفقاء.

كنا أحيانا نسمع طلقات نار متقطعة من الخلف وكان من السهل اقتفاء أثر أقدامنا حيث كانت خطواتنا السريعة تعرقل إزالة أثر أقدامنا وفى الساعة الخامسة والربع وفقاً لساعتى بلغنا مكانا منحدراً يقود إلى نهاية الغابة.

وبعد دراسة وافية قررنا البقاء هنا طوال الليل حتى لا يكشف أمر وجودنا تحت إشراقة الشمس فى مكان مكشوف وإذا أرادوا هم الوصول إلينا فسوف نتمكن من الدفاع عن أنفسنا حيث يتيح لنا هذا المكان تلك الميزة.

ورغم ذلك لم يظهر العدو لنا وواصلنا سيرنا يقودنا بذكاء سيروفرياس الذى كان على علم بأحوال وظروف المنطقة واقترح أحدنا أن ننقسم إلى فرقتين لنواصل السير بسرعة دون أن نترك لنا أثرا ولكننا أنا وألميرا رفضنا قبول هذا الاقتراح من أجل الحفاظ على وحدة المجموعة وتبينا المكان الذى يدعى ليمونس وبعد بعض المناقشة والتجاذب أصدر ألميرا الذى كان قائد المجموعة - نظراً لدرجته العسكرية ككابتن- أمره بمواصلة السير حتى لومون وهو مكان التجمع الذى عينه لنا فيدل. . وكان هناك رفقاء اعترضوا بأن أوتيميو يعرف لومون وأن الجيش ربما كان متواجدا هناك، وفى الواقع كنا جميعا على قناعة فى تلك اللحظة أن الخائن بيننا هو بالفعل (أوتيميو)

بيد أن أليـرا ظل ثابتا على قراره بضـرورة وأهمية تنفـيذ أمر فـيدل كاسـترو وبعد افتـراق ظل ثلاثة أيام. . قابلنا فيـدل فى ١٢ فبراير بالقـرب من (لومون) فى مكان يدعى «درتيشا لاكاريراد» (يمين الرحمة) وتأكد لنا أن الخائن هو فى الواقع «أوتيميو جيرا» وأعيد تركيب الحكاية من بدايتـها. . حيث إنها قد بدأت فى ذلك اليوم الذى وقع فيه «أوتيميو» بعد معركة «لابلاتا» أسيرا فى يد «كاسياس» الذى - كما سبق أن أشرت - بدلا من أن يقتلـه أعطاه مبلغا من المال مقابل رأس فـيدل وعلمنا أنه هو الذى أبلغ عن موقعنا فى رابية كاراكاس وأنه هو الذى أعطى الإشارة بالهجوم على رابية الحمار لأننا كنا ننوى أن نمر بها ولكننا غـيرنا طريق سيرنا فى اللحظات الأخيرة ثم إنه هو أيضا الذى قام بتنظـيم الهجوم المكثف على المكان المستدير الصـغير الذى آوينا إليه فى مجرى النهر (وقد خسرنا قـتيلا واحدا بفضل الأمر الذى أصدره فيدل كاسـترو بالانسحاب العاجل والفورى) فـضلا عن ما تأكدنا منه من مـوت «خوليو زينون أكوستا» وعلمنا أن خفيرا على الأقل قد لقى مصرعه مع بعض الجرحى.

واجبى هنا أن أعترف أن بندقيتى ليست مسئولة عن سقوط قتيل أو وقوع جرحى فى تلك اللحظة فأنا لم أقم بشىء سوى التراجع الإستراتيجى على جناح السرعة.

وإذن فقد اجتـمعنا مرة أخرى وبقية الفـرقة، كلنا نحن الأثنا عشر رفيقـا باستثناء «لابرادا» الذى فقـد فى الليلة الماضيـة، اجتمـعنا مع راوول، وامنجيراس، وسـير وردندو، ومانويل فاخاردو واتيـشفاريا والجاليسى «موران» وفيدل وأصـبح مجموعنا نحو ثمانيـة عشر شخصـا ذلك كان جيش الثورة الموحد من جـديد فى ١٢ فبراير ١٩٥٧، لقد تشـرذم بعض الرفقاء وترك بعض المـتطوعين الجدد العـصابة فى ذلك الحين وفـقدنا زميلا قـديما من زملاء «الجرانما» وكـان يسمى «أرمندور ودريجس» وكان معـه رشاش من طراز تومبسون وكـانت تبدو على محيـاه فى الأيام الأخيرة علامات الضيق العميق والهلع الشديد كلما سمع طلقات نارية فى البعيد أو بالقرب

من مواقعنا على الخصــوص حتى انتهينا بعد ذلك إلى ابتداع تعـبير «بداية التطويق» فكلما كان يظهـر على محيا أحد رجالنا هذا الرعب الذى يبـدو على حيوان سيطر عليه الفزع، أمـا الذى كان يتميز به وجـه الرفيق أرمندو كان يشيـر إلى خاتمة مؤلمة وحزينة.

ولقد ختم أرمندو حيـاته بوصفه مقاتلا وسوف نجد رشاشــه عند أحد الفلاحين بعد فـترة طويلة من الزمن وفى مكان بعيـد حيث صدقت ساقـاه فى الوصول إلى المكان.

* * * *

الفصل الخامس

لكل خائن نهاية مؤسفة

«سوف يأتى هذا اليوم الذى سيكتشفون فيه أن

والدهم قد أعدم جزاء خيانته للثورة»



الفصل الخامس
لكل خائن نهاية مؤسفة

بعد أن احتشد جيشنا الصغير قررنا أن نغادر قطاع «لومون» والانطلاق إلى أماكن أخرى جديدة.. فى تلك الأثناء لم نتوقف عن تدشين شبكة اتصالات مع الفلاحين الذين يجاوروننا ونصب الشارات الضرورية للاهتداء وللحفاظ على سلامتنا.

وابتعدنا بالتدريج عن «سيرا مايسترا» لنمضى ناحية السهل للوصول إلى نقاط ينبغى أن نلتقى من خلالها مع المناضلين من منظمة المدن وعبرنا حزاما من الأكواخ الريفية يدعى «لامونتريا» وبعد ذلك نصبنا أعمدة خيامنا فى غابة صغيرة قرب جدول فى منطقة «إيبفانيو دياس» الذى كان أبناء تلك المنطقة يقاتلون من أجل الثورة ولقد اقتربنا منهم جغرافيا حتى يمكننا أن نوثق اتصالاتنا مع الحركة حيث رن الحياة الخشنة البدوية التى كنا نعيشها خفية جعلت من غير الممكن إقامة تبادل بين فرعى الحركة وفى هذه المزرعة التقينا مع ألمع رموز الحركة فى المراكز المدنية وأذكر من بين الذين التقينا بهم ثلاث نساء شهيرات الآن فى كوبا وهن «فيلما أسيين» رئيسة الاتحاد النسائى وزوجة راوول كاسترو[1] وهايده سانتا ماريا[2] رئيسة بيت البلدان الأمريكية وهى على صلة قرابة بأرماندو هارت وسيليا سانتش رفيقتنا العزيزة فى كل سنوات الكفاح الثورى وقد انضمت بعد وقت قصير وبشكل نهائى إلى الحركة ولم تفارقنا بعد ذلك على الإطلاق، ورأينا أيضا فوسيتنو بيريز الصديق القديم ورفيق (الجرانما) وقد وقع أسيرا بعد فترة قصيرة وهو الذى كان لا يمل من تدشين

---

(١) شقيق فيدل كاسترو.

(٢) هى شقيقة أبل سانتا ماريا نائب فيدل كاسترو وقد واجه تعذيبا رهيبا على يد قوات باتيستا.

قواعد الثورة فى المدن الكوبية ثم تعرفنا على «أرمـانو هارت» وفيما يتصل بى كانت تلك هى المرة الأولى والأخـيرة التى تمكنت خلالهـا أن أقابل (فرانـك يابيس) مدير «سانتياجو».

وكان فرانك يابيس هو من طراز فريد حيث يملك القـدرة على طرح شخصيته بمجرد مصـافحتك له وكان وجهـه كما يظهر فى صوره الحـالية ولكن كانت له نظرة تتسم بالعمق ومن غير الممكن أن نتـحدث الآن عن رفيق توفى ولم يتسن لى اللقاء به سوى مرة واحدة وقد أصبح تاريخه ملكا للشعب فقط.

وكل مـا يمكننى قـوله اليوم أننا لاحـظنا فى عينيـه فى الحـال هذا الرجل الذى تسيطر عليه قضـية وهب لها نفسه بكل شجاعة وبسالة وجـدنا فيه الإنسان المخلوق الرائع وها هو الشعب يطلق عليه الآن لقب «فرانك يابيس الذى لا ينسى» وأنا أيضاً أقول ذلك رغم لقائى الوحيد به.

إن فرانك هو واحد من أولئك الـرفاق الذين قدموا أغلى التضـحيات من أجل تعزيز قواعد وأعمدة الثورة الاشتـراكية.. إن هؤلاء الشهداء هم أيضا الفاتورة التى سدد الشعب قيمتها من أجل استرداد حريته.

لقد علمنا (فرانك) دون أن ينطق دروسا فى الوطنية والولاء فقد راح يتولى مهمة تنظيف بنادقنا من الـشحم ويرصـد عدد الطلقـات النارية حـرصا على ألا تضـيع رصاصة واحدة.. ومنذ ذلك اليوم قررت أن أهتم وأعتنى بسلاحى وواصلت تلك العناية بعد ذلك وأنا لا أزعم أننى كنت نموذجا فى الحرص والدقة.

إن هذه الغابة كـانت عبارة عن خشـبة لمسرح حوادث عنف من نوع آخـر وقد زارنى صحافى أجنبى من أمريكا الشمالية وكان كبير السن بدا أمامى مفتونا ومعجبا بالمناضلين وقد توثقـت علاقته مع فـيدل كاستـرو وقد نشر بعـد ذلك العديد من

المقالات التى تشيد وتمدح شخصية فيدل كاسترو وأيامه وكفاحه فى (سيرا مايسترا) المهم أن هذا الصحافى جاء لمقابلتنا وبحوزته آلة تصوير صغيرة رخيصة التقط بها الصور الشهيرة التى أصبحت واسعة الانتشار وعلق عليها وزير فى حكومة باتيستا بكلمات لا تخلو من السخافة.

وكان هناك مترجم يقف بيننا وبين هذا الصحفى الذى يدعى «ماثيوز» ووفقا لما قصه أمامى «فيدل» حيث لم أكن قد شهدت المقابلة التى جمعته مع ماثيوز حيث روى لى أنه طرح تساؤلات حسية لم تكن تهدف إلى إثارة أعصابه أو الإيقاع به وقدم نفسه لفيدل بوصفه صديقا ومتعاطفا للثورة ورجالها.

والواقع أننى لا أزال أذكر تعليقات فيدل ورأيه فى ذلك اللقاء وبالتحديد الأسلوب الذى أجاب به.. فعلى سبيل المثال أن يجيب على سؤال حول إذا ما كان فيدل مناهضا للاستعمار والذى هاجم فيه تسليمات شحنة الأسلحة إلى باتيستا لكى يثبت لماثيوز أن هذه الأسلحة لن يتم استخدامها فى الدفاع عن القارة ولكنها سوف تستخدم من أجل تركيع الشعب وقهره وقمعه كانت زيارة ماثيوز زيارة خاطفة وعدنا لكى نجد أنفسنا بمفردنا وكنا على استعداد للرحيل ورغم هذا فقد تلقينا النصائح بضرورة مضاعفة اليقظة حيث كان «أوتيميو» فى الجوار القريب.. وتلقى «ألميدا» أمرا يقضى باعتقاله دون إبطاء وكان فى دورية «ألميدا» كل من «خوليو دياس» و«سيرو فرياس» و«كاميلو سينفو يجوس» و«افيخينو اميخيرس»، وكان «سيد وفرياس» هو الذى قام بالقبض على أوتيميو ولم يظهر أمامه أية مقاومة وسرعان ما جاء به أمامنا وقد تبين لنا أن بحوزته مسدسا من عيار ٤٥ ونحو ثلاث قنابل يدوية وتصريحا بالتجول من «كلسياس» وعندما وجد نفسه أسيرا فى هذا الفخ وبين يديه براهين إدانته لم يكن معه أى شك فى مصيره القادم.. ومن ثم جثا على ركبتيه أمام «فيدل» وطلب أن يشنق نفسه لأنه كما روى أمامنا باكيا يستحق الموت.

وفى تلك الأثناء بدا لنا أنه قد أصبح شيخا هرما حيث بدا أكبر من عمره وكانت لحظة من لحظات الاضطراب والتوتر التى لم نألفها فى حياتنا.

وراح «فيدل» يقرعه ويلومه بعنف وقسوة على خيانته ونذالته وكل ما طلبه أوتيميو هو أن يشنق نفسه بعد أن أقر بخطئه وقد ظلت تلك اللحظة شاخصة أمام أعيننا حيث كان من المستحيل أن تمحى من ذاكرتنا وراح رفيقه «سيرو فرياس» يحدثه ويذكره بكل الخدمات التى قدمها له هو وشقيقه إلى عائلة أوتيميو» ثم كيف ولماذا خان وتسبب فى اغتيال شقيق سيرو «وكان أتيميو قد وشى به فلقى مصرعه على يد الحرس الحكومى قبل عدة أيام» ثم حاول أخيرا أن يقضى على المجموعة بأكملها، كانت كلمات سيرو عريضة اتهامات مثيرة ورهيبة ولم يكن «أوتيميو» يجيب أو يرد أو يعقب حيث كان مطرق الرأس وحين سئل عن شيء يتمناه فأجاب أن نعنى نحن أو الثورة بأولاده.. والواقع أن الثورة أبدت اهتماما كبيرا بأولاده حتى أنهم حملوا أسما آخر ويذهبون إلى المدرسة شأنهم شأن جميع زملائهم ويعاملون معاملة حسنة وكريمة كأبناء الشعب دون تفرقة ولكن سوف يأتى هذا اليوم الذى سيكتشفون فيه أن والدهم قد أعدم جزاء خيانته للثورة، وللإنصاف ينبغى أن يعرفوا أن هذا الفلاح الذى أغراه الفساد وحاول أن يرتكب جريمة لا تغتفر بدافع لهفته على جمع المال والوصول لقمة المجد الزائل.

لم يفر هذا الرجل بخطئة فقط ولم يطلب الرحمة لأنه كان على يقين بفداحة جرمه وأنه بالطبع لا يستحقها ولكنه أيضا فكر أخيرا فى أولاده وتوسل أن نعاملهم معاملة كريمة.

وفى تلك اللحظة اجتاحنا إعصار رهيب وأصبحنا فى ظلام دامس وفيما كانت السماء ترعد وتبرق وتمطر بغزارة لا مثيل لها لفظ (أوتيميو) أنفاسه بطلق نارى تعذر علينا سماعه بفعل الصواعق والرعد والعواصف التى غلبت على صوت الرصاص.

وفى صباح اليوم التالى دفن (أتيـميو) فى المكان نفسه وحصل على ما أتذكر حادث صغير حيث أراد (إمانويل فاخاردو أن يضع عليه صليبا وقد اعترضت على ذلك بشدة حيث أن ترك هذا الدليل على اعدام (أوتيميو) كان يمثل خطورة شديدة على أصحاب الأرض واقتنع «مانويل» بما قلت ومن ثم قرر نصب صليب على شجرة قريبة وهذه العلامة هى التى تقود إلى المكان الذى دفنت فيه جثة هذا الخائن العميل.

وتركنا فى تلك الأيام الجاليسن (موران) حيث كان على دراية بنظرتنا نحوه.. لقد كنا نراه فى أعيننا فارا بالقوة (وكان قد اختفى قبل مرور يومين أو ثلاثة وقد ادعى كذبا أنه كان يتعقب أوتيميو ولكنه ضل طريقه فى الجبال».

ففى ذات اللحظة التى شرعنا فيها للترحال سمعنا انفجار طلق نارى ورأينا موران قد سقط على الأرض بعد أن أصيبت ساقه ونشأت بين الرفقاء الذين كانوا هناك مناقشة حامية الوطيس حول هذا الأمر حيث زعم البعض منهم أن الرصاصة قد انطلقت بطريق المصادفة وادعى البعض الآخر أن موران أطلقها على ساقه حتى لا يواصل السير معنا. بيد أن ما حدث بعدها من خيانة (موران) وإعدامه على يد ثوار «جونتانمو» يبرهن بشكل واضح أنه هو الذى قصد أن يطلق الرصاص على نفسه وبيديه ودون أن يصنع ذلك أحد غيره.

وحين رحلنا تعهد (فرانك يابيس) أن يبعث إلينا عددا من الرجال فى أوائل شهر آزار وكان الاتفاق بيننا أن يكون بيت إيبفانو دياس القريب من خيبارو هو مركز اللقاء بيننا.

* * * *

الأيام الصعبة

كانت الأيام التـى تلت رحيلنا من بيت «أبيـفانو دياس» فى تقـديرى من أصعب وأشق الأيام التى عـشناها فى مـرحلة الحـرب وسوف أحـاول أن أشـرح فى تلك الصفحـات ماذا تعنى هذه المرحلة عند الثوار . . وإن كنت مـضطرا فى هذا الجزء من ذكرياتى أن أشيـر إلى مساهمتى الخاصة وذلك للعـلاقة التى ربطتنى بالأحداث اللاحقة وليس بمقدورى أن أنزع صفحة هذه الأحداث عنها دون أن يؤثر ذلك سلبا على مضمون الرواية .

عند خروجنـا من بيت «أبيفانو دياس» كـانت فرقـتنا الثورية تتكون من عـشرين رجلا منهم سبعة عشر رفيقا من أبناء الفرقة الأصلية الأولى ثم يضاف لهم ثلاثة من الرفقاء الجدد وهم راوول دياس، وجيل، و(سوتولونجو) وهؤلاء الرجال الثلاثة كانوا قد نجحوا فى مهمة إنزال المركب «جـرانما» وظلوا يختبئون بعض الوقت بالقرب من «مانترانيـو» وسرعان ما جاءوا إلينا بعـد أن علموا بقدومنا وذلك بهدف أن يلتـحقوا بالفرقـة وكانت حكاية كل واحد منهم تشـبه إلى حد كبـير قصة كل واحـد منا لقد نجحوا فى الـهرب والنفاذ بجلودهم من سيـاط الحرس الحكومى والانزواء فى منزل أحد الفلاحين ثم الانتقال إلى منزل فلاح آخر وعندما وصلوا إلى «مانزاينو» اختبئوا فيـها والآن توحد مصـيرهم مع مصـير الطابور بأكمله وفـى تلك المرحلة كان من العسـير كـما يرى القارئ أن نـضاعف من عدد رجـالنا فلقد كـان هناك من يأتينا للانخراط فى صـفوفنا وكان بالطبع هناك من يتـركوننا . . لقد كانت أحـوال الكفاح الجـسدى مـرهقة إلى أقـصى حـد لا نظير له وكنت أتـصور أننا نعـيش فى هوان وضعف لا نهاية له بسبب هجمات العدو التى لا تتوقف .

في تلك الأيام كنا نسير دون هدف وببطء شديد حيث كنا نختفى فى غابات فى منطقة تكثر فيها المراعى على الزراعة العادية وبقيت بها مساحة صغيرة تناسب أعمال المقاومة، وفى إحدى هذه الليالى أعلن لنا راديو «فيدل» الصغير قيام قوات الحكومة باعتقال أحد رفقائنا فى المركب (جرانما) وكان يتراجع مع (كرستينو بيريز) وكنا على علم من خلال اعترافات «أتيميو» التى صرح فيها أمامنا بأنه وقع أسيرا ولكن لم نكن على يقين من صحة هذا الخبر وإن كنا قد تأكدنا أنه لايزال على قيد الحياة حيث يندر عودة الأحياء الذين يقعون تحت وطأة تعذيب رجال حكومة باتيستا إلى الحياة مرة أخرى.

من وقت لآخر كان يترامى لأسماعنا أصوات طلقات رشاشات يطلقها جنود جيش باتيستا على مناطق المقاومة حيث كان العدو يحرص على تحاشى المواجهة مع أنصار المقاومة ومن ثم كان يعتمد على الغارات الجوية أو الضرب بالرشاشات عن بعد.

ولقد دونت فى الصفحات اليومية للقتال بتاريخ ٢٢ فبراير ظهور الأعراض الأولى لأزمة الربو حيث أدركت للوهلة الأولى أنها سوف تكون عنيفة خاصة وأننى كنت أفتقر إلى السائل المضاد للربو ولأن الاتصال بالمدينة تحدد فى الخامس من مارس فكان لزاما على أن أنتظر عدة أيام وفى خلال هذا اليوم تقدمنا بخطوات شديدة البطء لا نهدف من ورائها إلى أى شيء لكننا كنا نريد فقط إزهاق الوقت على أمل انتظار حلول الخامس من مارس وهو اليوم الذى وعدنا فرانك يابيس أن يبعث لنا فيه عددا من الرجال المسلحين وتوحدت كلمتنا على أنه يلزم تقوية سلاحنا قبل مضاعفة أعداد الجنود فى جبهتنا الصغيرة وأنه يجب لهذا الهدف أن تصعد جميع هذه الأسلحة المتوفرة فى «سانتياجو» إلى «سيرا مايسترا».

وفى أحد الأيام باغتنا شعاع القمر المنير على ضفاف جدول صغير تكاد تكون جرداء لا ينبت بها زرع وقضينا فى هذا المكان يوما لا يخلو من القلق والاضطراب

والتوتر فى واد بالقـرب من «لاس مرسـيدس» يسمى على مـا أذكر «لاماجـاجوا» وعند حلول الليل وصلنا إلـى منزل الشيخ «أمـيليانو» وكـان هذا الرجل من الذين كانوا يصابون بالرعب عند وصـولنا عندهم لكنهم كانوا يتحلون بالشجاعـة والبسالة والإقدام من أجل ثورتنا وكانت تلك الفترة الزمنيـة تتسم بالمطر الشديد فى (الشيرا) حيث كنا نبلل بالماء كما تبلل الأشجـار ولهذا اضطررنا للهرب إلى منازل الفلاحين رغم المخاطر الناجمة عن ذلك بسبب انتشار جنود باتيستا فى كل أرجاء البلاد.

وكان الربو قد اشتدت مضاعفاته حيث أصبحت لم أعد قادرا على السير بشكل طبيـعى الأمر الذى أرغمنا على أن نخـلد للنوم فى داخل إحدى المزارع الصغـيرة والتى تعمل فى البن بالقرب من أحد الأكواخ وهو ما جـعلنا نسترد عافيتنا.. وفى ذلك اليوم وأنا أتحـدث عن ٢٧ أو ٢٨ فبراير تم رفع الرقابة عن الأخـبار فى البلاد ولم يتوقف الراديو عن بث أخبار حدثت فى الأشهر الأخيرة وكان على رأس تلك الأنباء خبر لقاء الصـحفى الأمريكى ماتيوز مع (فيدل كاسـتـرو) فضلا عن التعرض للأعمـال الإرهابية على حـد التعـبير الإذاعى وفى ذلك الوقت أدلـى وزير الدفاع بتصـريحه المعروف حول هذه المقـابلة التى لم تكن سوى أكذوبة كـبرى وذلك على حد قوله كما أنه قام بمنع وحظر نشر الصور التى التقطها «ماتيوز».

كان (هرمس) ابن من أبناء الشيخ أميليانو هو المسئول عن مـساعدتنا فيما يتصل بالإمدادات الغذائية ويدلنا على خط السيـر الذى ينبغى أن نقتفى أثره حتى لا نضل الطريق، ولكن فى صباح ٢٨ فبراير تغيب عن الحضور الأمر الذى أثار قلق (فيدل) الذى أصدر قـراره بإخلاء المكان واحتـلال نقطة أخرى إذ يتعـذر علينا معرفـة ما حدث له.. وفى تمام السـاعة الرابعة بعـد الظهر كان «لويس كـرسيو» وأونيفـرسو سانتشس يراقبان الطرقات حينما تبين (أونيفرسو) على الطريق المتفرع عن تلك التى تصعد من (لاس فيجاس) عددا كبيرا من الجنود فى حالة تأهب لاحتلال الأرض،

وكان يلزم الجرى بأقصى ما نستطيع لكى نصل جانب الرابية والمرور إلى الطرف الآخر منها قبل أن يغلق هؤلاء الجنود القادمون الممر. . ولم يكن فى ذلك شيء صعب ما دمنا قد شاهدنا بأعيننا جنود العدو فى الوقت المناسب، وكانت طلقات المدافع والرشاشات قد بدأت تهز أرجاء المكان بالقرب منا الأمر الذى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك - أن جيش باتيستا كان يعرف موضعنا بالضبط. . ووصلنا جميعا إلى القمة دون وقوع أى حادث بل تجاوزنا القمة بسلام بيد أننى كنت أشكو من تصاعد حدة الربو الذى أفقدنى القدرة على أن أمشى وهو ما دفع الفلاح (كرسيو) الذى رثى لحالى وراح يبذل قصارى جهده لدفعى على مواصلة السير. وعندما ضعفت قواى ورجوتهم أن يتركونى قال لى الفلاح باللهجة التى تميز بها قواتنا «اسمع أيها الأرجنتينى سوف تمشى وإلا دفعتك للأمام قسرا بمؤخرة هذه البندقية) ولم يقف تشجيعه لى عند هذا الحد بالقول فبالإضافة إلى ما كان يحمل من أهدافه الشخصية كان يحمل جسدى وحقيبتى فى الأماكن الوعرة من الجبل. . فى ذلك الوقت كان وابل من الأمطار يضرب ظهورنا بلا هوادة وبلغنا رغم ذلك الكوخ الصغير وكان المكان يدعى «بورجاتوار» (المطهر) وهناك تقمص (فيدل) شخصية القومندان (جونزالس) أحد قادة ضباط جيش باتيستا وأنه يهدف إلى ملاحقة الخارجين على قوانين البلاد وقدم لنا صاحب المكان بيته واهتم بنا اهتماما لا يخلو من الخوف والتبرم ولكن كان هناك شخص آخر صديق من كوخ مجاور لا يكف عن الكلام وقد كانت صحتى حجر عثرة للاستمتاع بمشاهدة فيدل كاسترو وهو يلعب دور القومندان وحواره الرائع مع الفلاح الثرثار الذى لا يتوقف عن إسداء النصائح لفيدل كاسترو.

وكان الأمر يقتضى إصدار قرار حيث لم أكن أستطيع أن أتحلى بالصبر مدة أطول وحينما غادر الجار الثرثار أفصح فيدل كاسترو لصاحب البيت عن هويته

وشخصيته الحقيقية فارتمى الرجل فى أحضانه وقال إنه كان عضوا فى حزب الاستقامة وإنه كان دائما من أتباع «تشيباس»[1] فماذا كان بوسعه أن يفعل من أجلنا؟ لقد كان أكثر الأمور إلحاحا إرسال فلاح إلى (مانزاينو) بهدف تدشين قاعدة اتصالات مع هذه المدينة وشراء بعض الأدوية على أقل تقدير، وكان ذلك يلزم أن أظل موجودا بالقرب من البيت دون علم أحد حتى زوجة صاحبه وكان قد وقع الاختيار على رفيق آخر للانضمام إلينا وقد كان رجلا ضخم الجسم قليل الأخلاق وقد اختير هذا الرفيق لكى يظل بجوارى وزودنى فيدل بسخائه ببندقية من طراز جونسون كرارة كانت فى تقدير الذين يملكون الخبرات التسليحية إحدى الدرر التى تتسلح بها عصابتنا لقد أعطانى هذه البندقية لكى أدافع بها عن نفسى إذا لزم الأمر وتظاهرنا بأننا نغادر البيت جميعا فى طريق واحد وبعد عدة خطوات اجتزت أنا ورفيقى الذى كنت ألقبه بالأستاذ فى البرية إلى مكان متفق عليه مسبقا، لكى نترقب ما سيقع فى الساعات القادمة من أحداث، وهذه هى أخبار ذلك اليوم: لقد تحدث الصحفى الأمريكى العجوز (ماتيوز) بواسطة الهاتف وقد أكد فى إصرار على أن الصور سوف تنشر مهما كانت التحديات..

وصرح (دياس تامايو) أنه يتعذر على أى كائن من كان أن يخترق صفوف القوات الحكومية التى تفرض حصارها بقوة، ووقع (أرماندو هارت) فى قبضة قوات الحكومة بتهمة انتمائه لعصابتنا بوصفه الرجل الثانى فى الحركة وقد أذيع كل هذا ووقع فى ٢٨ فبراير، وقام الفلاح بتنفيذ مهمته وأحضر لى كمية كبيرة من (الأدرنالين) ومن هذه الساعة بدأت الأيام العشرة التى هى أصعب وأعنف أيام الكفاح والنضال فى (السيرا) فمن أجل أن أسير كنت أتوكأ على الشجر من واحدة

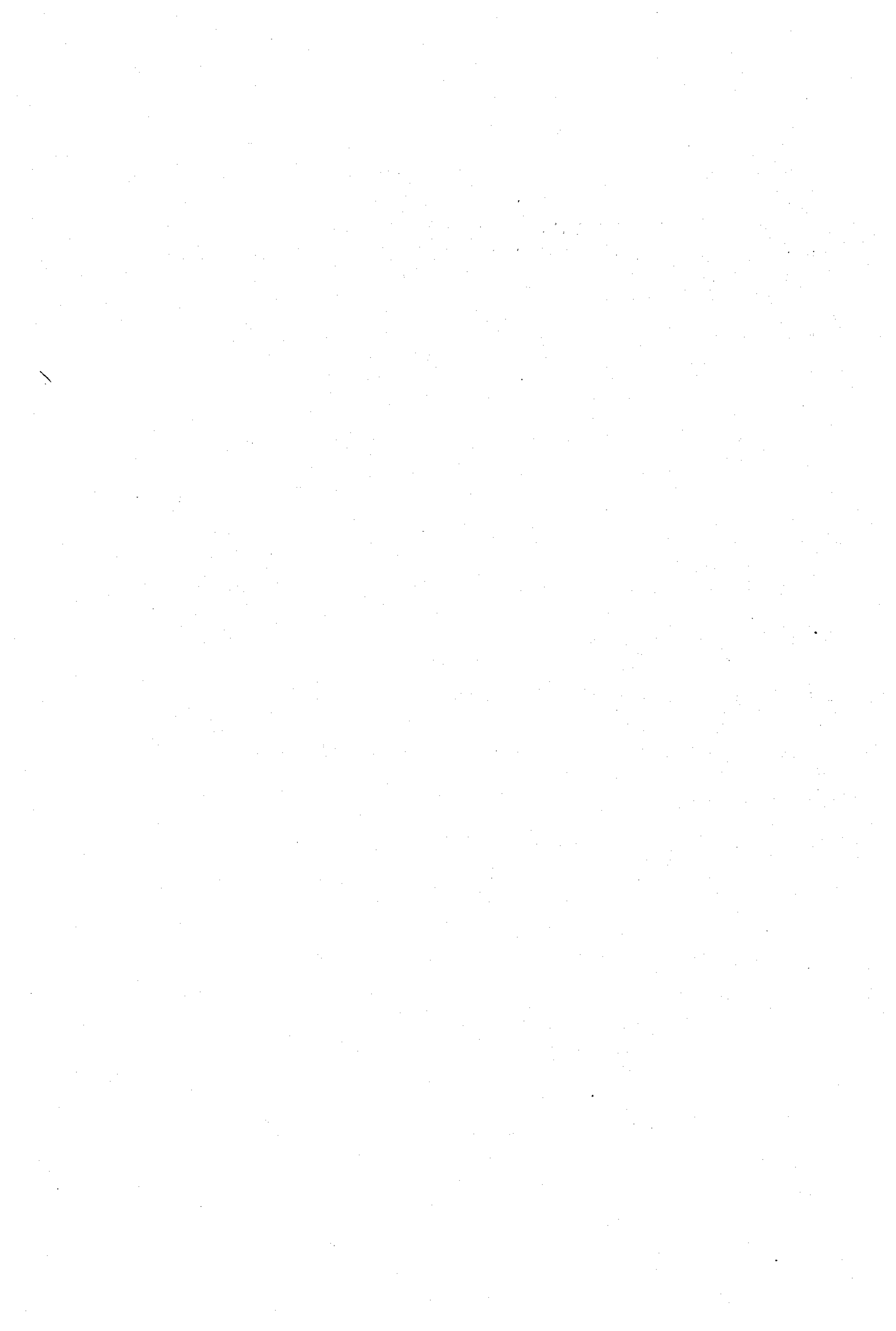
---

(١) تشيباس: هو الذى أسس حزب الاستقامة وكان عضوا فى مجلس الشيوخ قبل أن يقود باتيستا انقلابه عام ١٩٥٢ وقد تمرد على أركان (الحزب الأصيل) وقد نجح حزب الاستقامة نجاحا باهرا وقد مات تشيباس منتحراً!!

لأخرى لها مجاورة وعلى مؤخرة بندقيتى. . وكان يلازمنى أحد الجنود الجبناء الذى كان يرتعد كلما سمع طلقا ناريا بالقرب منا ويصاب بحالة عصبية كلما أرغمنى الربو إلى السعال فى بعض الأماكن والنقاط التى تتسم بالخطورة. .

وقضينا نحو عشرة أيام طويلة قبل أن نعـود إلى بيت (إيبفانو) وكانت المسافة التى قطعناها تحـتاج إلى يوم واحـد وكنا قد اتـفقنا على أن يكون يوم ٥ مـارس هو يوم اللقاء الجديد ولكن لم نكن على ثقة لانعدام كافة السبل لإتمام هذا الموعد المضروب خاصة وأن الحصار الذى فرضه جنود باتيستا فضلا عن عدم قدرتنا على السير كانا حجر عثرة فى طريقنا للوصول قبل ١١ مارس إلى بيت مضيفنا «أبيفانو دياس».

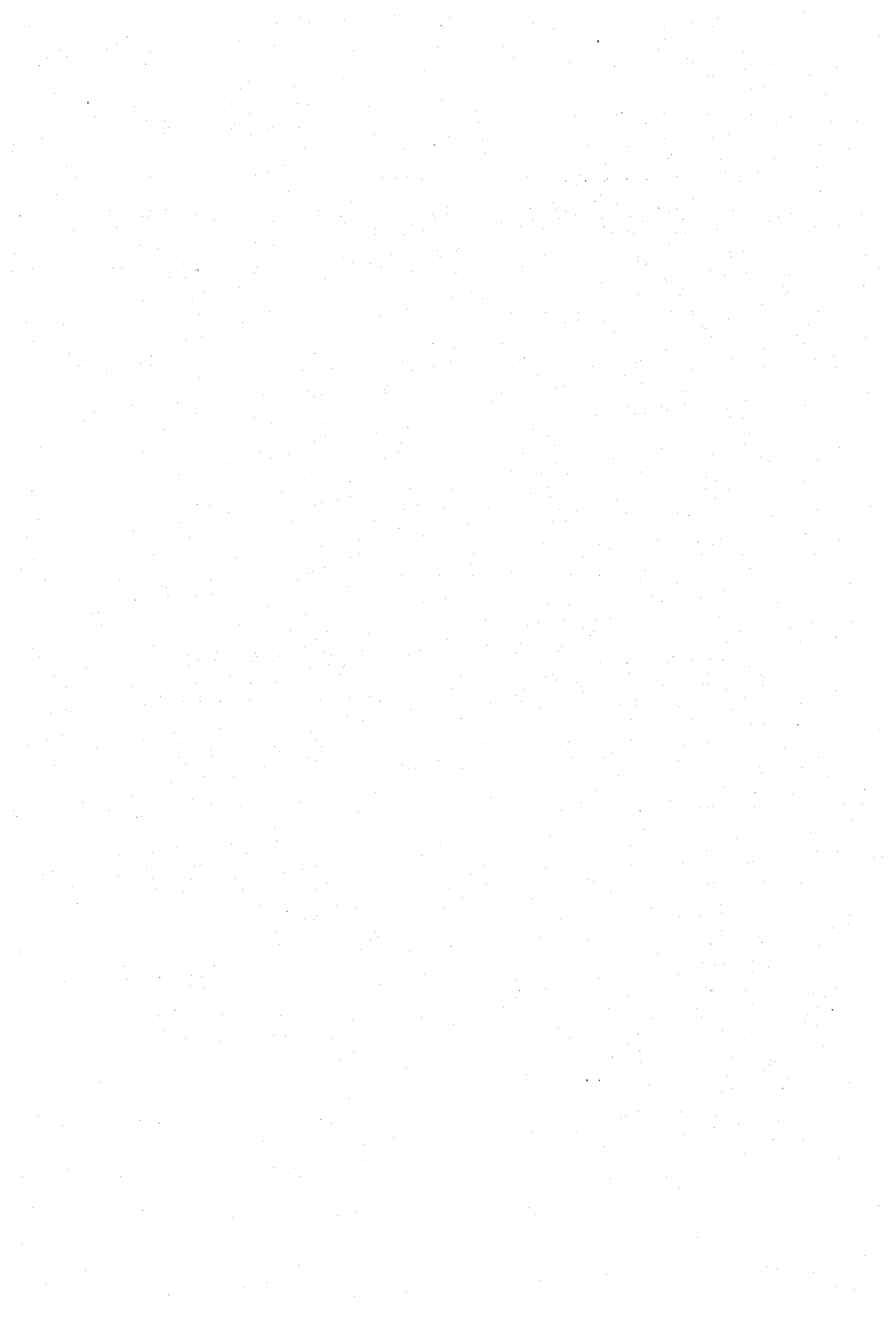
كانت أمور كثـيرة قد وقعت فى تلك الأثناء وقد علم بها أهل البيت فـمجموعة فيدل المكونة من ثمانية عشر رجـلا انقسمت إلى قسمين لأنهم ظنوا خطأ أن جنود الحرس الحكومى سوف يشنون هجـوما واسعا مرة أخـرى فى مكان يسمى «التوس دى مرينيـو» أو مرتفعات مـرينيو» وقد واصل اثنا عـشر رجلا طريقهم مع (فـيدل) وستة رجال مع (سيـرو فرياس) ثم سرعان ما وجد (سيرو فـرياس) نفسه فى كمين حكومى بيد أنه خرج منه خروج الشعرة من العجين هو ورجاله وتجمعوا مرة أخرى فى مكان قريب ولم يمـر بمنزل أبيفايـو دياس منهم إلا (يايو) بمفرده الذى عاد بغـير بندقيتـه فى اتجاه مانزاينو وبفضل يايو تمكـنا أن نقف على حقيقة مـا يجرى، وعلمنا أيضـا أن الرجال الـذين كان ينبـغى أن يبـعث بهم (فـرانك بابيس) كـانوا على أتم الاستعداد بيد أن فرانك قام باعتقال (سـانتياجو) والتقينا مع قادة هؤلاء الرجال وكان يدعى (خورخى سـوتوس) ويحمل رتبة كابتن ولم يكن قـد تمكن من الوصول فى الخامس من مـارس لأن خبـره مع رجاله كـان قد انتـشر ومن ثم كانت الـطرقات جميعهـا تخضع للمراقبة والرصد الشديد واتخذنا بدورنا كافـة الاحتياطات اللازمة لكى يتم بلوغ الرجال فى زمن قـياسى حيث كانت أعدادهم لا تقل عن خـمسين رجلاً.



الفصل السادس

وصول الإمدادات

«قام فيدل كاسترو وراح يوجه النقد لشخصى لأننى أهملت السلطة التى كانت فى حوزتى وعاتبنى على ترك هذه السلطة وانتقالها إلى يد سوتوس».



الفصل السادس
وصول الإمدادات

أثناء انتظارنا قدوم القوة الثورية الجديدة بثت الإذاعة عبر أثيرها أن «باتيستا» قد أفلت بأعجوبة من محاولة اغتيال استهدفته شخصيا وأعطى الراديو أسماء بعض ضحايا الحادث من القتلى والمصابين وجاء «أنطونيو أنشيفاريا» زعيم الطلاب فى مقدمة القتلى ثم تبع اسمه بعض ممن لا تربطهم علاقة بالحادث وفى ضوء ذلك علمنا أن «بيلايو كويرفونا فارو» أحد مناضلى حزب الاستقامة الذى رفض أية تسوية سياسية مع حكومة باتيستا قد لقى مصرعه وتوترات الأنباء حول جثته التى تم العثور عليها مهملة فى «لاجوتيو» وهى ضاحية مشهورة من ضواحى نادى «كنترى كلوب» الشهير بأنه حى أرستقراطى وتجدر الإشارة إلى أن الذين قتلوا [بيلايو كويو فونا فارو] وأبناء هذا القتيل - قاموا بما يشبه النكتة - حيث تعاونوا معا بمحاولة الغزو الفاشلة فى (بلايا خيرون) و(شاطئ خيرون) من أجل تحرير كوبا من (جذام الشيوعية).

وقد تسربت التفاصيل الدقيقة المتعلقة بمحاولة مقتل باتيستا عبر الأجهزة الرقابية ولايزال شعب كوبا يتذكر هذه المحاولة أما أنا فلم يحدث أن التقيت مع أنتشيفاريا» زعيم الطلاب على وجه الإطلاق.. وعلى العكس فقد تعرفت على رفاقه فى المكسيك حين توصلت «٢٦ يوليو» وإدارة المنظمة الطلابية إلى اتفاق يهدف للعمل المشترك ومن هؤلاء سفيرنا الحالى فى الاتحاد السوفيتى «فورى تشومون» و«فروكتيوسو روديجس» وجو وستبروك وقد تعاونوا جميعا فى محاولة اغتيال الديكتاتور حتى كاد بعضهم يصل إلى الطابق الثالث الذى يوجد فيه الطاغية بيد أن فشل الهجوم أسفر فى التو عن قيام رجال الشرطة بقتل جميع الذين أخفقوا فى

الخروج فى الوقت الملائم من قصر الرئاسة الذى أصبح قريب الشبه من مصيدة للفئران.

وكنا ننتظر وصول الإمداد على أقصى تقدير فى ١٥ مارس.. فانتظرنا ساعات طويلة فى المكان المحدد للقاء وهو عبارة عن مهبط سرى فى مجرى جدول نهرى لم نكن نتوقع وجوده إطلاقا حيث أنه من أروع الأماكن التى يمكن الاعتماد عليها فى النشاط السرى.. على أية حال لم يأت إلينا أحد وعلمنا أن هناك صعوبات وعقبات عرقلت وصول الإمدادات وفى ١٦ مارس وصل الرجال عبر شاحنات وقد بدا عليهم الإجهاد الشديد وكانوا على وشك السقوط من فرط الإرهاق الذى تعرضوا له فى طريق وصولهم إلينا.

وكان صاحب الشاحنات أحد زراع الأرز فى المنطقة وقد سيطر عليه الهلع من التداعيات التى يمكن أن تترتب على مهمته الخطرة ومن ثم طلب حق اللجوء إلى كوستاريكا فحصل على هذا الحق وعاد إلى كوبا كبطل فى الطائرة الشهيرة التى حملت على متنها أسلحة من تلك البلاد وكان اسم هذا الرجل «هوبرت ماتوس».

أما فيما يتعلق بالإمدادات فكانت عبارة عن خمسين رجلا كان منهم ثلاثون فقط مسلحين وقد زادت أسلحتنا بندقيتين رشاشتين كانت واحدة من طراز مادزن والأخرى من طراز تومبسون وكانت الأشهر القليلة التى قضيناها فى السيرا قد أفادتنا وزودتنا بالخبرات فظهرت أمامنا عيوب الرجال الجدد التى كانت فينا أيضا يوم هبطنا على الشاطئ من الجرانما فليس هناك نظام وليس هناك تكيف بالصعوبات الأساسية ولم يكن هناك عزم على أمر.. لقد كان لديهم باختصار حالة من عدم التوافق مع هذا النوع من الحياة الشاقة وكان يترأسهم الكابتن «خورخى سوتوس» وكانوا قد انقسموا إلى خمس فصائل كل فصيلة مكونة من عشرة رجال وعلى رأسها ملازم وهذه قائمة بأسماء رؤساء الفصائل الخمسة.

الرفـيق دومينـجس أظن أنه مات بعـد ذلك بوقت قـصيـر فى بينودل أجـوا»، والرفـيق «رينه راموس لاتور» الـذى مات بطلا فى مـيدان القـتـال عند الساعـات الأخيرة من الهجوم الأخير الذى شنته القوات الحكومية وكان هو الذى أشرف على تنظيم وإعداد المليشيا فى السهل.

و(بدرين سـوتو) هذا الرفيـق القديم الذى زاملنا فى «الجـرانما» وقـد انضم إلينا مؤخرا بعد فـترة طويلة من الدراسة والتفكير وقد مات هو الآخر فى سـاحة القتال على الجبهــة الشرقية الثانيــة، ومنحه راوول كاسترو رتبـة قومندان بعد أن رحل عن الدنيا، والرفيق (بينـيسا) الذى منحته الثـورة رتبة قومندان وإن كان قد مـات منتحرا بعد نجاح الثورة وانتصارها وأما الملازم (هرمو) فقد كان هو القائد الوحيد الذى ظل على ظهر الدنيا بعد انتصار الثورة.

كان من أهم العـقبات التى عرقلت سـيرنا هى عجـز هؤلاء الرجال على المشى حتى كان قائدهم «خـورخى سوتوس» أحد الذين يسيرون بطريقة سـيئة للغاية فكان يجر قدميه دائما فى آخر القافلة وهو ما كان يمثل فى تقديرى نموذجا سيئا لرجاله.

وكنت قد تلقيت أمـرا بأن أقود بنفسى تلك المجموعة وحـين فاتحت (سوتوس) فى هذا الموضوع أخبرنى أن فى حوزته أمرا بأن يسلمـها بنفسه إلى (فيدل) وأنه لن يسلمهـا فى كل الأحوال إلى أى رجل آخـر غير (فـيدل) ومن ثم لن يتخلى عـما أوكل إليه، وفى تلك الأيام كانت عقدة أننى غريب تلازمنى ولم أكن ميالا إلى دفع عجلة الأمور إلى أقصى سرعة رغم أن هذه المجموعة تشكل لى مثار قلق وإزعاج وبعد فتـرة من المسيرات القصيـرة جدا والتى بدت كأنها طويلة للغـاية بسبب عدم التأهب والاستـعداد الكافى بلغنا منطقة تسمى «لادريتـشا، اليمين» ففـيها كنا على موعد مضروب لانـتظار (فيدل كاسترو) ووجدنا هناك عددا قليـلا من الرفقاء كان قد ابتـعد عن (فيدل) قـبل وقت قصير وهم (الإخـوة سوتو مايور الثلاثة وسـيدو

فرياس) بيسانت وجيرميو جارسيا وخوفنتينو ومانويل فاخارود وفى تلك الأثناء كان الفرق الشاسع واضحا لكل ذى عينين بين الفرقتين حيث كانت مجموعتنا تتسم بالنظام والتناغم بين أفرادها فى حين كانت مجموعة الرجال (الزرق) نهبا لكافة أمراضنا التى واجهتنا وتعرضنا لها فى مقتبل أيامنا الأولى، خاصة أنهم لم يعتادوا على تناول الطعام مرة واحدة فقط فى اليوم وإذا لم يكن الطعام حلو المذاق لا يتناولونه وكانوا يحملون على ظهورهم حقائب مكتظة بأشياء لا قيمة لها فى مشوار ثورتنا وإذا تبين لهم ثقلها على ظهورهم تخلصوا من اللبن الحليب وحرصوا على بقاء علب مناديل تواليت ومن ثم كنا نحن نوظف عذوبة ورقة طباعهم لكى نحمل عنهم علب الحليب والمواد الغذائية التى يرمونها فى عرض الطريق، وحين طاب لنا البقاء بعض الوقت فى «لادريتشا» حتى أضحى الأمر بالغ الخطورة بعد تصاعد حدة الاحتكاكات والصدامات المستمرة بين المجموعة بأكملها و(خورخى سوتوس) الذى يشتهر بالاستبداد والانفراد بالرأى وصاحب المزاج السيئ دائما ولذلك وجدنا أنفسنا نتخذ العديد من الاحتياطات اللازمة وعند خروجنا من ملجئنا التزم (رينه راموس لاتور) وكان يدعى فى الحرب «دانيال» يتحمل مسئولية الفرقة الحاملة للرشاشات وكانت هذه هى لكى نضمن ولاء هذه الفرقة وعدم انقضاضها على الثورة.

وبعد ذلك بعث (خورخى سوتوس) فى مهمة خاصة إلى ولاية ميامى وهناك انقلب على الثورة وخانها حيث أسس علاقات مع (فيليب باسوس) الذى ينسى وعوده ويرشح نفسه للرئاسة المؤقتة فى مؤامرة كان للخارجية الأمريكية فيها دور رئيسى وبمرور الوقت أبدى الكابتن «سوتوس» حرصه الشديد على رد اعتباره ومن ثم منحه (راوول كاسترو) فرصه ذهبية ولكن (سوتوس) قام بتوظيفها لكى ينسج خيوط مؤامرة ضد الثورة وقضت المحكمة بعقوبته بالسجن عشرين عاما ثم سرعان ما نجح فى الهرب من محبسه بعد أن رشى سجانه وقد أطلق ساقه للريح قاصدا (مركز الديدان) السامى: الولايات المتحدة.

ورغم ذلك فقد بذلنا قصارى جهدنا لمساعدته بقدر الإمكان وأن نتخذ من الحكمة وسيلة للرفقاء الجدد كما أننا حاولنا أن نشرح له أهمية النظام وذهب «جيرمو جارسيا» لكى يأتى بفيدل من ناحية (كاراكاس) فيما توجهت أنا إلى (براميرو فالديس) الذى كان قد بدأ يتماثل للشفاء من الجروح التى أصابت ساقه وفى الرابع والعشرين من مارس وصل فيدل ليلا . . وكان وصول الزعيم يمثل أهمية بالغة وذات تأثير هائل خاصة أن الرفقاء الأوفياء يحيطون به من كل جانب وقد كانوا بالفعل اثنى عشر.

وما أعظم الفرق بين الثائر المقاتل الذى أطلق لحيته وحمل حقائبه المثقوبة وبين هؤلاء الجنود الجدد الذين جاءوا بملابسهم النظيفة وحقائبهم الأنيقة لامعة ووجوههم الحليقة وبشرتهم البيضاء.

منذ قليل تبادلت مع (فيدل) أطراف الحديث حول الأزمات التى واجهتنا والمشكلات التى تعرضنا لها وعقد اجتماعا لكى نحدد الموقف الذى ينبغى أن نتخذه وكان المجلس يضم فيدل وشقيقه راوول وكان يحضره أيضا «أليدا» وجيرمو جارسيا، سينفويجوس ومانويل فاخارود وسيرو فرياس وكاميلو سينفويجوس، وأنا ثم قام فيدل وراح يوجه النقد لشخصى لأننى أهملت السلطة التى كانت فى حوزتى وعاتبنى على ترك هذه السلطة وانتقالها إلى يد (سوتوس) وأظهر (لسوتوس) أنه لا يوجد موقف عدائى أو شخصى معه لكن لم يكن يحس التساهل نحو موقفه مثل ذلك الوقت ثم شكلنا الفكر الجديد وذلك بتقسيم المجموعة إلى ثلاث مجموعات الأولى برئاسة راوول كاسترو، وخوان أليدا، وخورخى سوتوس بيد أن (كاميلو سينفويجوس) كان مسئولا عن قيادة الطليعة وكان على (أفيخنيوا ميخراس) قيادة المؤخرة أما أنا فقد عينت طبيب الأركان فيما أضحى «أونيفرسو سانتش» رئيس الأركان كانت الفرقة تتضاعف يوما بعد الآخر من حيث القوة والعدد بفضل

المتطوعين الجدد خاصة وقد أصبح لدينا بندقيتان رشاشتان رغم أن فعاليتهما كانت مثار ريبة وقلق ومع ذلك فقد أمسينا نمثل قوة مرهوبة الجانب وبدأنا فى اجراء مناقشات حول ما سوف نفعله الآن وقلت فى تلك المناقشة أننا يجب أن نشن هجوما على أول نقطة لكى نرفع بنيران القتال والكفاح الثورى معنويات الرفقاء الجدد ولكن رأى فيدل وجميع الأعضاء أننا يجب أن نتركهم يترجلون وسط الصعاب والشدائد حتى يألفون تلك الحياة الشاقة التى لم يكونوا يعهدونها من قبل. ثم محاولة إرغامهم على السير بين الروابى الحادة والصخور المدببة وبين المنحدرات حتى يكتسبوا قوة وصلابة ويتمتعوا بالجلد والمثابرة والصبر ولا يتعجلوا النصر أو الهرب.

من هنا قررنا أن نتجه صوب جهة الشرق وأن نتقدم بأقصى ما يمكن التقدم فى الوقت الذى نفتش فيه عن مناسبة لكى نباغت بعض جنود الحرس الحكومى بعد أن نكون قد تابعنا درسا عمليا تمهيديا فى أصول وعلوم وفنون حرب العصابات.

واستعدت الفرقة فى مناخ حماس وانطلقت تؤدى المهمة الموكولة إليها وبدأت طقوس تعميدها بالدم من خلال معركة «الأوفيرو».

❋ ❋ ❋ ❋

إعداد الرجال

انكفأت القوات الثورية طوال شهرى مارس وإبريل عام ١٩٥٧ على نفسها من أجل تكثيف ساعات التدريب وإعادة التنظيم ورسم الخطط المستقبلية وكانت هذه القوات مع الدعم الجديد الذى حصلنا عليه مؤخرا تتكون عند خروجنا من المكان الذى يدعى «لادرتييشا» من ثمانين رجلا تقريبا وكانت تشيكلاتها على النحو التالى:

كانت المقدمة تتكون من أربعة رجال فى مقدمتهم «كاميلو» وأسندت مهام المجموعة التالية إلى «راوول كاستر» ومعه نحو ثلاثة ملازمين على أن يتولى كل منهم قيادة فصيلة وهم «راميدو فالديس ونانودياس وخولينو دياس» وهم بالمناسبة لا تربط بينهما أية صلة قرابة على الإطلاق حيث إن أحدهما ولد فى مدينة سانتياجو وإن كانت مصفاة الإخوان دياس تتشرف بهذا الاسم فى تلك المدينة لإحياء ذكرى نانو وأحد أشقائه الذى كان قد مات شهيدا فى سانتياجو بكوبا. . أما الثانى فكان من رفقاء الجرانما ومونكارا القدماء وقد أبلى بلاء حسنا فى معركة (الأوفيرو) وكان مع (خورخى سوتوس) الذى كان برتبة كابتن فى ذلك الوقت. ثلاثة ملازمين هم «سيروفرياس» الذى استشهد فيما بعد على جبهة (فرانك يابيس) (وجيرمو فارسيا) وهو الآن قائد عسكرى (ورينه راموس لاتور) وقد استشهد وهو برتبة قومندان فى السيرا مايسترا.

ثم بعد ذلك تأتى هيئة الأركان المكونة من (فيدل) قائدا عاما (وجيرو رودندو) و(مانويل فاخاردو) والفلاح كرسيو واينفرسو سانتتشس وأنا بوصفى طبيبا وكانت المجموعة التى تلى هذه المجموعة فى سير الطابور صفا متصلا هى فى الغالب مجموعة الميدا وكان الملازمون فيها «هرموا» وجيرمو رومنجس الذى قتل فى ألبينو دلاجوا) و(بينيا) وكان فى ذيل الطابور أفيخينيوا ميفيراس برتبة ملازم يرافقه ثلاثة رجال يشكلون المؤخرة.

وراح الرجال يتعلمون أصول الطهى واحدا بعد الآخر وكانت الحلويات والمأكولات والأدوية والذخائر توزع بالتساوى على كل فرقة وكانت كل فرقة تحتوى على عناصر من القدامى وأعضاء من الجنود الجدد لكى يكتسبوا الخبرات والمعلومات فى الطبخ وكيفية استخراج أكبر نسبة ممكنة من المأكولات إلى جانب فنى حياكة الحقائب العسكرية وفنون الترجل الطويل والشاق فى السير.

إن السيارة تقطع المسافة بين قطاع درتيشا ولومون والأفيرو فى بضع ساعات ولكن عبور هذه المسافة يتطلب خمسة أشهر حتى استطعنا خلالها أن نصل إلى الهدف الأساسى وهو تجهيز الرجال للمعارك القادمة وللحياة التى تنتظرهم وهكذا عدنا إلى عبور مرتفعات «أسبينوزا» مرة أخرى حيث وقفنا نحن القدامى حرس شرف أمام قبر (خوليو زينون) الذى كان قد استشهد منذ مدة قصيرة ووجدت هناك قطعة من غطائى لاتزال عالقة بالأشواك (تذكرنى بتراجعى الإستراتيجى المهرول) فوضعتها فى حقيبتى وعقدت العزم الأكيد على ألا أفقد أى شيء بعد هذا اليوم من حقائبى فى ظروف مشابهة.

وانضم إلىّ أحد الرفاق الجدد ويدعى «يولينو» لكى يساعدنى فى نقل الأدوية وهكذا أصبحت مهمتى يسيرة وتمكنت من أن أخصص بضع دقائق يوميا بعد أن ينتهى شوط السير من أجل التفرغ للاهتمام بصحة الفرقة.

ورجعنا إلى رابية «كاراكاس» موضع الغارة التى شنها طيران العدو علينا بسبب خيانة «جيرا» ووجدنا هناك إحدى البنادق التى كانت تفيض عنا وقد اضطر أحد جنودنا إلى تركها ليمشى بخطى أسرع عند التراجع.. أما الآن فلا يوجد فى حوزة الفرقة مزيد من البنادق بل الحقيقة التى لا يخالجنا الشك فيها أننا فى حاجة ماسة للبنادق حيث نشكو النقص فيها.

ودخلنا مرحلة جديدة ومثيرة وتستدعى الانتباه.

فقد حدث تغير نوعى. . لقد كـانت هناك منطقة كاملة كان جيش العدو يتجنب أن يجازف بالمغامرة فيهـا حتى لا يصطدم بنا ورغم ذلك فلم نكن نحن أيضا نظهر رغبة عارمة فى مقابلة هذا الجيش.

وكان الوضع السـياسى أثناء ذلك يفسح المجال للاستغلال وكـانت الأصوات الضخمـة التى يعرفها الناس أصـوات «يارد ويادا» وكونت أجويرو والعـديد من فئة المستغلين حيث يـتصايحون بالخطب الرنانة بالديما جوجـية فى دعوة للوفاق والوئام من خلال هجوم حاد وعنيف على الحكومة.

والحكومة بدورهـا راحت تتحدث هى الأخـرى عن السلام وقـد صرح رئيس الوزراء الجديد (ريفيرو أوجويرو) لكل إنسان أنه مستعد إذا دعت الضرورة أن يتوجه إلى سيرا مايسترا من أجل نشـر لواء السلام فى ربوع الوطن ومع ذلك فبعد مرور عدة أيام أكد باتيسـتا أنه لا ينبغى إجراء أى حوار مع (فيدل) وأمـثاله من الخارجين على القانـون وقال إن (فيـدل) ليس فى السيـرا وأنه لا يوجد هناك أحـد فى أعالى الجبـال ومن ثم لا يوجد داع يفـرض علينا أن نتوجـه لكى نتفاوض مـع (حفنة من الأشقـياء) وهكذا اتضـحت من جانب بـاتيستـا العزيمـة فى المضى قدمـا لمواصلة العمليات الحربيـة وكانت هذه هى المناسبة الوحيدة التى اتفقنا فـيها مع العدو وعلى الفور قررنا نحن أيضا مواصلة القتال مهما كان الثمن.

وفى ذلك الوقت عينت الحكومة الكولونيل «باريرا» رئيسا للعمليات وهو معروف بشراهته وجشعه وطمعه فى مـأكولات الجنود وقد استطاع بعد ذلك أن يشهد لحظة اندثار نظام باتيستا وذلك من كاراكاس عاصمة فنزويلا خاصة وأنه كان يعمل ملحقا عسكريا.

كان مـعنا فى تلك الأثناء بعض المؤيدين المتـحمسـين الذين كانوا يجـيدون فن الدعاية التـجارية فقط، لحركـتنا فى الولايات المتحدة وقـد سبب لنا اثنان منهم على وجه خاص بعض المصاعب.

ولقد كان هؤلاء ثلاثة شباب أميركيين هربوا من منازل آبائهم فى القاعدة البحرية الأمريكية فى (جوانتانمو) وانخرطوا فى صفوف الحركة التى نقودها وتعذر على اثنين منهما سماع أى طلق نارى فى السيرا وانسحبا وقد أنهكهما المناخ وكافة صنوف الحرمان الأليمة بحراسة الصحفى «بوب تابر» أما الرجل الثالث فقد شارك فى معركة (الأوفيرو) ثم سرعان ما آثر الانسحاب بعد أن سقط مريضا وإن كان قد أبلى بلاء حسنا فى ميدان القتال لأول مرة فى حياته. . إن هؤلاء الشباب لم يكن أى منهم على استعداد أيدولوجى للثورة ولكن اقتصر الأمر لديهم على إشباع رغبتهم فى المغامرة بالعيش فيما بيننا شهرين أو ثلاثة أشهر. . ولقد شاهدناهم يذهبون ونحن فى غاية التأثر والسرور بالطبع. . وكان سرورى أنا يكاد يكون الأكبر والأعظم بوصفى أعمل طبيبا حيث كثيرا ما كنت أنا الذى أحمل عبئهم لأنهم لم يكونوا على استعداد لقبول ومواجهة مصاعب الدنيا التى نعيشها الآن.

وفى ذلك اليوم نفسه دعت الحكومة رجال الصحافة إلى جولة فى إحدى الطائرات التابعة للقوات المسلحة على ارتفاع بضعة آلاف من الأمتار لكى تبرهن على عدم وجود أحد فى جبال (سيرا مايسترا) وكانت عملية تثير الدهشة ومن ثم أخفقت فى إقناع أى أحد وقد كشف ذلك الأمر كيفية توظيف حكومة باتيستا لكافة أدوات وأساليب تضليل وخداع الرأى العام وتزييف وعيه من خلال دعم جميع الذين كانوا أمثال «كونت أجريرو» حيث كانوا يظهرون للرأى العام كأنهم أبطال وثوار مناضلون ورموز للكفاح الوطنى فى حين كانت خطبهم اليومية بمثابة حقن مخدرة يتعاطاها الشعب.

وفى أيام المحنة استطعت أن أتمدد على فراشى من القطن وكان الفراش غالى الثمن وقد منعنى نظام الحركة الصارم من أن أحصل على مثله حتى الآن، والواقع أن نظامنا الثورى الصارم كان لا يسمح لأحد باقتناء مثل هذا الفراش باستثناء فراشى

قماشا الحقائب وكان هذا التدبير وسيلة لمكافحة البلادة والكسل.. ولقد استطاع كل عضو من أعضاء الفرقة أن يصنع فراشا من القماش وكان الربو الذى يفترسنى يحول بينى وبين استخدام فراش القماش حيث أن حشوة الشعر كانت تثير إزعاجى فكنت أرى نفسى مدفوعاً رغم أنفى للاستلقاء على الأرض ولأنى لم أكن أملك فراشا مصنوعا من القماش فلم يكن بوسعى أن أطالب بفراش من القطن إن هذه الجزئيات الصغيرة التى كنا نراها ونعيش تفاصيلها يوميا تكاد تكون مأساة تلتبس كل حركة أو عصابة بيد أن (فيدل) أخذ الأمر بجدية واهتمام وتجاوز الأنظمة وخصص لى فراشا، ولا أزال أذكر أن هذا جرى فيما كنا على ضفة نهر «لابلاتا» فيما كنا نعبر الحصون الأخيرة قبل وصولنا إلى (ياالماموتشا) وبعد يوم واحد من تناولنا أول عشاء مع الرجال على التوافق.

ولقد ثار الفلاحون غضبا من أعضاء الفرقة ورفضوا كل حصتهم من الطعام. بل كان من بينهم من اعتبر (مانويل فاخاردو) مجرما سفاحاً، وكان مانويل فى زمن السلم يقتل المواشى فى السلخانة وكنا نستفيد من قدراته فى حالات كهذه التى ضحى فيها بأول حصان).

وكان هذا الحصان الأول يخص فلاحا يسمى (يويا) يعيش فى الجانب الآخر من نهر (لابلاتا)، وما من شك أن (بوبا) أصبح على دراية بأبجديات القراءة بعد الحملة القومية لمكافحة الأمية فهو إذن يستطيع إن كانت تصله (مجلة فردى أوليفو)[1] أن يتذكر هذه الليلة التى طرق فيها ثلاثة مقاتلين من الثوار وعلى وجوههم علامات استحقاق المقصلة باب كوخه وظنوه خطأ أحد الجواسيس وأخذوا إليه هذا الحصان العجوز الذى كان ظهره مثخنا بالجراح.

---

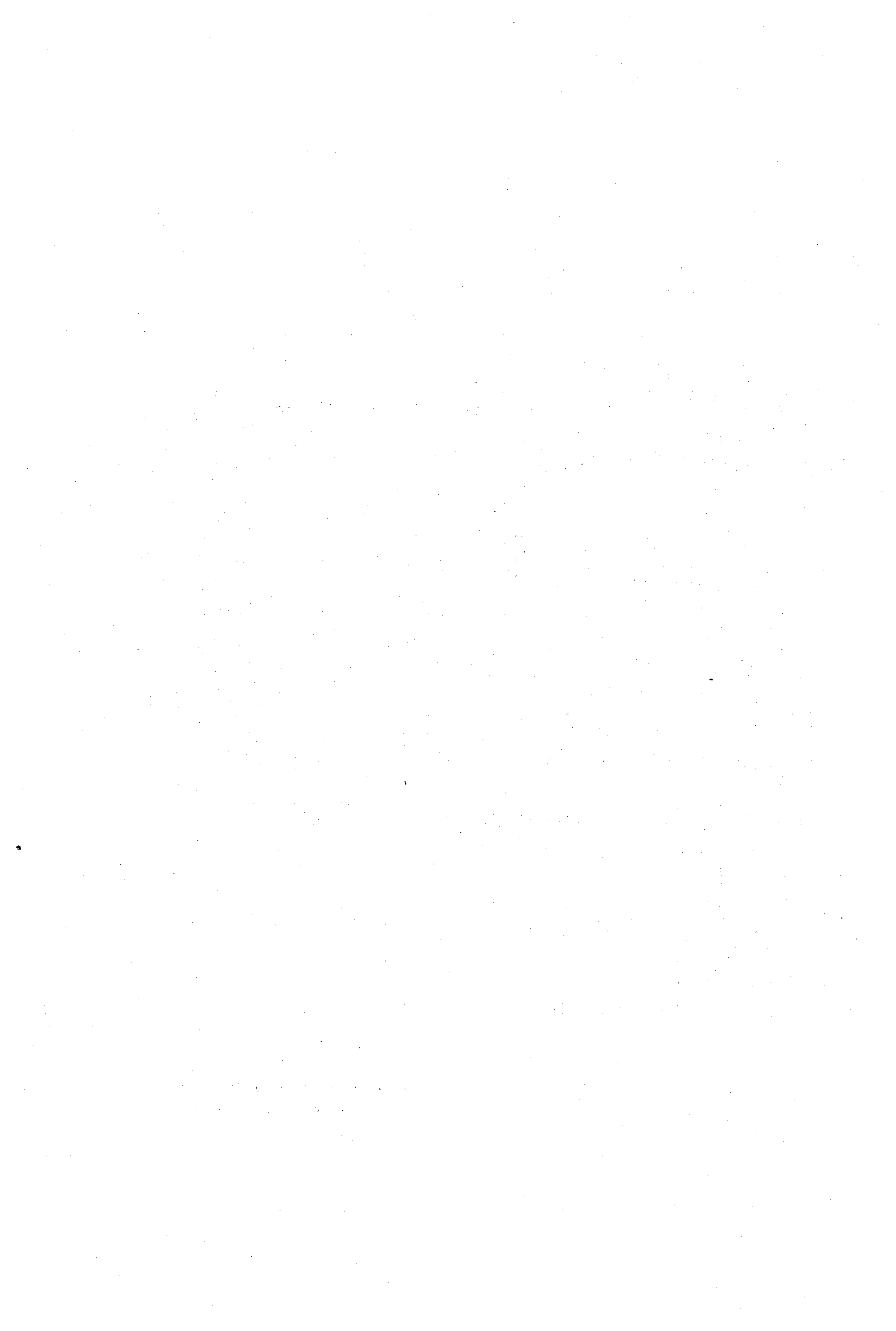
(١) هى مجلة القوات المسلحة الثورية.

وبعد مرور عـدة أيام أضحى هذا الكديش طعاما لنا ولقد تلمظ بعـضنا بلحمه كطعام رفيع ولكنها كانت أزمة حـادة ومحنة خانقة لبطون الفلاحين الذين ترسخ فى مكنوناتهم شعـور بالرعب لأنهم على حد ظنهم يرتكبـون جريمة أكل لحوم البـشر فيما هم يتلوكون بأفواههم صديق الإنسان القديم.

* * * *

الفصل السابع
لقاء صحفى شهير ومثير

«كان فيدل فى تلك الأثناء يتطلع إلى الحصول على راديو وطلب واحدا من أحد فلاحى المنطقة وجاء به فى الحال، وكان بمقدور هذا المناضل أن يحمل هذا الراديو الضخم فى حقيبته وقد استطعنا من خلال هذا الراديو سماع الأخبار الواردة من هافانا مباشرة».



الفصل السابع
لقاء صحفى شهير ومثير

فى ١٥ أبريل عام ١٩٥٧ عاد جيشنا المتمرس إلى منطقة (ياالماموتشيا) القريبة من «بيك توركينو» «قمة توركينو» وفى تلك الأثناء كان أكفأ رجالنا وأكثرهم قدرة وصلابة فى الجبال هم رفقاؤنا من الفلاحين وكان «جيرموجارسيا» و«سيرو فرياس» يقطعان جبال السيرا ذهابا وإيابا بدوريتهما المكونة من الفلاحين ويعودان بالأخبار ويقومان بالاستطلاع وإحضار المأكولات خاصة أن دوريتهما كانت هى المقدمة الأساسية فى حركة طابورنا، وفى تلك الأيام وجدنا أنفسنا فى منطقة (نهر الجحيم) مرة ثانية، وهذه المنطقة قد شهدت إحدى معاركنا وأقبل الفلاحون يطلعون ويتابعون ما جرى من الأحداث المؤلمة كما أنهم قد أخبرونا باسم الرجل الذى تولى قيادة جنود الحرس الحكومى ليتعقبنا فى الحال كما زودونا بأسماء الرجال الذين سقطوا صرعى.. فضلا عن معلومات كثيرة ومختلفة..

على أية حال قدم لنا هؤلاء الخبراء المتمرسون فى فن إشاعة وبث ونشر الأخبار من الفم إلى الأذن كل التفاصيل عن حياة القطاع.

وكان (فيدل) فى تلك الأثناء يتطلع إلى الحصول على راديو وطلب واحد من أحد فلاحى المنطقة وجاء به فى الحال.. كان بمقدور هذا المناضل أن يحمل هذا الراديو الضخم فى حقيبته وقد استطعنا من خلال محطات هذا الراديو سماع الأخبار الواردة من هافانا مباشرة ولاحظنا أنهم بدءوا يتحدثون بحرية واسعة فى العاصمة هافانا بسبب إعادة الضمانات المزعومة.

وتنكر (جيرمو جارسيا) تنكرا بارعا فى ملابس كابورال فى جيش باتيستا وقد توجه مع اثنين آخرين من جنودنا الذين تنكروا للبحث عن الجاسوس الذى زود

العدو بمعلومات تتعلق بحركتنا، وعادوا به وذلك بضغط من الكولونيل فى صباح اليوم التالى وقد اقتفى الرجل أثرهم عن طيب خاطر دون أن يتسرب الشك إلى صدره بيد أنه أدرك مغبة مصيره حين وقعت عيناه على طلائع جيش المقاتلين.. وبجرأة أو وقاحة شديدة راح يروى لنا التفاصيل الدقيقة التى رواها لجيش العدو عن حركتنا فى حديث طويل أسهب فيه دون توقف أو إبطاء، وأخبرنا أيضا هذا الحقير أنه أبلغ (كاسياس) أنه بمقدوره أن يجهز علينا بكل تأكيد وذلك بأن يصطحب قوات الجيش إلى هنا بعد أن يكون قد فضح موضعنا.. وبعد وقت قليل لفظ هذا الجاسوس أنفاسه الأخيرة على إحدى الروابى ووارت جثته التراب فى إحدى غابات جبال مايسترا.

وفى تلك الفترة الزمنية وصلت رسالة من (سيليا) تخبرنا بقدومها مع اثنين من الصحفيين القادمين من أمريكا الشمالية وذلك لإتمام رغبتهما فى إجراء لقاء صحفى مع (فيدل) فى مسألة الشباب الأمريكى الذين رويت حكايتهم من قبل وبعثت لنا سيليا بعض النقود التى جمعها أنصار الحركة.

وتقرر أن يقوم «لالوساردينياس» بتوصيل الصحفيين الأمريكيين بواسطة طريقة منطقة «أسترداد بالما» التى يعرفها معرفة واسعة حيث كان فيما سبق يعمل فى مجالات التجارة بها.

وفى ذلك الوقت تحركنا لإجراء اتصالات مع الفلاحين الذين سوف يمارسون دور ضباط الارتباط ويحرصون على الحفاظ والحرص على معسكراتنا الدائمة والمستمرة.. لقد أردنا فى الواقع أن نؤسس هناك المراكز الفعلية الحيوية للمنطقة التى نفرض سيطرتنا عليها وقد بدأت فى الاتساع يوما بعد الآخر.

ولذلك تعرفنا على هذه البيوت التى تمثل لنا نقاط إمداد وتموين حيوية لقواتنا لكى نبنى فيها المخازن التى يمكن أن تنقل منها المأكولات وفقاً لحاجات القوات، وكانت

هذه المنازل تمثل أيضا تبديل لـ (سياراتنا) البشرية السريعة التى كانت تجوب السيرا فى كل ناحية وتمضى مسرعة فى كل شبر من الجبل..

وقد برهن هؤلاء الرجال الذين كانوا يقطعون جبل السيرا على قدرتهم الفذة فى قطع مسافات كبيرة فى زمن قياسى الأمر الذى جعلنا نحن أبناء المدن نقف دائما من معلوماتهم موقف التشكك.

بيد أن تلك المعلومات كانت تظهر سليمة لدى الفلاحين وبعد ثلاثة أيام مرت على تعيين «لالوساردينياس» تلقينا إشارة تفيد بأن نحو ستة أشخاص فى طريقهم للقمة الجبلية بواسطة قطاع «سانتود ومينجو» وهم يتألفون من اثنين فى أمريكا الشمالية هما الصحفيان ومرافقان نجهل هويتهما إلى جانب سيدتين ولكن البيانات الواردة إلينا تثير القلق حيث زعمت المعلومات أن جنود الحرس أحسوا بوجودهم عن طريق أحد العملاء الخونة وحاصروا البيت الذى يقيمون فيه وتذهب الأخبار وتعود فى طول السيرا وعرضها بسرعة مثيرة للدهشة، ولكنها أيضا نشوة.

وذهب كاميلو فى طليعة مجموعة من الرجال حاملا معه أمرا بإنقاذ الأمريكيين الصحفيين «وسيليا سانتشس» التى كنا نعرف أنها أحد الأشخاص الستة وقد وصل الجميع رغم ذلك فى صحة وسلام حيث كانت الإشارة الخاطئة التى تلقيناها تفيد بأن هناك حركة قام بها جنود حراسة الحكومة عقب صدور بعض الوشايات التى كانت شائعة فى ذلك الوقت ورائجة بين الفلاحين.

وفى ٢٢ أبريل جاءنا الصحفى «بوب تابر» وبصحبته مصور سينمائى وكانت معهما رفيقتان «سيليا سانتشس» و(هايدة سانتا ماريا) ومبعوثا حركة السهل (ماركوس) أوينكارجوا وهو القومندان إيجلبياس» وهو مسئول (لاس فيلاس) وكان حينئذ مكلفا بمهام خاصة فى منطقة «سانتياجو» و«مارسيلو فرنانديس» منسق الحركة وقد حضر على اعتبار أنه مترجم للغة الإنجليزية وهو اليوم يشغل منصب نائب

رئيس البنك الوطنى ومضت الأمور بشكل بروتوكولى فى حين كنا نهدف إلى عرض قواتنا مع الحرص على تجنب كل سؤال لا نعرف ماهيته حيث كنا نجهل حقيقة هؤلاء الصحفيين وقد سمحنا لهم فى الالتقاء مع الأمريكيين الثلاثة الذين أدلوا بإجابات جيدة على جميع الأسئلة التى وجهها الصحفيون إليهم.

ولقد أفرزت الحياة الجافة والخشنة التى عاشوها معنا إلى خلق حالة نفسية جديدة ومغايرة عند الصحفيين.

وفى هذه المرحلة انخرط فى صفوفنا أحد أهم الوجوه وأكثرها مباركة وتأييدا لحركتنا النضالية ذلك هو «راعى الأبقار الصغير» ولقد جاءنا بصحبة رفيقة له فى يوم من الأيام الساطعة وكان بصدد البحث عنا منذ شهر بالتمام والكمال «إنه من منطقة «كاماجواى» ومن «مورون» على وجه التحديد..

وكما هو متبع فقد أمطروه بوابل من التساؤلات وزوده بحزمة من مبادىء التوجيه والإرشاد والتثقيف السياسى وقد توليت بدورى الإشراف على تلك المهمة طوال الوقت ولم تكن لدى (راعى الأبقار الصغير) أية فكرة سياسية وكان يظهر لنا كأنه طفل يتسم بالبهجة والمرح وموفور الصحة وأنه يعيش مغامرة رائعة ومثيرة.

لقد وصل إلينا وهو حافى القدمين فمنحته سيليا «حذاء جلديا» من صنع المكسيك وكان من الصعب أن يتكيف قدمه مع أى حذاء خاصة أنه كان صغير القدمين، ومع الحذاء الجديد وقبعة الفلاح الكبيرة أصبحت له فعلا هيئة راعى أبقار مكسيكى ومن ثم أطلق عليه لقب راعى الأبقار الصغير.

ولم يتمكن الراعى الصغير من مشاهدة خاتمة الحرب الثورية حيث قد لفظ أنفاسه الأخيرة عشية السيطرة على (سانت كلارا) وهو فى مقدمة انتحارية من الطابور الثامن وأننا الآن نتذكر سعادته البالغة بالحياة وبهجته التى لا تتوقف وطريقته الخرافية التى كان يتمسك بها عند مواجهة الأخطار.

لقد كان (الراعى الصغير) يكذب بشكل مثير فما أن يفتح فمه حتى يرسم ألوان أخرى للحقيقة حتى تبدو لمن يسمع غير واضحة المعالم باختصار كان يجمع بين الحقيقة والخيال والصدق والكذب وقد شاء أن يعمل رسولا فى الأيام الأولى وجنديا بعد ذلك ثم رئيس فرقة انتحارية ومبدعا وصاحب أفكار وابتكارات وشجاعة لا مثيل لها لكنه لم يشهد حلاوة النصر الذى حققناه.

وفى يوم من الأيام بعد وقت قصير من انخراط (الراعى الصغير) إلى حركتنا كان أن طرح البعض علينا عدة أسئلة عقب جلسات القراءة الليلية التى كنا نعقدها فى أثناء الطابور وراح الراعى الصغير يروى لنا قصة حياته ودون اهتمام انغمست فى إجراء بعض الحسابات مستخدما ورقة وقلم وعندما فرغ بعد أن ألقى العديد من النكات اللاذعة والقاسية والخارجة سئل كم هو يبلغ من العمر؟ ولم يكن قد بلغ العشرين ربيعا ولكن إذا أمكننا أن نجمع ما رواه من حكايات وأحداث مضت فيجب أن نعترف أنه بدأ يعمل أعمال شاقة منذ كان عمره لا يتجاوز خمس سنوات.

وأخبرنا الرفيق «تنكاراجوا» أن هناك شحنة من الأسلحة فى منطقة (سانتياجو) هى بقايا الهجوم على قصر الرئاسة وهى كما صرح لنا مكونة من عشرة رشاشات و١١ بندقية من نوع جونسون و٦ جدارات وكان هناك فى الواقع أكثر من ذلك لكن الرفقاء كانوا يعتزمون تأسيس جبهة أخرى فى منطقة مركز السكر فى ميراندا. . وقد رفض (فيدل كاسترو) هذا المشروع ولم يوافق على تخصيص إلا جزء بسيط من الأسلحة لهذه الجبهة الثانية فيما أعطى الأمر باستقدام كل ما يمكن استقدامه من المؤن والإمدادات إلى حركتنا.

وواصلنا السير لنتجنب مجموعة مثيرة للاضطراب من جنود الحرس الحكومى الذين يجوبون المكان ولكن كنا قد قررنا فى السابق أن نصعد إلى قمة (توركينو)

وكان صعودنا إلى أعلى قمة من قمم جبالنا يتضمن عنصرا يشبه التصوف فضلا عن أنه قد مر علينا وقت غير قصير كنا نترجل فيه على طول وعرض قمة جبل (المايسترا) القريبة جدا من ذروكها.

وصعد الجميع «توركينو» وفى أعلى هذه القمة انتهت المقابلة مع بوب تابر وقد عاد منها غانما بفيلم وثائقى أذيع عبر شاشات تلفزيون الولايات المتحدة الأمريكية فى ذلك الوقت الذى كان الأمريكيون لا يشعرون بالخوف من حركتنا.

ووقع هنا حادث خطير حيث شاركنا فلاح أكد لنا أن كاسياس عرض عليه حوالى ٣٠٠ دولار وبقرة حلوبا إن تمكن من التخلص من فيدل ولم يكن هناك بالطبع غير الأمريكيين الذين أظهروا دهشتهم لثمن (فيدل كاسترو) القائد الأعلى لحركتنا.

واعتمادا على جهاز بحوزتنا خاص بقياس الارتفاع كانت أعلى نقطة فى قمة الجبل تشير إلى رقم ١٨٥٠ مترا فوق سطح البحر وهذا الرقم يختلف عن الأرقام الرسمية وجهازنا للعلم يعمل بكفاءة ودقة متناهية.

وبما أن إحدى فصائل جيش باتيستا كانت تتعقب آثارنا فقد بعث جيرمو مع عدد من الرفقاء لإرهاق هذه الفصيلة.

ولأننى كنت أعانى من نوبات الربو الشديدة فقد اضطررت أن أمشى فى نهاية الطابور حيث لم أكن قادرا على بذل أى جهد استثنائى وحيث إننى لم أكن أستطيع إطلاق النار فقد تركت لهم الرشاش الذى كان بحوزتى وهو من طراز تومبسون ولم يعيدوه لى إلا بعد مرور ثلاثة أيام وهى من أصعب الأيام التى قضيتها فى جبال (السيرا) حيث كنت أجدنى أعزل من السلاح فى وقت كان يمكن أن نواجه فيه العدو وجها لوجه.

وفى هذه المرحلة من شهر مايو ١٩٥٧ غادرنا الشـابان الأمريكيان مع الصحافى (بوب تابر) الذى أنهى حواره الصـحفى وعادوا سالمين غانمين إلـى (جوانتنامو)[١] وأنشأنا شـبكة اتصالات واستكشـفنا مناطق جديدة حاملين شـعلة الثورة وأسطورة الجيش الملتـحمة إلى قطاعـات أخرى من السيـرا وانتشرت فى الجـبل روح جديدة فكان الفلاحون يأتون إلينا لإلقـاء التحية علينا فى خوف ومن جـانبنا لم نعد نخشى من وجودهم لأن قـوتنا الصغيـرة تضاعف عددها وأحسـسنا بأننا قد صرنا أكـفأ وأقوى وأكثر استعدادا وتحسبا لوقوع أية مفاجأة قد نواجهها من جيش باتيستا فضلا عن أننا كنا أكثر ثقة بفلاحينا واطمئنانا إليهم.

* * * *

(١) هى القاعدة البحرية الأمريكية فى كوبا فى مقاطعة أوريانتى.

١٥ يوما سيرا على الأقدام

بدأنا السير منذ اليـوم الأول لشهر مايو وحتى الخامس عـشر منه دون أن نتوقف وذلك من أجل بلوغ هدفنا ثكنة «الأوفـيرو» التى تتبع جـيش باتيسـتا وفى أول أيام الشهـر كنا جمـيعا عند مـرتفع قمة المايـسترا القـريب من (بيك توركينو) واجـتزنا قطاعات كانت بعد ذلك مسرحاً لأحداث عديدة أثناء الحرب الثورية.

واجتزنا أيضا «سانتا آنا وبـ «الأومبريتو» وبعد البيكو فردى» (القمة الخضراء) بلغنا منزل «أسكو ديرو» فى المايسترا ثم مضينا فى طريق السير إلى رابية الحمار.

وقد قمنـا فى هذه المرحلة نحو جهة الشـرق لكى نتسلم أسلحة قيل إنـها كانت سوف تأتى من (سانتياجو) وتودع بالقرب من رابيـة الحمار قريبا من (أوردى جيسا) وفى إحدى الليـالى التى مرت بنا فى خلال تلك الفتـرة انتحيت جانبـا لكى أقضى حـاجـتى ثم أخطأت وضللت الطـريق وبعـد ثلاثة أيام نجـحت فى الوصـول إلى المجمـوعة فى مكان يسمى «الأومبـريتو» وقد استـطعت أن ألاحظ أننا نحمل على كاهلنا كل المواد الضرورية الكافيـة لحياتنا كالملح والزيت وهما مادتان مهـمتان للغاية وكالطعام المحـفوظ فى العلب ومن بينها علب الحليب وكل ما يلزم لإشـعال النيران والنوم والطهى وحـين أدركت أنى ضللت الطريق فى الليلة المشـئومـة أحضـرت البوصلة واسـترشدت بها فـسرت يوما ونصف يوم لكى أكـتشف فى النتيـجة أننى مازلت أسيـر الضلال فاقتربت سـاعتها من أحـد الأكواخ وهناك وصفوا لى كيـفية الوصول إلى طريق المعسكر الثائر. . . وعلـى إثر ذلك تبين لى أن البوصلة إن كانت فى المناطق المتوترة مثل «سيـرا ماسيترا» يمكن عند الحاجة تحـديد الهدف حيث أنها أخفقت فى الإشارة إلى طريق معين على وجه الدقة.

إن الطريق الذى ينبغى اتباعه يعتمد على المعرفة الدقيقة بالأرض كما حصل فيما بعد حينما جاء دورى بالضبط كى أقوم بعمليات فى قطاع «الأومبريتو».

وكان اللقاء مع الكابور شديد الإثارة بالفعل فبأى حفاوة استقبلنى بها الرفقاء.

فى تلك الأثناء التى وصلت فيها كانت هناك محاكمة شعبية برئاسة «كاميلو» قد تم انعقادها من أجل محاكمة ثلاثة جواسيس وقد وجد أحدهم نفسه - وكان يسمى «نايولس» - يواجه حكما بالإعدام.

وكان على فى ذلك الوقت أن أقوم بواجبى كطبيب وما كدنا نحط أمتعتنا فى قرية صغيرة حتى بدأت أتأمل أحوال سكانها وكان ذلك أمرا يبعث على الملل والضيق خاصة وأننى لم أكن حاملا أدوية لتوزيعها على هؤلاء البؤساء.

إن كل الحالات المرضية فى السيرا تتشابه مع بعضها البعض إلى حد كبير فعلى سبيل المثال لا الحصر، هناك سيدات سقطت أسنانهن وقد بلغن مرحلة الشيوخ قبل أن يأتى الأوان لذلك، وهناك أيضا أطفال منتفخة بطونهم إلى جانب أمراض جلدية ونمو العظام بشكل غير طبيعى والافتقار إلى الفيتامين بوجه عام - هذه كانت أمراض «سيرا مايسترا» وما تزال منتشرة حتى تلك الساعة وإن كانت بصورة أقل بكثير.

إن أبناء هذه الأسرة يتوجهون الآن إلى المدينة للتعليم خاصة وأن الثورة أنشأت مدينة تعليمية تسمى «كاميلو (سينفو يجوس) وقد أصبحوا الآن شباب يتمتع بالصحة والقوة والحيوية وتشع أعينهم ذكاء وعبقرية على عكس الأيام والسنوات التى مضت وعانى خلالها آباؤهم وأجدادهم من سوء الأحوال الصحية والاجتماعية والتعليمية.

أذكر أنه كانت هناك طفلة صغيرة تراقب الفحوصات التى كنت أجريها على السيدات وكانت هذه الأمهات يتقدمن ناحيتى على استحياء لسؤالى عن أسباب

آلامهن وحينما جاء دور والدة هذه الطفلة بعد فحص عدد غير قليل من النساء قبلها تعمدت أن أعتنى بهذه الأم عناية فائقة داخل الكوخ الذى اتخذته مقرا للعيادة وإذا بهذه الطفلة تهمس فى أذن والدتها بصوت مسموع «أماه إن هذا الطبيب يقول للجميع الشيء نفسه» ولم يكن هناك أصح من تلك العبارة التى رددتها هذه الطفلة الذكية فربما لم أكن على علم عميق ولكن ما لا تعرفه هذه الطفلة أن جميع الفلاحات كن يقدمن اللوحة نفسها عند بدء الفحص السريرى وقد قصصن أمامى الحكاية المؤلمة نفسها دون أن يعلمن..

الواقع أن الشكوى كانت تتلخص فى الشعور العام بالإجهاد والإرهاق بسبب سوء التغذية لديهن جميعا، مع الوقت اختلطت المجموعة الثورية مع جموع الفلاحين وإن كنت لا أذكر كيف ومتى بدأ هذا التجانس والتآلف بين الفريقين رغم ما بينهما من مساحات شاسعة من حيث النشأة والطباع والأهداف والثقافة وإن كنت أنا شخصيا بحكم عملى كطبيب قمت بإجراء فحوصات على جميع أهالى القرية فقد أدى ذلك إلى توثيق الروابط بينى وبينهم ولعل ذلك هو البداية الحقيقية لهذا الامتزاج، وللإنصاف فقد كان لهؤلاء الأوفياء دور هائل وبالغ ومؤثر فى تأسيس ايديولوجيتنا الثورية. فى هذا المكان نال (جيرموجارسيا) رتبة كابتن وأسند إليه بكافة المتطوعين الجدد من الفلاحين وما يدرينى فقد يكون الرفيق (جيرمو) قد نسى هذا التاريخ.. أما أنا فقد دونته فى صفحات مفكرة يومياتى الخاصة ١٦ أبريل ١٩٥٧.

وفى السابع من مايو ذهبت «هايدة سانت ماريا» ومعها توجيهات صارمة من (فيدل) لتدشين اتصالات شديدة الأهمية ولكن فى اليوم التالى أخبرونا أن «ينكاراجوا» - وهو القومندان أيجلياس الذى تولى مهام إحضار الأسلحة قد تم إلقاء القبض عليه وقد أوقعنا ذلك فى مأزق إذ كيف ستصل إلينا شحنة الأسلحة؟

ورغم ذلك قررنا المضى قدما للوصول إلى هدفنا وبلغنا مكانا قريبا للغاية من «بينودل اجوا» وهو منحدر صغير تحفه بعض الأشجار المهجورة فى قلب جيل «سيرا

مايسترا» الجميل وفيه كوخان لا يقيم فيهما أحد على الإطلاق، وبالقرب من طريق رئيسى أوقفت إحدى دوريات حركتنا الثورية عريفاً فى الجيش وكان هذا العريف مشهوراً بجرائمه التى ارتكبها فى حق بعض أبناء الشعب فى ظل «ماتشادو» وبالطبع كنا جميعا نتطلع إلى لحظة إعدامه حتى تهنأ أنفسنا ولكن (فيدل) رفض أن يناله بسوء أو بأذى أو أن يمس شعرة واحدة من رأسه ومن ثم أصبح أسيرا لدينا فقط وأخذنا منه بندقيته وأنذرناه بأن أية محاولة للهرب سوف تكلفه حياته وواصلنا السير حتى نتأكد من وصول شحنة الأسلحة فى المكان الذى حددناه وحتى نفرغ من نقلها فى حال وصولها وكانت مسيرة طويلة للغاية وإن كنا قد شعرنا خلالها أننا نتمتع بخفة ورشاقة خاصة أننا قد تركنا حقائبنا وأمتعتنا فى المعسكر بجوار العريف الأسير ولكن من أسف لم تكن الشحنة قد وصلت وقد أرجعنا ذلك إلى اعتقال (نيكاراجوا) واستطعنا شراء كمية بسيطة للغاية من الأطعمة من أحد الحوانيت وعدنا إلى مركز انطلاقنا بأحمال لم تكن متوقعة وذات طبيعة مغايرة ولكن ينبغى أن نعترف أنه كان حملا عزيزا على نفس كل فرد فينا.

وفى طريق العودة عدنا من نفس الطريق الذى جئنا منه وإن كانت العودة قد تميزت بخطاها الثقيلة البطيئة بجوار (سيرا مايسترا) قد عبرنا كل الأماكن المكشوفة بحذر بالغ لكن على غير المتوقع سمعنا أصوات رصاص تنطلق فى اتجاهنا وهو الأمر الذى أثار مخاوفنا لأن أحد رفقائنا قد أسرع يلهث لكى يخبر من فى المعسكر فى أسرع وقت بقدر المستطاع وقد كان هذا الرفيق يدعى «جيرمو دومنغس» الملازم فى جيشنا وقد وصل مع الإمدادات من (سانيوجو) وأخذنا العدة لملاقاة أى احتمال وانطلقت دورية الاستطلاع..

وبعد مرور وقت فرضته علينا الحكمة عادت الدورية ومعها أحد الرفقاء الذى يدعى «فيابو» والمنضم إلينا حديثا وهو أحد أعضاء مجموعة (كرستنتيو) وقد أقبل

يسعى من معسكرنا الأساسى قائلا إن رفيقا من رفقائنا قد سقط منا قتيلا وإن اشتباكاً وقع مع جنود الحرس وقد انسحب الحرس فى اتجاه (يينودل أجوا) حيث توجد فصيلة أكبر كانت قد تمركزت على مسافة قريبة.. وتقدمنا متخذين كل الاحتياطات وحدث أن عثرنا على جثة قتيل وقد أوكلونى بمهمة كشف هوية صاحبها.

واتضح لى أن صاحب الجثة هو «جيرمو دومنجس» وكان صدره عاريا من أثر الرصاص الذى اخترقه إلى جانب طعنة حربة فى منطقة فكه الأيسر الأعلى وكان رأسه مهروسا على ما أظن من جراء طلق نارى انطلق من بندقيته.

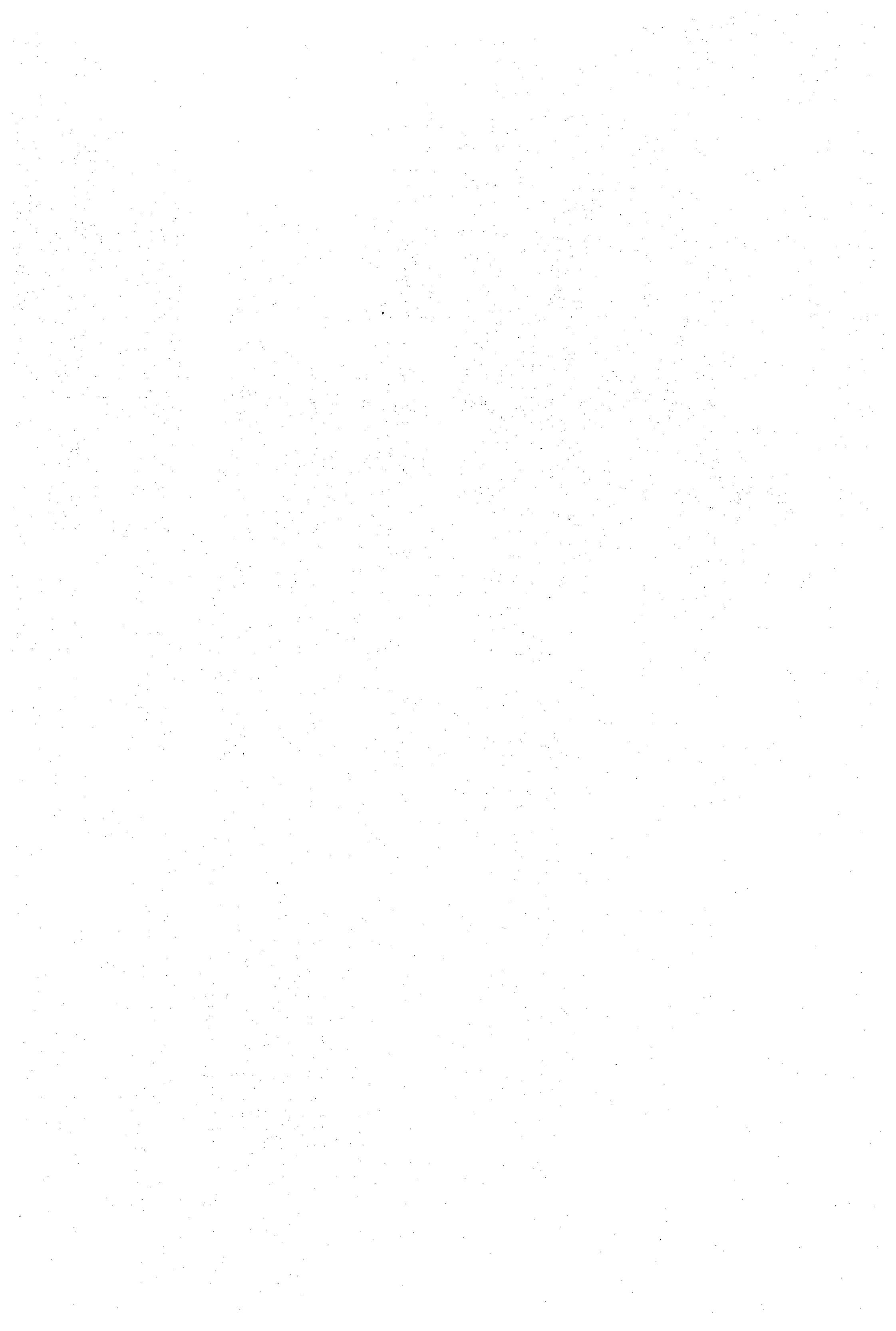
وبتحليل غير تقليدى لكافة الأدلة التى توافرت لدينا تبين لنا أهمية سرعة بناء ما حدث حيث أن جنود العدو كانوا يتجولون بحثا عن زميلهم العريف الذى وقع أسيرا وقد تناهى لسمعهم صوت (دومنجس) .

وكان قد سبقنا ماشيا غير حذر ظنا منه أنه يمشى فى المكان ذاته الذى مشينا فيه الليلة الماضية ومن ثم وقع أسيرا ولكن فرقة من رجال «كرستنتيو» جاءوا فى اتجاه مغاير تماما بهدف إجراء اتصال معنا (كل هذا جرى على قمة مرتفعات المايسترا» وحين فاجأوا جنود الحرس من الوراء فأطلقوا النار مما اضطر هؤلاء للانسحاب وقبل أن يهرب قتلوا رفيقنا «دومنجس».

(والبينودل أجوا) هى منشرة فى أعلى الجبل، والطريقة التى سلكها جنود الحرس طريق قديم تستخدم فى نقل الخشب بالطنابر وكان علينا أن نعبرها بعد أن مشينا فيها نحو مائة مترا لكى نعود إلى ممرنا الضيق خلال الغابات التى تجاور خط الانقسام المائى، ولم يتخذ رفيقنا الاحتياطات الواجب اتخاذها فى مثل هذا الظرف فوجد نفسه لسوء الطالع وجها لوجه مع جنود الحرس ولقد استوعبنا درسا قاسيا من جراء قتله.

الفصل الثامن
ووصلت شحنة الأسلحة

«ووصلت شحنة الأسلحة ليلا.. وكان وصولها فى تقديرى يمثل أجمل وأروع مشهد فى حياتى وقد بدت الأسلحة الفتاكة كأنها فى معرض من معارض الأزياء الحديثة اللامعة البراقة أو هكذا رأيتها أو تخيلتها».



الفصل الثامن
ووصلت شحنة الأسلحة

فى إحدى مناطق (السـيرا مايسـترا) القريبة من منشرة «بينودل أجـوا) قمنا بذبح الحصان الضخـم الذى كان ملكا للعريف الأسير فلم يكن هذا الحيـوان يفيدنا فى الواقع للتقدم فى أمـاكن مليئة بالأشواك تماما كالتى نعبـرها. . ومن جانب آخر كنا فى أشـد ما تكون لمأكـولات ومما يبعث علـى الضحك أن الرجل لم يتـوقف عن توصيـتنا بالحصـان الذى كان قـد استعـاره من أحد أصـدقائه وزودنا ببـيانات هذا الصديق كى نرده له فى الوقت المناسب وفى تلك الأثناء كـان يتذوق الطعام ويتناول الحساء المطبـوخ بلحم الحصان. . وطبيـعى أن يكون للحم قيمة كـبرى تعد من أبرز سمات الرخاء والرفاهية لدينا منذ أن وطأت أقدامنا جبل «سيرا مايسترا».

فى ذلك النهار سمعنا عـبر أثير الإذاعة أن حكما قد صـدر للتو ضد رفاقنا فى (الجرانما) وأنه وجد من جهة ثانية قاض، قاض واحـد كان يتمتع بالشجاعة والجسارة معلنا اعـتراضه ورفضـه لهذا الحكم وكان هذا القـاضى هو «أوروتيا» وهذا الموقف الرائع الشريف هو الذى دفعنا لدعـوته إلى رئاسة الجمهورية المؤقتـة لأن اتخاذ مثل هذا الموقف كان يبرهن على شجاعة نادرة ومن ثم وجب علينا تكريم الرجل ولكن هذا دعانا لتنصيب رئيس سيئ عاجز عن إدراك واستيـعاب التطورات السياسية كما أنه لا يستطيع إدراك المعانى العميقة للثورة التى لم تكن عقلية الرجعية على منوالها.

ولقـد سبب مـزاجـه واستنكافـه عن تحـمل العبء الذى كان عـليه أن يحـمله اصطدامات هائلة حـتى اقترب يوم الاحتفـال بالسادس والعشرين من يوليـو فانتهى إلى تقديـم الاستقـالة من منصبـه بوصفـه رئيس الجمـهورية بيد أن الـشعب أبدى امتعاضه من الاستقالة ورفض قبولها بالإجماع.

وبعد مرور فترة قصيرة من الوقت جرى اتصال معنا فى (سانتيا جو) وكان القادم يسمى «أندريس» ويعلم من أحد المصادر العليـا العليمة أن الأسلحة فى مكان آمن وأنها سوف يتم نقلها فى الأيام القليلة القادمة . .

وقمنا بتعيين مكان اللقاء المرتقب بالقرب من الشـاطئ فى ساحة خاصة بتجميع الأخشاب يستغلها الإخوان «بابون» وقد نجحنا فى توريد أسلحة متنوعة بفضل تعاون هؤلاء الذين تصوروا أنهم بذلك يؤدون خدمات جليلة للثورة.

ومن المنطقى مـلاحظة كيف كانت مـجموعـة كاملة من الناس تتطلـع لتوظيف الثورة لمصالحهـا الخاصة وتقدم الخدمات الصغيرة والـبسيطة من أجل مطالبة السلطة الجديدة فـيما بعد بمزايا ومكاسب وامـتيازات مـختلفة، وفى هذا النموذج كـان ما طالب به أفراد آل (بابون) امتـيازا يجعلهم ينفردون دون غيرهم بقطع أشـجار جميع الغابات دون هوادة مع طرد جميع الفلاحين لتوسيع ممتلكاتهم.

فى أثناء تلك الفترة الزمنية لحق بنا صحفى أمريكى من عينة آل (بابون) وكان من أصول هنجـارية ويسمى «أندروزسانت جـورج» وعند وصوله كشف وجهـا واحدا فقط من بين وجوهه المتعددة أقصد الوجه الأقل قسوة وجه الصحفى الأمريكى.

لقد كان هذا الصحفى الأمريكى يعمل لدى مكتب التحريات الاتحادى الأمريكى (F - B - I) ولأننى كنت الوحيد الذى يتحدث الفرنسية فى المجموعة (لم يكن أحد فى تلك الأثناء يتـحدث الإنجليزية) فـقد كـان واجبى أن أعتنى بـه ولزاما علىّ أن أعترف بفشلى فى كشف النقاب عن حقيقة شخصيته الشريرة فى المقابلة الأولى وإن كان وجهـه القبيح قد افتضح أمـره فيما بعد من مـقابلات. . وبمجرد أن نزع قناع الصحفى حتى بدت لنا شخـصيته الحقيقية أعنى العمـيل السرى بكل حلاوته ومشينا على جانب «البينوا» لكى نصل إلى منابع نهر «بيلاديرو».

وواصلنا السير فى أرض مرتفعة جدا وعلى ظهورنا أحمال ثقال وعلى هذا النهر اتجهنا رأسا إلى أحد روافده هو جدول يدعى «أنديو» واحتشدنا فى الجوار يومين أو ثلاثة وحصلنا على بعض المأكولات وتولينا عملية نقل الأسلحة التى تلقيناها. . وفى القرى الصغيرة من القطاع الذى عبرناه أسسنا قاعدة من قواعد السلطة الثورية غير الشرعية وراح عدد من أنصارنا يطلعوننا على كافة الأشياء بما فى ذلك خطط تحركات العدو. . كنا فى ذلك الوقت نقضى أيامنا فى أحراش الجبال وأثناء الليل كنا نعثر على حزمة من البيوت العشوائية وكان بعضنا يستفيد من ذلك ليتمدد بين أربعة جدران ولكن أغلب الفرقة كانت تتولى حماية البرية.

على أية حال كنا أثناء ساعات النهار نشعر بالأمان خاصة حين تبتهج الدنيا فى عيوننا بأوراق الشجر التى تفتحت على فروع الأشجار الاستوائية التى بشرت بقدوم فصل الربيع. .

فى ذلك الوقت كنا نصاب بالرعب من حشرة حقيرة تسمى «الماكواجيرا» وقد أطلق هذا الاسم عليها لأنها تولد على فرع من فروع شجرة «الماكاجوا» ثم سرعان ما تعود إليها مرة أخرى لتضع عليها بيضها. . . وهذه الحشرة اللعينة تتكاثر فى بعض أيام العام تكاثراً كثيفا فى الغابات وهى تسبب ألما شديدا للجلد البشرى المكشوف ومن ثم كنا لا نتوقف عن حك وهرش جلودنا طوال وجود هذه الحشرة خاصة وأن أجسامنا التى اتسخت من العرق والتراب والرمال والعمل الشاق وفقدان الاستحمام أصبحت أكثر ضعفا أمام أية لدغة من لدغات تلك الحشرة وعلى إثرها تتحول جلودنا إلى بقع حمراء اللون حتى بدت أجسامنا المكشوفة مختومة بختم هذه الحشرة كبرهان على أنها قد ترددت علينا.

وفى الثانى عشر من مايو - وصلتنا أخبار عن شحنة الأسلحة وقد راجت الأنباء فى قلب المعسكر الذى تناثرت فيه الأقاويل والشائعات على الفور حيث كان جميع

الثوار يعلمون باليوم الذى سيحملون فيه أسلحة جديدة متطورة بدلا من تلك الأسلحة المتهالكة التى يحملونها ويرغبون فى التخلص منها ووصلتنا أخبار جديدة تدور حول الفيلم القصير ذلك الذى سجله الصحفى الأمريكى (بوب تاير) جبل (سيرا مايسترا) وقد حقق نجاحا ساحقا على شاشات التلفاز الأمريكى وقد ذكر الجميع هذا الخبر باستثناء (أندروزسانت جورج) وكنا قد شعرنا بالغيظ من عمالته لمكتب التحريات الاتحادى الأمريكى ومن جبنه الصحفى أيضا ولهذا شعرنا بالصدمة المروعة من جراء عدم مشاركته الابتهاج بهذا النبأ ومنذ اليوم التالى غادر منطقة آل (بابون) على متن أحد اليخوت المتجهة إلى (سانتياجو كوبا).

وفى ذلك اليوم نفسه الذى علمنا فيه بمخبأ الأسلحة أكتشفنا أن أحد رجالنا قد هرب وكان بالطبع تصرفا مشينا يدعو للحذر ووجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة حيث كان جميع رجال المعسكر على دراية باقتراب وصول شحنة الأسلحة وأوفدنا فى التو دوريات تقتفى أثره حتى أننا قد علمنا أنه تمكن من ركوب قارب يحمله إلى (سانتياجو) وكان الاستنتاج الطبيعى والمألوف أنه توجه على الفور لإبلاغ سلطات العدو ولكن عاد وتبين بعد ذلك أنه لم يكن متحملا المتاعب والصعوبات والتقلبات التى نواجهها من ساعة لأخرى ولكن على أية حال تطلب الأمر منا اتخاذ اللازم من الاحتياطات الواجبة..

وكان علينا أيضا أن نناضل التمرد الذى يجتاح رجالنا واحداً بعد الآخر إما يأساً وإما ضعفاً وإن كانت المحصلة لم تكن كما نصبو إليها حيث طلب بعض الرجال الحصول على إذن بالعودة إلى ديارهم لأسباب ساذجة وتافهة وإذا رفضنا الإذن بعودتهم سيلجئون للهرب كالعادة ويجب ألا ننسى أن عقوبة الهرب هى الموت وهى عقوبة تقع فى نفس المكان الذى يلقى القبض عليه بداخله.

ووصلت شحنة الأسلحة ليلا وكان وصولها فى تقديرى يمثل أجمل وأروع مشهد فى حياتى، وقد بدت الأسلحة الفتاكة كأنها فى معرض من معارض للأزياء الحديثة اللامعة البراقة أو هكذا رأيتها أو تخيلتها».

وكانت عبـارة عن ثلاثة رشاشات ذات قوائم، وثلاث بنـادق رشاشة من طراز مادزن ونحـو تسع بنادق (م. ا) وعشـر بنادق أوتوماتـيكية من طراز جـونسون و٦ آلاف رصاصـة لجمـيع هذه الأسلحـة، ورغم أن البنادق من طراز (م. ا) لم يكن لكل منها أكثر من ٤٥ رصاصة حيث جرت عملية توزيع الرصاصات عملا بالكفاءة التى يتمتع بهـا كل رفيق ومناقبه فضـلا عن الأخذ فى الاعتبار عنصر الأقـدامية، وقد أخذ القـومندان (راميرو فالديس) إحـدى هذه البنادق من طراز (م. ا) وكانت هذه البندقية تبـدو متألقة بين جمـيع البنادق. . وحصل جنود المقدمة التى يتـرأسها «كاميلو» على بندقيتين فيمـا تم تخصيص البنادق الأربع المتبقية من أجل الدفاع عن الرشاشـات. . وحصلت فصـيلة الكابتن (خورخى سوتـوس) على إحدى البنادق الرشاشة وحصلت الفـصيلة الثانية التى يقودها «أليدا» على بندقيـة واحدة أيضا وأما الثـالثة فـقد ذهبت لهـيئة أركـان حرب الحـركة وكنت أنـا المسئـول عن حملهـا واستخدامها.

أما الرشاشات فقد تسلم (راوول) واحداً وتسلم (جيرمو جارسيا) واحداً والثالث تسلمه «كرسـتينتو بيريز» ومن هنا. . من هذه اللحظة فى هذا المكان صـرت مقاتلا دائما مع ضرورة عملى كطبيب للمجـموعة ومن خلال هذا الحدث شعرت بتطور هائل فى حياتى كلها فى جبل (سيرا مايسرا).

لن تفارق ذاكرتى تلك اللحظة الـتى تسلمت فيها سلاحى الرشاش صـحيح أنها كانت بندقية قديمة ورديئة للغاية ولكن وجدت فـيها قيمة لا نظير لها) لقد عينا أربعة رجال من أجل الحفـاظ على هذه البندقية الرشاشة وقد انتـهج هؤلاء الحراس طرقاً مختـلفة فيمـا بعد حيث أعدمت الثـورة اثنين منهم رميا بالرصاص وهـما الأخوان (يويو) (مانولو بـياتون) لقيـامهمـا بقتل القومندان «كـريستـيتنو نارانخو» (كـان أحد الفلاحـين قد ألقى القبض عليهـما وهما يتسلقـان الجبال فى أورنيتـى) أما الحارس

الثالث فقد كان صبياً لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره وكان دوره يتلخص فى حمل علب التلقيم الثقيلة الوزن للبندقية الرشاشة وذلك طوال الوقت وكان هذا الفتى الصغير يدعى «خويل ايجليسياس» وهو الآن يشغل منصب رئيس الثوار الشباب) ويحمل على كتفيه رتبة قومندان فى جيشنا والرابع الآن بدرجة ملازم ويدعى «أونياتى» ولكننا كنا ندلله بلقب «كانتيفلاس»[١] ولم يضع وصول شحنة الأسلحة نهاية لمغامرتنا فقد كان على الفرقة أن تضاعف من حيث القوة العقائدية لدى رجالها وأن يتصاعد حماسها للقتال وبعد بضعة أيام فى ٢٣ مايو أصدر (فيدل) أوامره بتسريح عدد من الرجال بلغ عددهم فصيلة كاملة وهكذا وجدنا أن عدد رجالنا يتراجع إلى حوالى ١٢٧ رجلاً أغلبهم مسلح بل كان منهم ٨٠ رجلاً يحمل سلاحا بالفعل أما الفرقة التى أمر فيدل بتسريحها بقى منها رجل واحد يسمى «كروستيو» هذا الرجل قد طوقه فيدل بعطفه عليه وكان هذا الرجل شاعرا من شعراء الطبيعة وكانت له مناقشات وحوارات لا تنتهى مع شاعر المدينة «كليستو مورالس» من رفقاء الجرانما الذى سمى نفسه «عندليب الجبال».

ولقد أجاد هذا الرفيق نظم أروع القصائد التى روت تاريخ الثورة فى عشريات صاغها وأبدعها وهو غارق فى تدخين الغليون أثناء ساعات الراحة ولأننا كنا فى أشد الحاجة للورق فى جبل السيرا فقد كان يحفظ قصائده عن ظهر قلب كلما نظم واحدة منها.

وفى نفس هذا اليوم الذى وضعت فيه رصاصة لإنهاء حياته خلال معركة «يينودل أجوا» اختفت معه قصائده وأناشيده إلى الأبد كنا فى قلب منطقة المنشرات نعتمد على دعم ومساندة أنريكة لوييس التى لا تقدر وهو رجل يتحلى بالشجاعة

---

(١) شخصية كوميديه فى السينما الأمريكية.

وكان (فيـدل) وراوول يعرفونه منذ سنوات الطفولة وكان أثناء تلك الفـترة يعمل فى خدمة وطاعة (آل بابون) وكان يدعمنا ويسـاندنا فى تأمين الأغذية وفى تنقلاتنا أيضا حيث كان على علم تام بـالمنطقة. . وهذا القطاع تشقه الطرق التى تقطعـها شاحنات الجيش. . وكـثيـرا ما نصبنا شـراكا فى مـحاولة للاسـتيلاء والسـيطرة على بعض السيارات دون أن نتمكـن من تحقيق ما نصبو إليه. . وربما كـان ذلك أفضل لنجاح العملية التى كنا بصدد القيام بها وقـد كانت من أهم وأخطر العمليات على الصعيد المعنوى فى تاريخ الحرب الثورية أقصد «معركة الأوفيرو».

وفى الخامس والعشرين من مايو وردت لدينا معلومات تفيد أن عددا من الجنود يترأسهم (كاليستو سانتـشس) جاءوا من خارج كوبا من ناحية (مايارى) وهبطوا على الشاطئ بواسطة مركب «كورنيتا» وعلمنا بعـد مرور بضعة أيام المصير المفجع الذى واجهـته تلك الحملة. . فقـد كان يريو[1] يرسل رجـاله دائمـا إلى الموت دون أن يصطحبهم ولو مرة واحدة وحين وصلنا خـبر نزول هذه الحملة إلى البر اكتشفنا أن علينا أن نشغل قوات العـدو مهما كلف الأمر على أن تتـمكن الحملة من الوصول إلى مكان أمين يمكن من خلاله إعادة تنظيم نفسها وتبدأ نشاطها مرة أخرى. . وقد قمنا بكل هذا برغبة عارمة فى التضامن والتعاون والتوحد بين المناضلين الثوار رغم أننا لم نكن على دراية بمضمون وهدف هذه الحملة.

كانت هناك عـدة مناقشات قد جـرت بيننا كان ركناها الرئيسـيان فيدل كـاسترو وكاتب هذه المذكرات وكنت من أنصار الرأى الذى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك - أننا لا يمكننا أن نترك مثل تلك الفرص الـرائعة تتسرب من بين أيدينا دون أن نلقى بكل ثقلنا عـلى شاحنـة واحدة ثم عليـنا أن نطارد الشـاحنات على الطرقـات التى تتحرك فى كافة الاتجاهات بكل اطمئنان.

---

(١) يريوسوكاراس: هو زعيم الحزب الأصلى ورئيس جمهورية كوبا فى الفترة من ١٩٤٨/ ١٩٥٢ عام انقلاب باتيستا.

أما (فيدل) فكانت فكرته تتـصل بعملية الاشتباك فى الأوفيـرو وكان يرى أهمية النجـاح فى السـيطرة عـلى مـركـز «الأوفيـرو» الذى سـوف يـكون بالغ الدلالة والمغزى. . فـمثل هذا الاستيـلاء سوف يكون له أثر حاسم وخطيـر وسوف يؤدى بالضرورة إلى إحداث صدمة معنوية حقيقية تمتد آثارها إلى جميع أرجاء البلاد وهو ما لا يتـحقق فى الهجـوم على شاحنة . ففى مـثل هذا الهجوم التـقليدى يمكن للعدو أن يذيع نبأ سقوط شاحنة لانقلابها ومصرع من كانوا على متنها دون الإشارة إلى أى عملية عـسكريه وحتى لو ارتاب الناس فى أمر الحادث فـالواقع أنه لا يتوافر لديهم الدليل المادى الدال على دور حركتنا فى ضرب وملاحقة الشاحنات وأضاف فيدل أننا لا ينبـغى أن نتخلى عن ضرب الشاحنات لكن لا يجوز أيضـا أن نتخذها محوراً ومركزاً لجميع تحركتنا.

والآن بعد أن مـرت سنوات عديدة على هذه المناقـشات التى وضع فـيدل من خلالها النقاط فوق الحروف ينبغى أن أقر وأعـترف أن تقدير (فيدل) كان صائبا وأننى كنت على خطأ حـيث إن هجـومـا منعـزلا على إحـدى الدوريات التى تتـجـول بالشاحنات لم يكن ذا جـدوى لحركتنا الثـورية لأننا كنا فى هذه الأيام نتحرق شـوقا إلى القتال بعـد أن فاض بنا الصبر أو بمعنى أدق سئمنـا منه وربما لأننا لم نكن نتمتع بتلك الرؤية التى تميز بها فيدل عنا جميعا.

على أية حال فقد كنا فى آخر مرحلة من مراحل الاستعداد لمعركة «الأوفيرو».

* * * *

الفصل التاسع
معركة الأوفيرو
عصابتنا نضجت واستوت

«كان الفجر قد اخترق دياجير الظلام ونحن مازلنا نتحدث عن أهوال المعركة وتداعياتها وطار النوم من جفوننا جميعا وكان من بيننا من يقاوم النعاس لكى يستمتع بما لذ وطاب من أشهى الحكايات الرائعة».



الفصل التاسع
معركة الأوفيرو
عصابتنا نضجت واستوت

بما أننا أخذنا نقطة الهجوم فلا يبقى لدينا سوى رسم الخطة التى سوف نتبع تفاصيلها خطوة خطوة. ومن ثم وجب علينا ضرورة الحصول على بيانات ومعلومات تتسم بالأهمية وفى طليعة هذه البيانات التى ينبغى توافرها لدينا هى: على سبيل المثال لا الحصر عدد جنود العدو وكم عدد المراكز التى يتجمعون بها ونوعية التخابر والاستكشاف وقواعده وأدواته فضلا عن كيفية الوصول إليهم وأى الطرق تتصف بالأمان والسلام وماذا عن ظروف وملابسات السكان المدنيين وخريطة توزيعهم وغير ذلك..

وفى الإجابة على كل هذه التساؤلات قدم لنا الرفيق «كالديرو» (الذى أصبح اليوم برتبة قومندان) مساعدة كبرى وثمينة فى هذا الأمر وكانت لدينا قناعة راسخة بأن جيش العدو على يقين بوجودنا فى القطاع ولقد اعتقلنا فى الواقع جاسوسين يحملان وثائق واعترفا الرجلان بأن (كاسياس) أرسلهما للاستعلام عن مكان معسكرنا ونقاط تمركزنا المعتاد وكان مشهد هذين الرجلين يتوسلان طالبين الرحمة يثير الضيق والسخط والرثاء أيضا ولكن من الصعب علينا خلال هذه الساعات العصيبة أن نرخى قبضتنا فى تفعيل قوانين ولوائح الحرب المعمول بها ومن ثم قمنا بتنفيذ حكم الإعدام على الرجلين دون هوادة.

وفى هذا اليوم نفسه الموافق السابع والعشرين من مايو اجتمعت هيئة الأركان العامة بجميع أعضائها وراح (فيدل كاسترو) يعلن أن الثمانى والأربعين ساعة

القادمة سوف تندلع شرارة المعركـة خلالها وأنه يجب علينا أن نتحلى بالحيطة والحذر ونستعـد للمواجهة على قـدم وساق لملاقاة العدو بكامل عتـادنا وخططنا وأسلحتنا وتجهـيزاتنا ولم يقـدم إلينا أية إشارات فى ذلك الوقت. . وأعلن أن كـالديرو سوف يكون هو مرشـدنا حيث إنه يعـرف مركـز «الأوفيرو» بمداخله ومنافـذه ومخـارجه ومسالكه معرفة جيـدة للغاية، وحين أقبل الليل يجر وراءه الظلام الدامس بدأنا فى السير الذى بلغ نـحو ١٦ كيلو مترا ولكن كـان معظمه سيرا فـى مهابط على طرق شيدتها شركـة «بابون» لخدمة أعمال منشآتها ورغم ذلك مضـينا نحو ثمانى ساعات وقد توقفنا مرات عديدة كتدبير احترازى ضربته الضرورة خصوصا عند اقترابنا من المنطقة الخطرة. . وفى آخر الأمر أصدرت أوامر الهجوم وكانت تتسم بالبساطة.

لقد كان علينـا أن نسيطر ونستولى على مـراكز الجنود ويخترق رصاصنـا أبنيتهم الخشبية المخصصة لهم.

وكنا نعلم أن الدفاع عن الثكنة ضـعيف إلى حد ما وكانت المراكز التى يحـتشد فى كل منها ثلاثة أو أربعة جنود فى أماكن إستراتيـجية على حافة الثكنة تمثل النقاط القوية. . وتشرف على البناء رابية تقف فى مواجهتها وهى مكان رائع يمكن لأركان الحرب أن يديروا المعركة من خلاله دون مشـقة أو عناء، وكان يمكن دون أذى كبير الاقتراب إلى عدة أمتار من البناء مرورا فى وسط المنتشر فى البرية القريبة.

وتسلمنا تعليمات حاسمة تدعونا بتـجنب إطلاق النار على القرية الصغيرة مهما كان الأمر مكلفـا حرصا على النساء والأطفال (وكـانت من بينهم زوجة المدير التى تسرب إليهـا نبأ الهجوم بيـد أنها أبت أن تخرج لمغادرة المكان حـتى لا تكون محل شك من قبل قوات العدو) وفـى حين كنا نتوجه للتمركز فى أمـاكن الهجوم. . كنا فى أشد الحرص على ألا نمس شعرة من رؤوس الأهالى».

وكانت ثكنـة «الأوفيرو» تقع على سـاحل البحـر بحيث إنه كان يكفى لـلسيطرة عليها ضربها والانقضاض عليها من ثلاث جهات ومن ثم اتجهنا صوب النقطة التى

رأى جنودها على طريق «بيلاديرو» (وهو طريق جمركى) الفرقـيتين اللتين يقودهما «خورخى سوتوس» و«جيرمو جارسيـا» وأسند إلى ألميدا بتصفية نقطة تقع أمام الجبل فى جهة الشمال. أمـا «فيدل» فقد تمركز على الرابية التى تسـيطر على الثكنة فيما تغلغل «راوول» بفرقته فى الناحية الرئيسـية، وأسندت إلىّ نقطة متوسطة مع بندقيتى الرشاشة والرجال الذين يعنون بها . . وكان على كامـيلو و«أميغيراس» أن يتقدما بين مركـزى ومركز راوول فى الواقع بيـد أنهما انحـرفا فى اتجـاه مغاير بتـأثير الظلام الدامس.

وحينما وقع الاشتباك وجد أنهما إلى يسارى بدلا من أن يكونا إلى يمينى . . أما زمرة (كرستنتيـو) فكانت مهمتها احتلال الطريق الذى يتجـه عند مخرج (الأوفيرو) إلى (تشيـقيريكو) ومنع وصـول أى مساعـدات غذائية أو تـسليحيـة أو خططية إلى الثكنة.

وكنا نظن أن العـملية سوف تتم فى لحـظة خاطفة من الوقت ربمـا لا تذكر نظرا لعنصر المـفاجأة ورغم ذلك مـضت الدقائق وتبـين أن وجود الرجال فـى أماكنهم أصعب مما كان متوقعا وفقا لتقارير المرشد «كالديرو» ومرشد آخر معه من المنطقة هو «أليخيـو مندوسا» وكان النهار قد بدأ يـقترب طلوعه وأشرق هذا الشـعاع الغامض الذى يسبق مـيلاد الفجـر ولم نكن دائما فى مكان يسـاعدنا على إطلاق مفـاجأة للحرس كـما ورد فى أذهاننا فى اللحظة الأولى . . وأخبرنا «خـورخى سوتوس» أنه لا يستطيع من موقعه قهر النقطة التى عهد بها إليه» ولكن لم يبق هناك وقت لإعادة تحريك قواتنا . .

وحينما فتح فيدل النار ببندقيـته ذات المنظار التلسكوبى فاكتشفنا الثكنة على ضوء الطلقات النارية . . بدورنا قمنا بواجبنا فى الحال تقريبـا، وكنت شخصيا متخذا من تل صغير مركزاً لى حيث كنـت أشرف من خلاله إشرافا تاما على الثكنة التى كنت مع ذلك بعيـدا عنها مسافة كـبيرة وتقدمنا للأمـام طمعا فى السيطرة عـلى مراكز أفضل.

وتقدم الجميع. تقدم «ألميدا» صوب النقطة التى تحمى مدخل الثكنة الصغيرة من جانبها - إلى يسارى شاهدت قبعة «كاميلو» تتدلى منها على رقبته قطعة من القماش تشبه قبعة «الفرقة الأجنبية» وإن كانت تحمل رموز (الحركة) ومضينا نتقدم ناحية الأمام رغم إطلاق النار من حولنا.

وانضم إلى الفرقة الصغيرة بعض الجنود الذين فقدوا سبل الوصول إلى وحداتهم فانضم إلى مجموعتنا رفيق يدعى «بومبا» والرفيقان «ماريو ليال» و«أكوينا» وأضحت على الفور وحدة صغيرة من وحدات القتال، وبلغنا المنطقة المسطحة والمجردة التى يستحيل فيها التقدم وإن اتخذنا ألف احتياط حيث إن نيران العدو كانت مستمرة ومتواصلة ولم تتوقف على الدوام.

ومن موقعى على بعد حوالى ٥٠ أو ٦٠ مترا من نقطة العدو المتقدم رأيت جنديين يخرجان معا من خندق محفور أمام النقطة ويجريان بأقصى ما يستطيعون من سرعة فأطلقت عليهما النار بيد أنهما احتميا ببيوت القرية الصغيرة التى كانت محرمة علينا.

وتقدمنا أيضا. . ولم يبق أمامنا إلا قطعة أرض صغيرة قاحلة ليس فيها أية أعشاب يختبأ وراءها. . والرصاص يتساقط من حولنا بشكل عشوائى خطير. . فى تلك اللحظات المثيرة ترامى لأسماعنا أصوات مختلطة بين الأنين والصرخات وظننت فى البدء أنها تنبعث من قلب جندى جريح ينزف دما فتقدمت منه زحفا لكى أجبره على الاستسلام ولكن كان الرجل فى واقع الحال رفيقنا «ليال» وقد شاهدت الدماء تنزف من رأسه، وعلى الفور تفحصت رأسه فحصا دقيقا للغاية وبسرعة فائقة أيضا اكتشفت أن الرصاصة اخترقت عظام الجمجمة من جانب وخرجت من الجانب الآخر ولاحظت أن «ليال» بدأ يفقد وعيه فيما كانت أعضاء جانب من جسده بدأت تصاب بالشلل شيئاً فشيئاً وكان بحوزتى رباطات ورقية

وضعتها على جروحه وراح «خويل إيجليسياس» يتحمل بمفرده مهمة العودة بالرفيق الجريح (ليال) ثم واصلنا نحن هجومنا وبعد قليل سقط الرفيق «أكيوينا» جريحا أيضا ودون أن نتقدم خطوة أخرى بدأنا نطلق النيـران على أحد الخنادق التى أجاد العدو تشيـيدها ومن ثم كان مـن بداخله يحسن تصويب نيـرانه نحونا الأمـر الذى دفعنا لإنهاء وتدمير هذا الخندق الخطير، وكنا نستجمع قوانا ونوحد شجاعتنا لهذا الهدف حتى نسـتطيع السيطرة على الثكنة رغم أننى رويت حكاية المعركـة فى ثلاث دقائق فقط فالمعركة استغرقت فى أرض الميدان نحو ساعتين وحوالى خمس وأربعين دقيقة منذ بدء إطلاق أول رصاصة حتى لحظة سيطرتنا الكاملة على الثكنة.

كان بـجوارى من جهـة اليسـار رفيـقان أو ربما ثلاثة من رجـال المقدمـة ومنهم (فيكتور مـورا) على ما أعتقد يتفـرغون لمحاصرة الجنود الذين رفضوا الاسـتسلام طواعية.. وفى الخندق الذى كان قد غطته جـذوع الشجر وأمامنا خرج أحد الجنود وراح يلقى بسـلاحـه لنا ومن جـميـع الجهـات بدأت تتـعـالى صيـحـات الخنوع والاستسلام وعلى الفور اقتحمنا الثكنة التى صدرت عنها آخر أعيرة نارية وفى أثناء تلك اللحظة حصدت إحدى هذه الرصاصات رفيقنا الملازم (دياس) عدنا إلى القرية الصغيـرة المجاورة بصحبة أربـعة من أسرى العدو وكان بينهم طبـيب شاحب اللون هادئ الطبـاع، لا أدرى هل انضم بعد ذلك إلى الثـورة أم لا؟ وقد تبـادلت مـعه أطراف الحديث حول سنة تخرجـه وهل التحق بالعمل الطبى الميدانى أم لا وأدركت خلال أجـوبته أنه لم يكن قد تفـرغ بعد للعمل الطبى ومن ثم فـهو على وشك أن يفقد ما لديه من حصيلة معلوماتية تتعلق بالطب وأشهد أنه نصحنى بألا أهمل هذا الأمر وإلا سـوف أنسى كل ما درسـته فى كليـة الطب وأتوقع أنه كان صـادقا فى نصيحـته لأننى كنت أشعـر بأننى على وشك ذلك فعلاً لولا بعض مسـاهمتى فى تضميد جراح جنودنا المصابين.

كانت المعركة من أشرس المعارك التى خضناها وأكثرها نزيفا فى الدماء والأرواح والرصاصات التى أمطرنا بها العدو أمطرناه أيضا بغيرها وحجم النيران المتبادلة والجرحى الذين سقطوا والأسرى الذين تقيدوا بسلاسلنا وأغلالنا. . لقد اشتعلت أرض الميدان عقب إطلاق فيدل أمر البدء وبدأت المقاومة العنيفة من كلا الفريقين وكان من العسير الوصول إلى أهدافنا ببساطة وسهولة حيث كان الأمر يستدعى بذل مزيد من الجهد والعرق بعد مرور عدة دقائق سقط «خولينو دياس» بجوار (فيدل) من جراء رصاصة استقرت فى رأسه وحاول رفيقنا (ألميدا) فتح ممرات لكى نخترق الثكنة مهما كلفنا الأمر فيما كانت قوات (راوول) لا تكف عن دك الثكنة برصاصاتها التى انهمرت على العدو دون توقف أو انقطاع.

أذكر أن الرفقاء روى بعضهم لنا كيف أخذ (أليوخيو مندوسا) بندقيته وألقى بنفسه فى آتون المعركة وكان رجلا مثيراً للدهشة حيث يؤمن بالخرافات ويحرص على أن يحمل معه (صورة مقدسة) لحمايته وحينما كان الرفاق يحذرونه من مغبة تصرفاته الطائشة كان يجيب فى إباء وشمم أن قديسه يتولى حمايته من أى سوء وبعد دقيقتين أو ثلاثة سقط صريعا برصاصة اخترقت صدره ومن جانبها أجادت قوات العدو الرد علينا من خلال حصونها القوية ولم يكن فى حسباننا اختراق الثكنة من المنطقة الوسطى وفى قطاع طريق «بيلاديرو» حاول «خورخى سوتوس» أن يدعم الموقف من الجناح مع رقيب يدعى «لوفليك» وقد سقط (لوفليك) برصاص العدو فى الحال، أما سوتوس فقد ألقى بنفسه فى البحر لعله بذلك ينجو من ضربات العدو العنيفة وكانت هذه اللحظة هى آخر مشاركة له فى ميدان المعركة.

وحاول أعضاء آخرون فى فرقته أن يتقدموا للأمام ولكن سرعان ما أرغمتهم النيران على التراجع والانكماش،وفى أثناء هذه المحاولة سقط أحد الرفقاء صريعا وكان من أبناء الفلاحين ويدعى «فيجا» على ما أتذكر أما مانالس فقد اخترقت

رصاصة رئته فى حين أصيب (كويكى أسكالونا) بنحو ثلاثة جروح أحدهما فى ذراعه وثانيهما فى أليته وثالثهما فى يده فيما كان يحاول أن يتقدم للأمام.

وكان عند نقطة العدو الحصينة وراء حطام من الخشب يسترها ويحميها حماية مؤثرة بندقية رشاشة وبنادق نصف أتوماتيكية ومن ثم أرعت خسائر كثيرة فى صفوف رجالنا.

وعلى إثر تلك الخسائر أصدر (ألميدا) أوامره بشن هجوم عنيف على الأعداء وأدى ذلك إلى إصابة «سبيروس ماسيوا» و(هرمس لايفا) و(ينيا) بجروح كما أن ألميدا نفسه قد تعرض لإصابة فى كتفه الأيسر وساقه اليسرى وقتل الرفيق «مول» ورغم هذا كله فقد استطاع هذا الهجوم أن يجعلنا نسيطر على النقطة واختراق طريق جديد للوصول من خلاله إلى الثكنة. . من ناحية أخرى كانت طلقات رشاش «جيرمو جارسيا» الصائبة والفائقة قد أسقطت نحو ثلاثة من المدافعين فيما كان الرابع راح يجرى بسرعة فسقط صريعا أثناء هروبه.

وراح راوول يتقدم جنوده الذين انقسموا إلى قسمين نحو الثكنة وكان أداء الكابتن (جيرمو جارسيا) «وألميدا» هو الذى قرر مستقبل ونهاية المعركة حيث كان الرجلان قد أنجزا المهام الموكولة إليهما على جناح السرعة الأمر الذى أدى إلى تسهيل مهمة الهجوم النهائى، وجدير بالذكر موقف (لويس كرسبو) الذى جاء من رابية هيئة الأركان لينخرط فى صفوف رجال «جيرمو» ويشارك فى الهجوم.

وفى الوقت الذى تكسرت وتهشمت وتبعثرت فيه قوات مقاومة العدو وتأهبنا للسيطرة على الثكنة التى ظهر منها منديل أبيض يرفرف عاليا انطلقت رصاصة من صفوفنا فقوبلت بعاصفة من نيران العدو وعلى إثر ذلك تعرض «نانودياس» لطلق نارى فى رأسه بعد أن حصد ببندقيته أعداداً هائلة من رجال العدو ولم يشترك «كرستنيتو» فى القتال حيث أصيبت بندقيته بعطب واضطر إزاء ذلك إلى القيام برصد طريق «تشيفيريكو» لكى يمسك بالعديد من جنود العدو الفارين من الميدان.

والواقع أنه رغم أن المعركة استمرت نحو ساعتين وخمس وأربعين دقيقة لكنها لم تحصد بشظاياها أى مدنى على الإطلاق امتثالا لأوامر فيدل كاسترو المشددة..

وحين تفرغنا لحصد ثمار المعركة وجدنا أن نحو ستة من الرفقاء قتلوا فى الساحة وهم: مول، وفيجا، ولوفليك، وخوليتو دياس، وأليخيو مندوسا، نانودياس، فيما قد تعرض ليال، وستيبروس لإصابات بالغة الخطورة فضلا عن جرحى آخرين كانت درجات الإصابة لديهم متفاوتة بين البسيطة والحرجة وهم ماسيو الذى تعرض لطلق نارى فى كتفه وهرمس ليفا الذى جرح برصاصة اخترقت جلد صدره وأصيب أليدا فى ساقه وذراعه وكويكى أسكالونا فى ذراعه اليمنى وساقه اليمنى ومانالس فى رئته وكانت إصابته بسيطة فيما تعرض، ينيا لطلق نارى فى ركبته ومانويل أكوينا فى ذراعه اليمنى وأصبح مجموع الرفقاء الذين أصبحوا خارج ساحة القتال ينزفون الدماء حوالى ١٥ رفيقا. أما العدو فقد سقط له ١٤ قتيلا و١٤ أسيرا و١٩ مصابا وهروب ٩ ومن ثم كان مجموع ذلك حوالى ٥٣ رجلا وكانوا تحت قيادة ملازم ثان تولى عملية رفع العلم الأبيض بعد أن سقط جريحا.

وإذا افترضنا أننا كنا حوالى ٨٠ مقاتلاً وأن الأعداء كانوا ٥٣ جنديا فالمجموع ١٣٣ رجلا أصبح منهم خارج المعركة ٣٨ رجلا أى أكثر من الربع تقريبا وقد استمرت المعركة نحو ساعتين ونصف الساعة بل أكثر من ذلك بقليل.. وقد شن هذا الهجوم رجال تقدموا بصورة جلية ضد رجال آخرين يدافعون دون أية إمكانيات وقائية وينبغى أن نعترف أن كلا الجانبين أظهر شجاعة رائعة.. لكن بالنسبة لنا فقد توج هذا الانتصار عصابتنا بأنها استوت ونضجت وترعرعت ورفع معنوياتها عاليا ومن ثم عقدنا العزم بعدها على الانتصار دائما، ورغم أن الأشهر التالية أظهرت لنا تجارب عنيفة فقد أصبحنا نملك سر الانتصار على العدو وقد دقت تلك المعركة ناقوس الخطر لثكنات العدو الصغيرة التى تبعد عن المدن الكبرى ومن ثم سرعان ما أخلى العدو فى فترة زمنية العديد من تلك الثكنات إيثاراً للسلامة.

وقد أبادت إحدى الطلقات جهاز الهاتف الأمر الذى أدى إلى انقطاع الاتصال مع (سانتياجو) ولم تكن طائرة واحدة تحلق إلا وتختفى ولا يظهر لها أثر.

على أية حال بدأت فى رعاية الرفيق (سبيروس) حيث كانت حالته خطيرة إثر اختراق رصاصة لذراعه اليمنى والرئة لتستقر فى الصمود الفقرى وعلى خلفية هذا الاختراق شلت ساقيه معا وكانت حالته تدعو للرثاء وللعطف واليأس معا ولم أستطع أن أصنع شيئا سوى أن أزوده ببعض المسكنات ولف صدره ببعض الأربطة حتى يتمكن من التنفس بشكل طبيعى ولم نكن على استعداد لحمله معنا إلى جانب الجنود الأسرى فكان يجب أن نتركه فى أيدى جنود العدو هو والرفيق ليال لرعايته طبيا وكانت هذه هى المحاولة الوحيدة لإنقاذه وحينما أبلغت (سبيروس) بما ننوى صنعه أكد أنه فقد الأمل فى العودة للحياة مرة أخرى ولم يبال بتركه بين يدى العدو..

كنت راغباً فى أن أطبع على جبينه قبلة الوداع بيد أن مثل هذا التصرف قد يعنى له حكما بالإعدام والفراق الأبدى ومن ثم وجدتنى أستأذن للانصراف لكنهما صرخا معا وقد أعلنا أنهما يرغبان فى الموت بين أيادينا وهو أهون من الموت بين يدى العدو ولكننا رفضنا حرصا على حياتهما لعلهما يتمثلان للشفاء وها هو ما حدث على الأقل بالنسبة للرفيق ليال الذى تعافى وأصبح ضمن عداد الأسرى فيما لفظ سيروس أنفاسه الأخيرة بعد وصول قوات العدو..

بعد أن حملنا على إحدى شاحنات آل «بابون» كميات هائلة وضخمة من الحقائب ولاسيما الأدوية كنا آخر من رحل إلى الجبهة مراكزنا الجبلية وقد بلغناها فى الوقت الملائم للعناية بالجرحى ودفن القتلى الذين وارى جثمانهم التراب فى إحدى منحنيات الطريق..

وتوقعنا أن تكون ردود الأفعال الانتقامية من جهة الحكومة بالغة العنف هذه المرة ردا على معركتنا الظافرة. وكنا قد قررنا أن يبقى الجرحى فى حوزتى على أن

يقف رجالنا الذين خرجوا من المعركة سالمين فى مسافات بعيدة تفصل بينهم وبين الحرس الحكومى، وتلقى (أنريكى لويتبى تكليفا بتدبير وسيلة مناسبة لى للنقل والاختباء كما يدبر لى بعض المساعدات من أجل نقل الجرحى ويؤسس كل الاتصالات التى تسمح بتلقى الأدوية والاهتمام الفائق برفقائنا.

كان الفجر قد اخترق دياجير الظلام ونحن مازلنا نتحدث عن أهوال المعركة وتداعياتها وطار النوم من جفوننا جميعا وكان من بيننا من يقاوم النعاس لكى يستمتع بما لذ وطاب من أشهى الحكايات الرائعة..

ولأننى أتمتع عن غيرى بفضول إحصائى قمت على الفور بتدوين وتسجيل جميع جنود العدو الذين قتلوا على يد رجالنا فإذا بعدد هؤلاء القتلى المزعومين يفوق عدد المقاتلين الأعداء فى الثكنة لقد صاغ كل متحدث أعماله وبطولاته وفقا لأمانيه وأحلامه وخيالاته وتبين لنا بوضوح فى تلك المناسبة وفى مناسبات أخرى مشابهة أن كل عمل ينبغى لكى يتم الاعتراف به أن يقره ويباركه ويؤيده، أكثر من شاهد بل طلبنا أدلة على مصرع كل جندى قبل أن نعتبره بالفعل فى صفوف ضحايا العدو.

والواقع أن الحرص على المعلومات الدقيقة كان دائما أمرا بالغ الأهمية لعصابتنا وكان يجب بكل ثمن الإيحاء إلى الرفقاء بضرورة احترام الحقيقة احتراما بالغا ودفعهم لإدراك أهمية تقديمها على أى اعتبار شخصى.

وفى الصباح شهدنا رحيل قواتنا المنتصرة القاهرة للعدو وقد ودعتنا توديعا مشوبا بالحزن والأسى وظل معى مساعداى «خويل» وأويناتى ورجل يدعى (سبينسيو تورس) (وفيلوا كوينا» الذى حرص على أن يبقى معنا لمداوة ومرافقة عمه المصاب.

* * * *

جيش الجرحى الصغير

فى اليوم التالى من معركة «الأوفيرو» حلقت طائرات العدو منذ ساعات الفجر الأولى فى سماء المنطقة وكنا بعد أن فرغنا من توديع الطابور الذى واصل سيره قد انكببنا على إزالة أى أثر لدخولنا فى أرض المقاومة واحتشد رجالنا على بعد بضع مئات من الأمتار لا أكثر، من بين إحدى الطرق السالكة ننتظر قدوم «أنريكى لوبيتر» الذى كان قد حمل على كاهله تدبير ملجأ لنا ونقل الجرحى إليه.

ومن بين الجرحى كان «ألميدا» و«بينا» غير قادرين على الترجل ولم يكن (كويكى أسكالونا) أكثر حيوية ونشاطا وكان (مانالس) محظورا عليه الترجل بسبب إصابة رئته بجرح بالغ إثر اختراق إحدى الرصاصات وكان (مانويل أكوينا) (وهرمس ليفا) و(ماسيو) بمفردهم يستطيعون الترجل بأدواتهم الخاصة بهم.. ومن أجل الدفاع عن تلك المجموعة الصغيرة من المعاقين كان هناك بجوارى «فيلوا كوينا، وسينبيو تورس» وخويل إيجليسيا (وأليخاندرو أويناتى) وبعد أن أقبلت تباشير الصباح جاء أحدهم يخبرنا أن (أنريكى لوبيز) قد لا يمكنه دعمنا حيث إن أحد أبنائه اجتاحته نوبة مرضية مباغتة فاضطر للذهاب إلى سانتياجو وقد بذل جهده لكى يبعث لنا متطوعين لمساعدتنا ولكننا حتى هذه اللحظة كنا ننتظر وصول هؤلاء المتطوعين الجدد.

وكنا - للإنصاف - فى موقف بالغ السوء إذ أن جراح كويكى أسكالونا) قد بدت تفوح منها رائحة عفنة وكان من المتعذر علينا تقدير درجة خطورة جراح «هانالس» تقديرا دقيقا وكنا نغامر فى الترجل على الطرقات دون أن نقف وجه لوجه مع قوات العدو.. ومن ثم قررنا أن ننقل الجرحى إلى كوخ يقع على بعد ٣ أو ٤ كيلو مترات من المكان وهو كوخ هجره صاحبه ولكن فيه عددا كبيرا من الدجاج.

وفى اليـوم الأول من هذه الأيام قـدم لنا عامـلان من عـمال المنشـرات بعض المساعدات فلم يكن من السهل نقل الجرحى فى أرجوحاتهم. .

وفى الصباح الباكر بعد أن التـهمنا بعض الدجاجات تركنا المكان على الفور وقد تأخرنا كـثيرا عن الطرق الـتى من الممكن أن يجوبها العـدو بحثا عـنا وكنا فى آخر إحدى هذه الطرقات التى شيدتها شركـة (آل بابون) لاستثمار الغابات وأرسلنا بعض رجالنا الأشـداء الأكفاء حملة تتـسم بالخطورة والصعوبة وهى تتطلب منهم الهـبوط على شاطئ الجـدول الصغـير، (دل أنديو) ثم يصعـدوا بعدها فى ممر ضـيق حتى يبلغوا كوخا مـغطى بورق الشجر إذ يقيم فلاح اسمه «إسـرائيل» مع زوجته وعديله ولقد كان الأمر بالغ الصـعوبة بالفعل حيث إن عملية نقل رفـقائنا الجرحى فى قطاع منحدر كهذا القطاع وكلنا نجحنا فى ذلك أخيرا.

وقدم لنا الفلاحون حـتى أسرتهم الزوجية لكى ينام عليها الجـرحى وخبأنا حيث أقمنا مخيمنا الأول عدداً من الأسلحة التى أضحت فى حالة شديدة السوء ومن ثم عجزنا عن أن نحملها معنا كما أننا تركنا العديد من الأغراض والأدوات من الغنائم فى عرض الطريق كلما شعرنا بثقل وزن الجرحى.

كنا فى تلك الأثناء نتصف بالغباء حيث إن هذه الأشياء التى تركناها على الطريق ترشد العـدو لطريقنا ومركـزنا ومن ثم بعد أن فطنت لهـذه الجريمـة الغبيـة عدت أدراجى برفقة بعض الرجال لتحـرى الطريق والتخلص من الأشياء التى من الممكن أن تتحول إلى مخبر أو مرشد يقود العدو لطريقنا وذلك إيثارا للسلامة وحرصا على أرواحنا بعد قليل أنذرنا أكـوينا (وخويل إيجليسياس) بأنهـما قد سمعا أصـواتا غير معروفـة صادرة من الجهة الأخرى وظننا أن السـاعة قد أوشكت للقتـال دفاعا عن أنفسنا حتى الرمق الأخير، كـما يفرض علينا الواجب. عن الجرحى الأعزاء الذين تحملنا مسئـولية سلامتهم أو مضينا فى طريقنا كى يقع الاشتـباك أبعد ما يكون عن

الكوخ، وفى الممر شاهدنا آثار أقدام حافية (وكان هذا مثيرا للغرابة) تدل على أن أصحابها قد اجتازوا الطريق من هناك واقتربنا ونحن على حذرنا الشديد ونجحنا فى التنصت على حوار يدور حول الموضة وأعددت بندقيتى وتقدمت نحو الذين يتحاورون معتمدا على تغطية (فيلو) و«خويل» فإذا بهم أسرى الأوفيرو الذين أطلق فيدل سراحهم وكانوا على إثر ذلك يدورون فى حلقة مفرغة فى محاولة للخروج من القطاع دون أن يتمكنوا من ذلك، كان بعضهم يترجل حافى القدمين وأعرب (عريف) مسن بصوت متحشرج بفعل الربو عن امتنانه وإعجابه بأدائنا وبمعرفتنا الدقيقة للبرية.

كان هؤلاء الأسرى يسيرون بغير هدى وكل ما كان فى حوزتهم كان تصريح مرور موقع بتوقيع (فيدل كاسترو) وانتهزنا الفرصة التى أتاحها لنا الموقف ونصحناهم ألا يتوغلوا أكثر من ذلك حتى لا يضلوا الطريق وكنا نعرف أنهم لا يتحملون صعاب الجبال بوصفهم من أبناء المدن ومن ثم أرشدناهم إلى الطريق لكى يصلوا إلى الشاطئ دون أن نغفل عن أن نكشف لهم للمرة الثانية أننا من البرية البعيدة ورغم ذلك نشعر كأننا هنا فى أرضنا وبيتنا (وأن دوريتنا) مكلفة بإبلاغ قواتنا حال العثور على أى غريب وبعد أن أبلغناهم بذلك رأينا من الأهمية بمكان أن نغادر المكان على جناح السرعة دون إبطاء.

قضينا تلك الليلة فى الكوخ المضيف ولكن حين تسللت خيوط الفجر عدنا مرة أخرى إلى البرية راجين أصحاب البيت أن يذهبوا ويأتون ببعض الدجاجات للجرحى، وقضينا أغلب النهار ننتظر عودة الزوجين دون نتيجة ولهذا علمنا أنهما اختفيا فى حظيرة الدجاج ،وأن جنود الأعداء - فضلا عن ذلك - فى اليوم التالى لذهابنا قاموا بالقبض عليهما بوصفهما مرشدين بعد أن اجتازوا المكان الذى كنا نقيم فيه مخيمنا فى الليلة السابقة.

وبلغنا فى ذروة اليقظة انتظارا لما هو آت وبدا لنا أن حدوث هجوم مفاجئ أمر مستحيل، لكن عند وقوع مثل هذا الهجوم فنتيجة المعركة التى ستندلع فى مثل تلك الأحوال لم تكن تحتمل الشك وعند الغسق عاد (سينيسيو) يصطحبه ثلاثة متطوعين منهم: كهل يدعى فيلسيانو وآخران انضما فيما بعد إلى صفوف الجيش الثائر، أحدهما «بانديراس» (وقد قتل وهو على درجة ملازم فى معركة نيجوى) والثانى كان يدعى «إسرائيل ياردر» (وهو الابن الأكبر لعائلة كبيرة من المقاتلين وهو الآن بدرجة كابتن» وقد ساعدنا هؤلاء الرفقاء فى عمليات نقل الجرحى إلى أحد الأكواخ الذى يقع إلى الجانب الآخر من المنطقة الخطيرة ثم بقينا أنا وسينيسو حتى مجئ الظلام ننتظر وصول الزوجين مع الأطعمة ولم يكن بمقدورهما العودة إلينا لأنهما كانا قد أصبحا فى عداد الأسرى).

وخوفا من حدوث خيانة جديدة قررنا على الفور إخلاء المكان فى الغد الباكر.. وتناولنا عشاء خفيفا كنا قد صنعناه من بعض المؤن التى عثرنا عليها فى جوار الكوخ.. وفى اليوم التالى وهو بداية الشهر السادس بعد أن نزلنا على الشاطئ من (الجرانما) مضينا نترجل بعد أن أشرقت الشمس وكان السير شاقا وقصيرا للغاية بالنسبة لمن اعتاد على اجتياز مسافات فى الجبل.. وفى الجبل التقدم يصيب بالإرهاق الشديد فضلا عن مسئولية حمل الجرحى فى أرجوحة مربوطة بأحد الأغصان وهو يحز أكتاف الذين حملوا وقد كانوا جميعا لا يقدرون على السير أكثر من عشر دقائق.

ورافقنا الميدا الذى كان تارة يتمهل وتارة يتوكأ على ذراع أحدنا ومن ثم تجاوزنا عدة كيلو مترات ثم سرعان ما شق لنا «إسرائيل» طريقا فى الغابة وأقبل الحمالون يهتمون برفيقنا.

بعد ذلك أمطرت علينا السماء الأمر الذى حال دون وصولنا إلى منزل (آل ياردو) وإن كنا قد وصلنا إليه عقب توقف المطر وكان ذلك عندما بدأ الظلام يجتاح

الوجود صحيح أننا قطعنا نحو اثنتى عشرة ساعة كاملة من أجل أربعة كيلو مترات فقط لكننا وصلنا فى نهاية المطاف.

وخلال هذه المرحلة كان (سينيسيو) مبعوث العناية الإلهية لإنقاذنا إذ كان يعرف الناس والطريق، وقد أسدى لنا خدمات جليلة في كل لحظة إذ وهو الذى كان له الفضل فى أن نبعث «مانالس» إلى «سانتياجو» وكان ينبغى أيضا تنظيم إرسال «كويكى أسكالونا» الذى كانت حالته قد ساءت إلى حد خطير. كانت تلك الأيام مليئة بالأخبار المتناقضة فقد وقعت سيليا فى شباك الأسر أو ربما هى قتلت وراجت شائعات أخرى كشائعة اعتقال فصيلة من الجيش رفيقنا «هرمس كالديرو» فهل يجب علينا أن نثق أو ألا نثق بهذه الشائعات التى تحمل النذر؟ لقد كانت سيليا مثلا أداة اتصالنا الوحيد الذى نوليه كل ما لدينا من ثقة حيث إن اعتقالها يعز علينا ولحسن الطالع أن كافة الأخبار التى كانت ترد عنها لم تكن على أساس سليم بل كانت عارية من الصحة لكن خبر رفيقنا (هرمس) كان صحيحا وسوف تكون معجزة أن يخرج هذا الرفيق حيا من سراديب الظلم.

وعلى ضفاف نهر «بيلا ديرو» كان يعيش مدير عامل لمصلحة أحد أصحاب المزارع وكان يدعى (دافيد) وهذا الرجل كان قد ساعدنا كثيرا حتى أنه قد قام بذبح بقرة من أجلنا وأسرعت بدورى أبعث الرفاق واحداً بعد الآخر لكى يحملوا اللحم الذى استخلصه الرجل ونجح جنودنا فى تنفيذ المهام الموكولة إليهم باستثناء (بانديراس) الذى كان يتصف بالبلادة واللامبالاة كعادته حتى كاد ينكشف أمره ويفضح وجودنا وهو ما دفعنى لنصحه بضرورة أن يكون نصيرا عاديا للثورة دون أن يتحمل مهاما قد تعرقل طريقنا كان هو بسيطا يتصف بالسذاجة ومقداما ذا عقل راجح وشجاعا وصاحب أفق واسع. وكان له ولدان وزوجة ويهتم بزراعة الأراضى واستصلاحها بيد أنه قد سئم تلك الحياة وطاق إلى الخلاص منها والترحال وإلى

عالم أرحب من أجل أن يحصل على أجر يواجه به أعباء الحياة والبحث عن ولديه اللذين تركا البيت منذ سنوات هربا من الفقر وشقاء الزراعة.

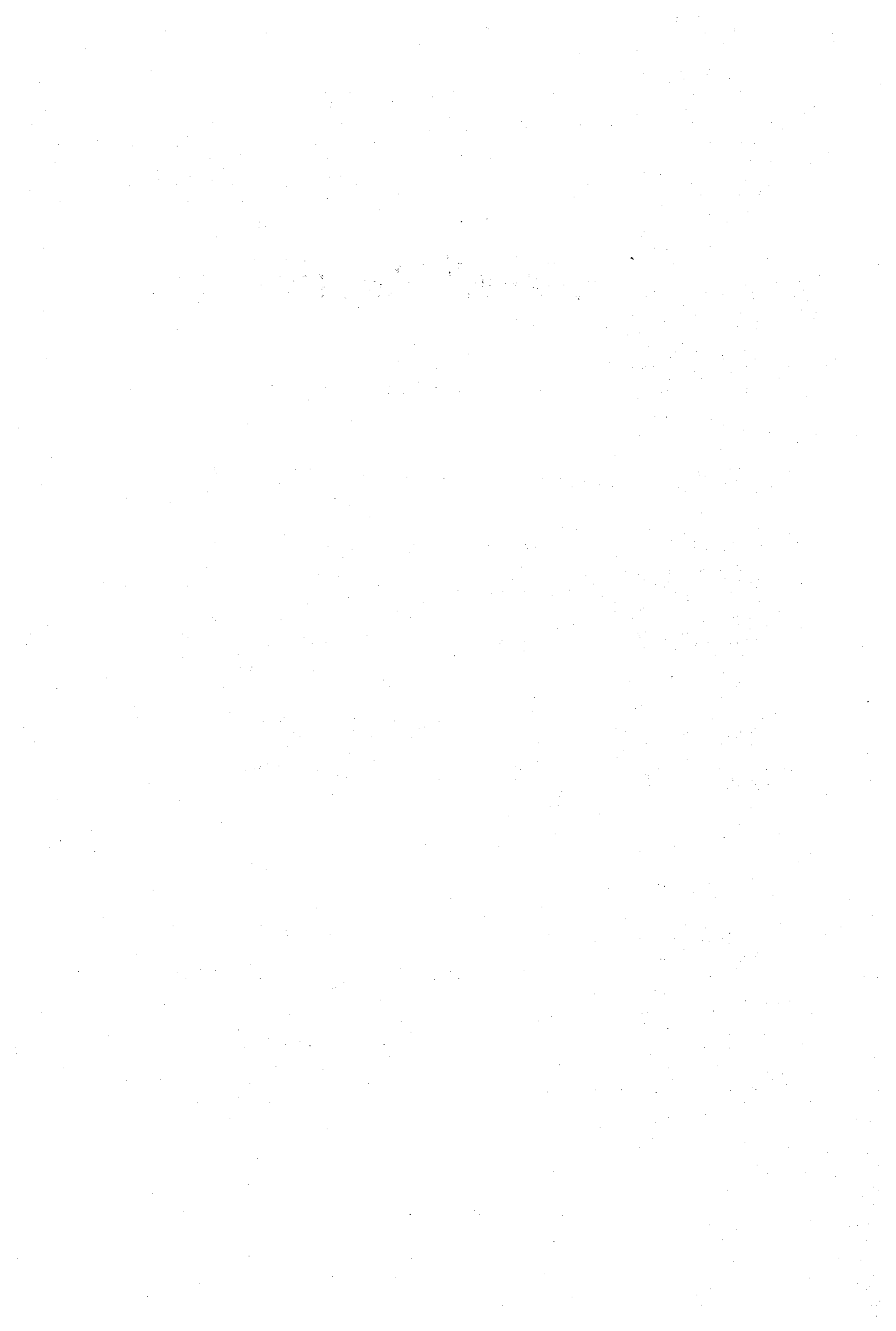
أما دافيد فقد كان نموذجا صادق الولاء فهو مدير نموذجى يتسم بالولاء لسيده مؤمنا بالعنصرية وقد اعتقله الجيش حينما تسربت أنباء علاقته بنا وتعرض لعمليات تعذيب دموية بشعة ورهيبة وكان همه الأول عندما أفرجوا عنه أن يؤكد لنا أنه لم يدل بأى سر من أسرارنا أبداً وأنا لا أعلم هل مازال ديفيد فى كوبا أم أنه مازال يعمل ضمن أسياده الذين جردتهم الثورة من أملاكهم ونفوذهم.. لقد كان يتمنى أن تتغير أحوال البلاد لكنه أدرك كم هو يحتاج إلى جهد وشقاء هذا الذى يتطلع إليه.

إن ثورتنا قد صنعها رجال أفذاذ مثل دافيد وبانديراس هؤلاء الذين سقطوا من أجل أن ينبلج فجر الحرية وتولد خيوط الصباح الجديد وتشرق شمس الكرامة على الكوبيين جميعا.. علينا إذن نحن صناع الثورة أن نتذكر دوما هؤلاء الذين قدموا أغلى التضحيات فداء لهذه الأمة.

* * * *

الفصل العاشر
ليديا

«ولا أزال أذكر أقوال أحد هؤلاء وقد اختلط فيها المدح بالقدح حيث قال «إن هذه السيدة معها أكثر من ماسيو ولكن ينبغى أن يكون المرء مجنونا حتى يفعل ما تفعله فكأنها تتسلى».



الفصل العاشر

ليديا

عندما وقعت عينى للمرة الأولى على ليديا لم يكن قد مر على عمر الثورة أكثر من ستة أشهر وكنت فى ذلك الوقت توليت مهام قائد الطابور الرابع. وقد عرفت ليديا خلال نزول فرقتنا من الجبل بشكل سريع من أجل الحصول على الإمدادات التموينية.

فى ذلك اليوم وقع اختيارنا على قرية «سان يابلودى ياو» الصغيرة القريبة من (بايامو) على جبال سيرا مايسترا» وكان أحد المنازل الواقعة فى أول البلدة يخص أسرة معروفة من الخبازين وكانت ليديا بالطبع من أعضاء تلك الأسرة ومنذ اللحظة الأولى نذرت هذه المرأة نفسها قلبا وقالباً هى وابنها للثورة بحماس ووطنية كانت متأججة بداخلها حتى أنك لا تكاد تصدق أن هذه المرأة الثورية المندفعة ابنة الخمسة والأربعين عاما..

كانت هذه السيدة العظيمة توحى إلىّ بأشياء عظيمة ورائعة خاصة إذا ما ذكرت اسمها ذات مرة وكانت هى فى واقع الأمر شديدة الارتباط بى بشكل خاص وترغب فى أن تعمل تحت قيادتى مهما كانت نوعية المهام المكلفة بها وصعابها ومتاعبها.

والواقع أننى لا أستطيع أن أرصد كم عدد المرات التى تدخلت فيها ليديا على اعتبار أنها رسول خاصة أو رسول الحركة فمن (سانبياجو كوبا) إلى (لاهافانا) كانت تتولى نقل أهم الأوراق وجميع المذكرات التى تخص فرقتنا ومخابراتها وهى كانت أوراق تتصف بالأهمية القصوى والخطورة الشديدة فضلا عن أننا كنا نوكل إليها مهام توزيع جريدة «الكوبى الحر» وغير ذلك.

وكانت تأتى بالأدوية والورق وبكـل ما كنا نتطلع إليه إذا دعت الضـرورة وكانت شجاعتها تفـوق حدود الغير حتى كان هؤلاء الغير يتجنبون مـرافقتها ولا أزال أذكر أقوال أحد هؤلاء وقـد اختلط فيها المدح بالقـدح حيث قال «إن هذه السيدة مـعها أكثـر من(ماسيـو) ولكن ينبغى أن يكون المرء مـجنونا حتى يفـعل ما تفعـله فكأنها تتسلى» كل هذا وليديا رابطة الجأش تواصل مهـام عملها وتذهب وتعود من خلال خطوط العدو ومـسالكه مرات عديدة ونقلت إلى منطقـة «لاميناذل تربو» فى «لاس فيجاس خيباكاو».

وكان هذا كافيـا لكى تقرر مغادرة المعسكر الإضافى الذى كـانت تقوده فترة من الزمن والرجـال الذين تقسـو عليهم. بـل بشكل لا أغالى إذا قلت إنه كـان يشبـه الطغيان) وهو مـا كان يتعارض مع طبـائع الكوبيين الذين كانوا لا يميلون إلى الجنوح تحت سلطة أية امرأة . . وكـانت هذه النقطة هى أكثـر النقاط تقدمـا وتقع فى مكان يسمى «لاكويفـا» (المغارة) بين «ياو» و«بايامو» ومن ثم وجدتنى أسحب منهـا قيادتها حيث كـان الموقع معرضا للخـطر للغاية والحقيـقة أنه عندما شـوهدت ليديا أضطر فى مرات عـدة لإتاحة الفرصـة لها للخروج من المكان أن يفـتحوا لهـا طريقا من خلال أعقاب البنادق وكم حاولت وبذلت قصارى جهدى مع ليديا لكى أسحبها من هذا المكان بيد أنها أبت وأصرت على إقتفاء أثرى فى جـبهة القتال وإنى أذكر حادثة تكشف ما طبعت عليه ليديا من خلق وكان ذلك يوم أن مات أحد أبرز رجالنا الثوار (ولم يكن قد نبتت لحـيته) ويدعى خيلين وأصله من كـارديناس وكان قد انضم إلى نقطتنا المتقدمة فى المرحلة التى كانت ليديا موجودة فيها.

وحين كانت فى طريقها إليه عائدة من مهـمة رأت بعينيها جنود الحرس الحكومى يترجلون بخطى حذرة وبطيئة ناحية النقطة بحذر الذئاب فى أعقاب وشاية من بعض الجواسيس بكل تأكـيد، وكان رد الفعل لدى ليديا عاجلا وفـوريا ومن ثم أشهرت

مسدسها الصغير عيار ٣٢ لتلوح لنا بالإنذار وذلك بإطلاق عيارين ناريين فى الهواء بيد أن أيدى الأصدقاء قد منعتها فى الوقت المناسب حيث أن هذا التصرف كان جديرا بتصفية حياتهم جميعا.. وواصل الجنود تقدمهم ووصلوا فجأة إلى مكان حارس المعسكر، وراح (جير موخيلين) يدافع عن نفسه بشجاعة ثم سرعان ما تعرض للإصابة ولو كان يدرى أنه سيقع أسيرا بين يدى الحرس الحكومى لكان قد أطلق النار على نفسه.. والتقيت بليديا فى اليوم التالى فكان يمكن أن يقرأ المرء على وجهها الألم العميق لموت مقاتل جسور وأشد السخط على من منعها من إطلاق النار لإنذارنا وصاحت تقول «لقد كان يمكن أن يقتلونى ولكن كان ممكنا انقاذ حياة الشاب الجسور فأنا أصبحت عجوزا أما هو فقد كان فى ريعان الشباب فهو ابن العشرين ربيعا» وكان حديثها يتعلق بتلك المسألة ولذلك بدا عليها استخفافها بالموت ولا أدرى أكان زهدا أم كانت شجاعة وجسارة أم كليهما معا؟

كانت ليديا تعرف أننى محبا لاقتناء الكلاب فكانت تعدنى كلما رأتنى أن تحضر لى كلبا من (هافانا) وكان هذا وعدا يتعذر عليها تطبيقه عمليا ومع ذلك فقد أوفت بوعدها فى فترة الهجوم الكبير وكانت تذهب وتعود بين جبال السيرا مايسترا والسهل تأخذ وثائق سرية وتعود بأوراق خطيرة ذات أهمية وكانت هى وسيلة الاتصال الآمنة لنا بالعالم الخارجى كانت تعمل وتناضل دائما برفقة مقاتلة أخرى من طينتها لا أذكر اليوم سوى اسمها وكان جميع الرفقاء يذكرون اسمها ويحملون لها فى قلوبهم محبة واحتراما وتقديرا عميقا.. إنها «كلو دو ميرا» وأمست «ليديا» و«كلودوميرا» لا ينفصلان فى مواجهة الأخطار ولذلك كان يذهبان ويعودان دائما معا من طرف لآخر.

وتلقت ليديا الأمر بأن تتصل بى حال وصولى إلى «لاس فيجاس» بعد الغزو وكان عليها فى واقع الأمر أن توفر سبل الأمان للاتصال مع (هافانا) وأركان الحرب

العامة فى (السيرا مايسترا) وبعد وقت قصير من وصولى دفعت عنى على كلمة صغيرة بخط يدها تعلن لى أنها تمكنت من الحصول على كلب صغير ترغب فى إهدائه لى وأنها سوف تحمله معها فى الرحلة القادمة.

بيد أن ليديا وكلود ميرا لم تقوما بهذه الرحلة القادمة أبدا إذ تسبب ضعف أحد الرجال الذى كان أقل منها من حيث الجسارة والشجاعة وكمقاتل وكثورى وإنسان فقد استطاع جيش باتيستا من أن يكشف مكان فئة من رجالنا الذين كانت ليديا تتردد عليهم بصحبة (كلود ميرا) واستبسل رجالنا فى المقاومة حتى الموت وكانت ليديا قد تعرضت للإصابة فى رأسها فضلا عن وقوعها أسيرة فى شباك العدو حتى لفظت أنفاسها الأخيرة هى ورفيقتها (كلود ميرا) كنموذج يصعب على الوجود أن يأتى بمثله كعشاق للحرية وشهداء فى سبيلها ولا نعرف أين جسد ليديا ورفيقتها وقد نتمكن من العثور فى أحد الأيام على رفاتهما فى أحد الحقول فى تلك المقبرة الكبرى التى كانت فى يوم من الأيام جزيرة كوبا بأسرها.

ورغم ذلك إن هؤلاء الذين قاتلوا فى جيشنا الثائر وضحوا فى الأيام المؤلمة سيحفظون إلى الأبد ذكرى هاتين المرأتين ولا شك أن ليديا تحتل المقام الأول عندنا عند رجال الجبهة رقم واحد وعندى أنا على وجه الخصوص من أجل هذا أمنح هذه الوردة على قبرها المجهول.

* * * *

العودة

تفرغنا طوال شهر يونيو ١٩٥٧ لتضميد جراح رفقائنا الذين كانوا قد أصيبوا بطلقات نارية خطيرة ومؤثرة أثناء معركة «الأوفيرو» ولتنظيم القوة الصغيرة التى ستنضم إلى طابور فيدل لتجعله أكبر وأقوى. كانت الاتصالات التى تجرى مع الجهات الخارجية تتم عبر «دافيد» وقد ساهم هذا الرجل بنصائحه ومعلوماته وتبرعاته الغذائية التى كان يبعثها لنا من أجل مكافحة الجوع وتحسين معيشتنا. وفى تلك الأيام الأولى لم نكن نستطيع الاعتماد على دعم ومساندة «بانتشو تامايو» التى لا تقدر «وقد قتل على أيدى البياتون فى السنوات التى أعقبت الحرب» حيث لم يتصل بنا «بانتشو تامايو» وهو فلاح شيخ من فلاحى المنطقة إلا بعد مرور فترة قصيرة، وقد عمل لنا هو أيضا كأداة اتصال.

وراح (سينيسيو) الذى انحرف عن القيم والمبادئ الثورية ونهب أموال الحركة لكى يتعاطى الخمور بها وقد شوهد كثيرا وهو غارق فى ملذاته حتى الثمالة فضلا عن العبارات الخطيرة والحرجة التى كان يتفوه بها دون أن يتحلى بالحذر ولكن كيف نطلب من الذى يفقد عقله وصوابه أن يتحلى بالحذر؟! ثم إن (سينيسيو) لم يكن ينفذ الأوامر التى يتلقاها وعند عودته مرة من إحدى جولاته جاءنا بأحد عشر رفيقا عزلا من السلاح كليا.

وكانت التعليمات الصارمة تقضى بضرورة رفض تطوع الرجال غير المسلحين ولكن فى عصابتنا الفتية كان الانخراط فى صفوفها يجرى وفقا لحسابات المنطق السليم إذ كان الفلاحون الذين يطلعون على موضع معسكرنا يحضرون إلينا بصحبة الرفقاء الجدد الذين أظهروا رغبتهم فى التطوع والانضمام لحركتنا وكان قد انضم حوالى أربعين رجلاً إلى طابورنا الصغير ولكن من جهة ثانية كم كان هناك فرار

سواء بموافقتنا أو دون رغبتنا حيث كانت قواتنا الصغيرة تضم فى الواقع أكثر من عدد يتراوح بين ٢٥ و٣٠ رجلا ثابتا فى أى وقت.

وفى هذه الأيام تصاعدت حدة الربو الذى أشكو منه ولم يكن معى أى مهدئ ومن ثم وجدتنى أشبه بالجرحى ولكى أخفف ثورة الاختناق التى تجتاحنى من حين لآخر بدأت أدخن أوراق الشجر الجافة وهو العلاج الذى كنت أتناوله قسراً فى «السيرا» على أمل وصول الأدوية المتحضرة.. بعد ذلك أحسست بضغط شديد بغية الرحيل الذى كنا نحاول إرجاءه من يوم لآخر، وأخيرا كلفنا دورية بالذهاب لإحضار جميع الأسلحة التى كنا وضعناها جانبا على أساس انتهاء صلاحيتها بعد الهجوم الحاسم على «الأوفيرو» فمنها سنسلح الرجال، وفى تلك الأحوال كانت جميع هذه البنادق القديمة التى تعطلت ومنها البندقية عيار ٣٠ تمثل ما يمكن أن يتحول إلى كنز ومضى الليل فى إخراج هذه الأسلحة من مخابئها السرية وفى نهاية المطاف حددنا فجر ٢٤ يونيو موعدا للرحيل.

كانت قواتنا تتكون فى ذلك الوقت مما يلى ٥ من الجرحى يتماثلون للشفاء و٥ من المرافقين و١٠ من المتطوعين الجدد من (بايامو) ومتطوعين جديدن (يعملان وفقا لأهوائهما) و٤ رجال من المنطقة وهكذا يصبح المجموع الكلى نحو ٢٦ رجلا وكان «فيلو أكونيا» فى المقدمة يليه «أركان الحرب» التى كنت أتولى إدراتها (وكان ألميدا فى الواقع قد شفى من جرحه فى فخذه ولكن الترجل ولو لبضع خطوات كان يترتب عليه آلام مبرحة ومتاعب لا تنتهى».

وفى المؤخرة فصليتان صغيرتان بأمرة (بينا وماسيو) وتكاثرت الحوادث ولم نرحل كما كان محددا فى الرابع والعشرين من يونيو حيث كان يعلن عن وصول أحد الأدلاء برفقته متطوع جديد أو الإعلان عن قدوم وصول كمية جديدة من الأدوية والأطعمة المعلبة التى ينبغى علينا أن ننتظر قدومها. ولم ينقطع «تامايو» الفلاح

العجوز عن الذهاب والعودة حاملا معه فى كل مرة الأنباء وعلب الأطعمة الملابس والأوراق.. وفى وقت من الأوقات استدعت الضرورة أن نبحث عن مغارة نضع فيها قسما من الأطعمة حيث كانت الاتصالات مع سانتياجو قد استقرت فى نهاية الأمر ونقل إلينا (دافيد) حملا ضخما لم نكن نحلم بنقله معنا بالنظر إلى أحوال وملابسات قوتنا المكونة من الجرحى والمتطوعين الجدد خاصة الذين يعملون على هواهم أو وفقا لرغبتهم.

وفى ٢٦ يونيو بدأت أولى أعمالى كطبيب أسنان وينبغى أن أقرها أن المرض الذين ترددوا علىّ لمعالجتهم فى جبل (السيرا مايسترا) أطلقوا على لقب « خالع الأضراس» البسيط وكان (إسرائيل يادرو) أول ضحية لى وقد قمت بإجراء عملية الخلع وفقا للقواعد تقريبا.

بينما كان «خويل إيجليسيا) هو الضحية الثانية التى ذهبت أمامه كل جهودى أدراج الرياح ولم يعد لدى أى وسيلة أخرى لخلع نابه العنيد إلا بوضع كمية من الديناميت فى الناب لنسفه وفى نهاية الحرب اكتشفت أن أنياب (خويل) مازالت مستقرة ثابتة عنيدة فى مكانها.. لقد كنت أفتقد الخبرة وكان ينقصنى البنج الذى كنت أحاول أن أدخره للجراح الخطيرة.

وإن كنت قد استخدمت البنج النفسى فى تهدئة روع مرضاى إذا تعالت صيحاتهم وصراخاتهم وأنينهم أو عند لهفتهم فى الشكوى وحين أعطينا المجموعة إشارة البدء فى الرحيل حتى هدأت ثورة حماس بعض الرجال الذين تركونا وحل مكانهم لحسن الحظ رجال متطوعون جدد إذ أقبل (تامايو) بأربعة من الرجال كان على رأسهم «فيلكس ماندوسا» الذى أتى حاملا بندقية وشرح لنا كيف باغتته هو وزميله فصيلة من جيش العدو وقد وقع زميله فى قبضة الأسر وألقى هو بنفسه خلف صخور الشاطئ وأطلق ساقه للريح دون أن يلحظه أحد من أفراد الجيش

وعلمنا بعد ذلك أن الجيش لم يكن سوى دورية يترأسها «لا لوسرديناس» ونتيجة ذلك وجد زميل «فليكس» نفسه فى جيش فيدل.. ثم كان هناك أحد المتطوعين الجدد ويدعى «أيفيليوسابوريت».

ومع انضمام «فيلكس ماندوسا» وزملائه إلينا أصبح عددنا ٣٦ رجلا على أن ثلاثة تركونا فى اليوم التالى ثم سرعان ما التحق بنا آخرون وأصبح عددنا ٣٥ رجلا.. ولكن عندما بدأ الترجل تراجع العدد مرة أخرى وبدأنا فى تسلق جبل «بيلاديرو» على فترات زمنية قصيرة ولقد وضع الراديو أمام أعيننا صورة شاملة للعنف الذى كان قد امتد إلى كوبا من شمالها إلى جنوبها.. وفى أول يوليو تلقينا خبر وفاة «خوسيه يابيس» شقيق «فرانك» وعدد آخر من الرفقاء الذين لقوا جميعا مصرعهم فى المعركة الدائرة التى اندلعت فى «سانتياجو» وبينما كنا نهبط من على رابية «بوتيا» مررنا على منزل «بنيتو مورا» وقد احتفى بنا فى بيته البسيط الذى يبدو وكأنه معلق على إحدى المنحدرات الصخرية فى هذا الجزء من السيرا» وقبل وصولنا إلى المبيت بوقت قصير جمعت الرجال (وكانت المعنويات منخفضة للغاية) وألقيت على مسامعهم كلمة موجزة قلت فيها «إننا سوف نشهد ساعات على قدر كبير وبالغ من الأهمية وأننا نتقدم فى طليعة جيش حقيقى وقد نضطر لأن نتخلى عن الطعام عدة أيام على أن نستمر فى سيرنا أياما متواصلة دون انقطاع فإذا كان فيكم من لا يثق فى صبره وأعصابه وصحته فليخبرنا بذلك من الآن» وكان لدى بعض الرجال قدر كبير من الصراحة والشجاعة فى التعبير عن قلقهم وهواجسهم ومخاوفهم وانصرافهم عنا.. ولكن تشيكو اكتشف كلمات رائعة تعبر فى الواقع عن إرادة فولاذية ليؤكد نيابة عن جماعته أنهم من جانبهم سوف يستمرون معنا حتى آخر رصاصة أو آخر نبضة قلب بيد أن المفاجأة كانت كبيرة بعد مرورنا ببيت «بنيتومورا» وفى ذلك الوقت الذى كنا ندق فيه أعمدة خيامنا على شاطئ جدول

صغيـر لكى نستسلم للنوم فى تلك الليلة كم كانت المـفاجأة كبيرة للـغاية لمشاهدتنا هذه الجماعة نفسها تأتى لتخبرنا أنها توصلت لقرار نهائى لارجعة فيه يقضى بمغادرة الحركة وبالطبع وكما هو مألوف فى مثل هذه المواقف تركناهم يرحلون وعلى سبيل الدعـابة أطلقنا على المكان اسم «نهـر الموت» لأن الإرادة الفولاذية التى أظهـرها لنا (تشيكو) ورفقـاؤه نفد صبرها هنا فى هذا المكان وعلى ضـفاف هذا الجدول وفى بداية دخول الظلام على الكون. . ولـم يكن لهذا الجدول أى اسم آخر طوال فـترة الحرب.

وظللنا نحو ٢٨ رجـلا ولكن حين رحلنا فى الصباح البـاكر انخرط فى صـفوفنا متطوعان جـديدان هما «جيليرتو كابوتى» (ونيكولاس) وهمـا عسكريان فى السابق وجاءا معا إلى السيرا للنضال والكفاح فى سبـيل الحرية وقد اصطحبهما «أرستيدس جيرا» أحد الذين يتولون مهام الاتصالات فى المنطقة وقد صار بعد ذلك كنزا حقيقياً لحركتنا وخلعنا عليه لقب «ملك الطعام» ولقد أبلى (ملك الطعام) بلاء حسنا فى كل مراحل الحرب رغم المخاطر التى حاصرته من كل جانب (ومن بين انجازاته أنه تمكن فى قلب منطقة بايامو من تغيير خط سيـر قطيع من البغال بهدف وصولها إلى قواتنا وهو ما حدث بالفعل.

وفيـما كنا نمضى على فـترات قـصيرة واكـتشـفنا أنه الوقت الملائم لكى ندرب المتطوعين الجدد على أصول وقواعد وفنون القتال وأسندنا تلك المهام إلى العسكرين القدامى خـاصة الذين كانوا ضـمن صفوف جـيش العدو لما لديهم من مـعلومات وبيانات وقدرة على التعليم والتلقين. . لكن لسوء الحظ ما كادت الدروس تبدأ حتى انطلق من أحد المعلمين عيار نارى ومن ثم أعلنا تخلينا عن خدماته وقد أبدينا قدرا لا بأس به من الحـــذر والحـيطة. . ولكن بدت عـلى وجـهـه مـلامـح الدهشـة والاستغراب إذ أننا لم نتخيل أنها حيلة وخدعة إلا إذا اعتبرنا أن للرجل قدرة هائلة

على المراهنة وأخيـرا لـم يتمكن العسكـريان السابقان من تحمـل مشقات السـير. .
فذهبا يرافقهما «أرستيدس» ورغم ذلك فقد عاد إلينا «جيلبرتومن كابوتى».

ومات كـالأبطال بل كان بالفعل بطلا وكـان آنذاك برتبة ملازم وغـادرنا موضع مخـيمنا وبيت «يولوتورس» على «الميـسا» وقد كـان بعد ذلك هو أحد أهم مـراكز عملياتنا واستأنفنا السير يتقدمـنا الآن فلاح يسمى «توتو ألميدا» وكانت مهمتنا وصول (نيفادا) والوصـول فيما بعد بواسطة السـفوح الشمالية لجـبال «توركينو» إلى الموضع الذى يوجد فيـه «فيدل كاسترو»، وكنا نمضى فى هذا الاتجـاه حين شاهدنا عن بعد رجلين من الفلاحين وعندما اقتربنا منهما حاولا أن يهـربا وكان حريا بنا أن نتبعهما لتوقيفهما فإذا بنا نكتشف أنهمـا فتاتان سوداوان تحملان اسم (مويا) وتتبعان مذهب «الأدفنتست» وعـلى الرغم من أن المعتقـدات الدينية التى تعـتنقهـا الفتـاتان تفرض عليهمـا مقاومة ومكافحة أى مظهـر من مظاهر العنف والوحشية وقد سـاعدناهما دون أى تحفظ وعلى الفور وأثناء فترة الحرب وحتى نهايتها.

واستعدنا حيويتنا وطاقتنا وعند الرحيل نحو (مارفردى) (فقد كان يجب أن نسلك طريق مارفـردى لوصول نيفـادا) وجاء من يخبـرنا أن القطاع ملىء بقوات باتيسـتا. وبعد تداول سريع بين الذين يرشدوننا وأركان حربنا المصـغرة قررنا أن نعود كما كنا ونسلك الطريق المبـاشر مرورا بـتوركينو وهو طريـق أصعب بغيـر شك ولكنه أقل خطورة.

والتقطنا من خـلال جهاز راديو صـغير ترانزسيـتور أنباء مـزعجة فقـد قالوا إن معارك خطيـرة اندلعت فى منطقة «أسترادايالما» وأن (راوول) أصـيب بجراح خطيرة (ولست متأكـدا الآن بعد مرور الزمن أن كان جـهاز الراديو هو الذى نقل إلينا هذا الخبـر، ولم نستطع إلا أن نتـأمل وندقق فى هذه الأنباء، وقـد علمنا الاختـبار أن نكتشف فـيها طابع الكـذب. . وعلى أية حال فقـد حاولنا أن نضاعف من سـرعة

خطواتنا لكى نصل إلى المكان الذى يوجد فيه فيدل وكنا قد بدأنا السير مساء وقضينا الليل فى منزل فلاح منعزل يدعى سيكا بينو ، كان يعيش هناك على جوانب توركينو. كان يعيش وحده فى كوخ صغير وكان أصدقاؤه الوحيدون بعض الكتب الماركسية يحتفظ بها بعناية فى حفرة تحت حجر غير بعيد من كوخه، وقال لنا (سيكا بينو) بكبرياء أنه كان مناضلا ماركسيا. . وقد أرشدنا هذا الفلاح على الطريق الذى كان يجب علينا أن نسلكه ورأى (سينيسيو) أننا نبتعد أكثر فأكثر عن مركز عملياتنا وأضحى هذا الأمر مثيرا للقلق وهو صاحب روح متواضعة أقصد روح الفلاح الذى لا يلتزم غالبا بالقيود واللوائح وفى يوم من الأيام التى تجلت فيها الشمس وأشرقت على الكون كنا متوقفين كان متطوع يدعى «كويرفو» يقوم بالحراسة (وكنا قد زودناه ببندقية من طراز (رومنجتون» نظرا لحسن سلوكه وذهب «سينيسيو نورس» ليلتحق به فى نقطته حاملا بدوره بندقية وعندما أخبرونى بالأمر بعد نصف ساعة تقريبا ذهبت للبحث عنه حيث لم تكن بداخلى ثقة كبيرة (بسينيسيو) وكانت البنادق غالية ونادرة فى ذلك الوقت ولكننى وجدت الاثنين معا قد فرا وذهب بانديراس (وإسرائيل ياردو) فى البحث عنهما وهما على يقين من عدم فعالية مسدسيهما التعيسين بالنسبة لأسلحة الهاربين الطويلة لكننا لم نعثر هذه المرة على أثر للهاربين.

لقد كان شاقا على النفس كيفية الحفاظ على معنويات هذه القوة المسلحة تسليحا ضعيفا والتى حرمت من إجراء الاتصال المباشر مع قائد الثورة لقد كنا نتقدم دون أن ندرى إلى أين نحن ذاهبون، ودون أية خبرات يحاصرنا الأعداء الذين أصبح لهم فى أذهان الفلاحين ونوادرهم أعداد كثيرة وهائلة.

وأصبحت مقاومة هؤلاء الضعيفة تعزز المؤسسات بين الرجال، وجرت محاولة هروب قام بها رجل يدعى «المكسيكى» الذى كان قد حصل على رتبة كابتن وهو الأن موجود فى ميامى عميل وخائن للثورة وكان (هرمس ليفا) ابن خال «خويل

أيجليسـيا» هو الذى أطلعنى على المحـاولة فأعددت تحـقيقـا لمعرفة الأمـر بوضوح واعترف المكسيكى بأنه فكر فى تأسيس عصابة مستقلة ولكنه أقسم أن ذلك لم يكن بهدف الـهروب.. لقد كـان يعتـزم بناء وتكوين عـصابة صـغيرة تهـدف إلى شن هجمات عـلى أوكار الجواسيس والتـخلص منهم. يقتلهم إذ أن صفوفنـا تحتاج إلى شيء من النشاط... والواقع أنه كان يعتزم فـعلا الانصراف إلى مطاردة الجواسيس ورصد تحركاتهم وذلك بهدف ابتزاز أموالهم وهو نوع من أعمال البلطجة.

وفى معركة «الؤمـيرتيو» التى اندلعت بعد هذه الواقعة كـان (هرمس) هو فقيدنا الوحيد ولم نستطع أن نتحاشى الظن بأن وراء مـقتله عملية ثأر من طرف المكسيكى حيث إن هرمس كـان هو الذى أفشى سره ورغم كل هذا فـأنا لست على يقين أو قناعة بمثل هذه المسألة.

وظل المكسيكى فى الطابور وأعلن على الملأ قسم الولاء والشـرف بوصفه رجلا مناضلا وثوريا وأقـسم أنه لن يذهب ولن يفكر إطلاقا فى الهـرب ولن يحرض أى شخص على أن يلوذ بالفرار.

وبعد عدد لا بأس به من فـترات ومراحل السير القصيـرة استطعنا الوصول إلى منطقة «يالما موتشا» على الجانب الغربى من «توركينو» فى منطقة المغارات وهنا احتفى بقدومنا الفـلاحون بشكل رائع وبخصوص مـهنتى الجديدة أقصد - مـهنة - خالع الأضراس - فـقد كنت أمارسـها بحمـاس وحب واحترام ومن ثم أسـسنا اتصالا مباشرا وبعد عشـاء طيب وراحة قصيرة اقتفينا أثر خط مستـقيم على «الياما موتشا» وقطاع الجحيم حـيث كان لنا أصدقاء قدامى.. ووصلنا فى ١٥ يونيـو وأبلغنا أميليو كاربيرا» أحـد فلاحى المنطقة أن «لالوسارديـنياس» قد سقط فى كمـين هو ورفقاؤه بالقرب منا، وشكا لى أمره لأن لالو عرض بيته للخطر (إذ أسـس مخيما قريبا منه) فى حال قيام دورية العدو بالهجوم.

وفى ١٦ يونيو تم اللقاء الذى جمع بين قوتنا الصغيرة ومجموعة من طابور فيدل يترأسه «لالوسار ديناس» وقد روى هذا الأخير كيف وجد نفسه مرغما على الدخول قسراً فى صفوف الثورة.. لقد كان تاجرا بذل جهده لكى يأتينا إلى الجبل حاملاً أطعمة معلبة ومأكولات طازجة من السهل... وفى يوم من الأيام كان (لالو) قد تلقى توجيهات تفيده بأهمية الانتظار والتريث فى هذا الموضوع تقدم طوابير «سانتشى موسكيرا» إذن فقد دخل سانتش موسكيرا بكل ما يحمله فى عتاد. فى أرضنا مرة أخرى من قطاع «يالما موتشا» وكاد أن يصبح محاصراً من جانب طابور فيدل بيد أنه استطاع أن يحبط محاولة الحصار وذلك بعبوره منطقة «توركينو» من خلال الترجل على فترات متباعدة الأمر الذى أدى به للوصول إلى المنحدر الآخر للجبل لكن من جانبنا نحن فقد كنا نعرف جيدا أن فى الجوار القريب توجد قوات العدو مرابطة حيث كنا فى ليلة أمس عند وصولنا أحد الأكواخ قد رأينا بأعيننا خنادق غادرها الجنود من وقت قصير.

ولكننا لم نتصور أن هذه الشواهد والبراهين الجلية تدل على هجوم قد تشنه علينا قوات العدو ولم تكن سوى علامات هرب الطابور الحكومى فى واقع الحال.

وكان هذا خطأً فاصلا فى العمليات ومفترق طرق على أرض الميدان فى جبال (السيرا مايسترا) وقد أمسى لدينا منذ ذلك الوقت قوات تكفى لتطويق ومحاصرة طوابير العدو وإرغامه على الفرار تحت وطأة الإبادة الجماعية.

لقد استوعب العدو الدرس وأدركه إدراكا رائعاً ومن ثم لم يعد يشن غارات جوية على مراحل فى منطقة السيرا ماسيرا لكن القائد الذى استوعب عظات وعبر هذا الدرس مباشرة فهو من أصلب وأقوى وأشرس قوات جيش باتيستا وأكثرهم عنادا وكبرياءً و صلفاً وغروراً، فضلاً عن شهرته كمقاتل غبى دموى يشتهر بتعطشه لسيول الدماء المتدفقة.. أقصد بقولى هذا «سانتشس موسكيرا» الذى جاء ذكره فى

هذا الكتاب من قبل وقد رقى من رتبة مـلازم فى عام ١٩٥٧ حتى أصبح كولونيلا وهى رتبة تدرج إليها بعد هزيمة قوات الديكتاتور التى اشتركت فى شن هجوم أخير علينا فى شهر يونيو من العام التالى. . وإنها لحياة عسكرية عسيرة على النفس حيث كثيرا ما مارست قوات العـدو أبشع صور الظلم على الفلاحين المساكين الذين كانوا يتعرضون للسلب والسرقة والنهب والابتزاز دون أن يجرؤ أحد على أن يبدى ضيقا أو يظهر سخطا.

* * * *

الفصل الحادى عشر

خيانة

«إن بعض التهديدات التى وردت فى صلب هذه الوثيقة لم تفِ بها الثورة بنصها الحرفى ويجب القول إن الخصم هو الذى قام بخرق الاتفاق فى البيان وذلك برفضه الاعتراف بسلطة السيرا وببذله أقصى الجهد لتقييد الحكومة الثورية».



الفصل الحادى عشر
خيانة

كم كانت فرحتنا عظيمة عند لقائنا مع الرفاق القدامى وكم كان استقبالهم لنا أحسن ما يكون وكم سعدنا أيضا عند رؤيتنا جيش الثورة فى كامل رجاله إذ كان يضم نحو ٢٠٠ رجل على وجه التحديد.

وكان هذا الجيش يتسم بالنظام والدقة والروح العالية وبين يديه عدد لا بأس به من قطع سلاح جديدة ولم يكن هناك أى شك فالتغير النوعى الذى سبق أن تكلمنا عنه كان يحدث بالفعل فى جبل السيرا مايسترا ونحن الآن نكبر وننطلق فى أرض حرة.. ولم يعد هناك ذريعة لاتخاذ كثير من الاحتياطات اللازمة بل كنا نتمتع بشيء من الحرية من أجل التداول فى الليل وحتى يتمدد الواحد منا فى أرجوحته ولو مجرد ساعة وأصبحنا لا نمنع أحداً منا من التوجه والتردد على زيارة السكان فى السيرا أو دخول بيوتهم الأمر الذى أدى إلى توثيق روابط متينة فى العلاقات بيننا.

ولكن النجمين اللامعين فى هذه المرحلة كانا هما فيليب ياسوس، وراوول تشيباس وهما شخصيتان لم تكن بينهما أية صفات مشتركة إذ أن راوول تشيباس كان يتفاخر بمكانة شقيقه (فيدل) - وهو بالطبع رمز يجسد عهدا كاملا فى كوبا - دون أن يكون له شيء من مزاياه وخصائصه كالجود والفكر والذكاء وكان اعتداله فى كل مناسبه هو الذى جعله الأبرز والألمع لحزب الاستقامة أما معنا نحن فقد كان قليل الكلام ولم تكن له إلا فكرة واحدة هى ضرورة أن نترك جبال (السيرا مايسترا) فى أقرب وقت إذا أمكن.

فيما كان فيليب باسوس ذا مكانة اقتصادية كبيرة وصاحب سمعة كريمة وطيبة حيث كان قد اتصف بطهارة اليد التى لم تمتد إلى خزينة الدولة حينما كان يشغل

منصب (رئيس البنك الوطنى) فى عهد حكومة السلب والنهب والغش والرشوة والسرقة فى كل مكان أقصد حكومة الرئيس (بريوس سوكاراس) ولعل القارئ يقول إنه فضل غير قليل أن يبقى المرء نظيف اليدين أثناء هذه السنوات وقد يكون هذا ميزة للموظف الذى يواصل عمله الإدارى دون أن يهتم بمشاكل البلاد الخطيرة..

لكن كيف يمكن أن تتصوروا رجلا ثوريا يمكن أن يبقى صامتا يوما بعد يوم أمام المظالم التى مارسها هذا العهد تلك التى لا يمكن أن يتخيلها العقل؟ لقد تحلى (فيليب باسوس) بالشجاعة كى لا يتفوه بكلمة ويغادر منصبه دون أن يثير أية مشكلة ويترك منصبه بوصفه رئيسا (لبنك كوبا الوطنى) بعد انقلاب (باتيستا) مكللا بأكبر مظاهر الاحترام والود والتقدير والمكانة بأمانته وطهارته وعفته ونزاهته ومواهبه وذكائه وقدراته البارعة وإذ لم يعد يهمه الأمر فقد مضى فى طريقه إلى جبال (السيرا) على أمل أن يمسك زمام الموقف بقبضة يديه وكان فى مخيلته كمكيافيلى صغيرا يعتبر نفسه الرجل المختار الذى تلقى دعوة كريمة لكى يتسلم مقدرات وثروات البلاد وربما كان قد راح يحتضن فكرة خيانة الحركة وربما تكون هذه الفكرة قد تأسست وتكونت لديه فيما بعد ومهما يكن من أمر فإنه لم يكن يتحلى أبدا بالصراحة.

وقد احتمى (فيليب باسوس) وراء التصريح المشترك (الذى سوف نفسره تفسيرا دقيقا فيما بعد) حتى يعلن تنصيب نفسه مندوبا لحركة ٢٦ يوليو فى ميامى والهدف كان الرئاسة المؤقتة للجمهورية..

وكان هذا أداة حسنة لكى يضمن يربوس وجود رجل موثوق على رأس الحكومة المؤقتة.

وكنا فى أشد الحاجة لتجاذب أطراف الحديث والنقاش فى ذلك الوقت بيد أن فيدل قد حكى لى قصة الجهود التى كان عليه أن يبذلها بهدف تكريس وثيقة نضالية ترسى الأسس والقواعد الصحيحة فقد كانت مهمة شاقة اصطدمت بعدم تفهم هذين الرجلين ذوى العقليتين الرجعيتين غير المتحمستين لبناء النضال الشعبى.

وقد أكد البيان[١] قبل كل شىء على ضرورة قيام جبهة وطنية ثورية تضم كافة أحزاب المعارضة السياسية وكافة المؤسسات الوطنية وجميع القوى الثورية» وقدم عددا من الاقتراحات كتأسيس (جبهة مشتركة) للنضال انطلاقا من الجبهة الشعبية «وتحديد شخصية تدعى لقيادة الحكومة الثورية» وتضمن البيان تصريحا عاجلا ومباشرا بأن الجبهة ترفض أن تطلب أو تقبل أن تتوسط دولة أجنبية فى الشأن الداخلى لكوبا كما أنه انطوى على رفض أى مشروع يلزم (بتسليم الجمهورية ولو بصورة مؤقتة إلى كتلة عسكرية مهما كانت دوافعها) والعمل على منع إقحام الجيش فى العمل السياسى بشكل نهائى مع ضرورة توفير ضمان بعدم المساس بأية مؤسسة عسكرية وأيضا توفير الإجراءات اللازمة لانتخابات حرة بعد مرور عام واحد أما البرنامج الذى ينبغى أن تتبعه الحكومة المؤقتة فكان يتضمن الإفراج عن جميع السجناء السياسيين مدنيين وعسكريين ونشر الأخبار ضمانا كاملا للصحافة مطبوعة كانت أو صوتية على اعتبار أن جميع الحقوق السياسية والشخصية مكفولة بمقتضى الدستور. وتضمن البرنامج أيضا تعيين عُمد بشكل مؤقت فى كافة المديريات بعد استشارة المؤسسات الأهلية فى المديرية ووعد بالإضافة إلى ذلك بإنهاء صور السرقة من أموال الدولة بكافة أشكالها وألوانها.. وتهدف الاحتياطات اللازمة إلى تفعيل الطهارة فى جميع أجهزة الدولة فضلا عن إرساء قواعد التوظيف فى القطاعات الإدارية أضف إلى ذلك تحرير النقابات العمالية من خلال إجراء انتخابات حرة فى جميع الاتحادات والنقابات العمالية.

كما أن البرنامج قد تعهد بتدشين حملة شعواء مباشرة ضد الأمية مصحوبة بحملة أخرى للتعليم الذى تتعاظم فيه حقوق المواطن وواجباته نحو المجتمع والوطن. ويقول البرنامج أخيرا: إنه «ينبغى إرساء القواعد من أجل إصلاح زراعى يهدف إلى

---

(١) البيان: هو بيان شهير باسم بيان السيرا وقد صدر فى ١٢ يوليو ١٩٥٧.

توزيع الأراضى غير المـنزرعة وتحويل الفلاحين الشـركاء فى الأراضى والمزارع إلى ملاك عـلى رأس قطع محـدودة من الأراضى سواء كـانت هذه الأراضى تخص الدولة أو يمتلكها الأفـراد وذلك بعد دفع التعويض المناسب للملاك السـابقين كما يجب بناء سياسة مـالية سليمة كفيلة بتأمـين استقرار النقد كما يجب استـثمار أموال الدولة فى أعمال تعود بالـربح والفائدة على العملية التصنيعـية وتدبير وخلق فرص عمل ووظائف جديدة.

إلى كل هذا يمكننا أن نضيف نقطتين واضحتين:

أولاهمـا: أهمية تعـيين الشخص الذى يتلقى دعوة لرئاسة حكومـة الجمهورية المؤقتة فى الحـال حتى نبرهن للعالم أن الشعب الكوبى قادر علـى الاتحاد والالتفاف وراء كلمة الحرية الجامعة وعلى مسـاندة الرجل الذى يبدى قدراته على تجسيد هذه الكلمة جامعـا فى شخصه النزاهة والكرامة والحياد ولا يـنقص كوبا أصحاب المكانة والقيـمة الذين يستحـقون أن يتبوأ أى منهم منصب رئاسـة الجمهورية (كـان فيليب باسوس أحد الموقعين على هذا البيان وكان يقول فى نفسه إنه لا يوجد غيره يستحق هذا المنصب).

النقطة الثـانية: هى التى تؤكد أن هذا الشخص يجب أن يعينه معظم المؤسسات الأهلية باعتـبارها منظمات لا علاقة لها بالسـياسة ومباركتـها للرئيس المؤقت يحرره على هذا النحو من كل التزام حزبى ويفتح الساحـة لانتخابات حيادية كل الحياد ولا شائبة فيها».

ويستطرد البيان أن «لا حـاجة مُلحة إلى الصعود لجبال السيرا من أجل التداول إذ نستطيع أن نوفد ممثلين إلى هافانا أو إلى المكسيك أو إلى أى مكان تتطلبه الضرورة».

ولقد بذل (فيدل) قـصارى جهده لتعديل بعض التصريحـات المتعلقة بالإصلاح الزراعى كى تأتى أكثر عمـقا، ولكن يبدو أن من العسير كسر الجـبهة الموحدة التى كان يمثلها الرجعيان المذكوران.. ولهذا وجدت جريدة «دياريو دى لامارينا»[١] نوع الاحتيـاطات التى تستطيع أن تتقـبلها فيما أعـلن البيان من «إرساء القـواعد بهدف إصلاح زراعى من أجل توزيع الأراضى غير المزروعة» وقد اختتم البيان هذه الفقرة مؤكداً أن التوزيع يجرى بعد سداد التعويضات على الملاك السابقين.

إن بعض التهديدات التى وردت فى صلب هذه الوثيقـة لم تفِ بها الثورة بنصها الحرفى.. ويجب القـول إن الخصم هو الذى قـام بخرق الاتفاق فى البـيان وذلك برفضه الاعتراف بسلطـة السيرا.. وببذله أقصى الجهد لتقيـد الحكومة الثورية المقبلة مسبقا.. ولم تؤد هذه التسوية إلى ارتياحنا ولكنها كانت ضرورية حيث كانت خطوة إلى الأمام فى ظروف وأحوال هذه المرحلة.

وما كان يمكن أن تمضى إلى ما بعد اللحظة التى أصبحت فيها تمثل حائلا لتطور مراحل الثورة ولكننا كنا على استعداد من أجل التقيد بها، والعدو بخيانته هو الذى ساعدنا على تحطم تلك القيود والكشف عن نواياه الحقيقية للشعب.

ولقـد كنا نعرف أن ذلك البـيان لا يعـد سوى نواة بـرنامج، برنامج يقلص من جهودنا، ولكن لم يكن يغيب عن بالنا أننا لا نملك الوسائل التى تساعدنا على طرح إرادتنا من مرتفعات (السيرا مـايسترا) فكان يجب إذن الانتظار ردحا آخر من الزمن مع فصيلة كـاملة من الأصدقاء الذين كانوا يحاولون توظيف قوتنا العـسكرية والثقة العظمى التى وضعها الشعب فى شخص (فيـدل كاسترو) وذلك بهدف الحفاظ على مخططـاتهم وسيطرة الاستـعمـار على كوبا بواسطة البـرجوازية الواردة من أسـياد الشمال.

---

(١) جريدة يومية واجهت اتهاما بالرجعية تحولت إلى جريدة شيوعية بعد نجاح الثورة الكوبية.

كان للبيان نقاط مضيئة حيث وردت فيه السيرا مايسترا مثلا بهذه التعابير المقصودة.. لا ينخدع أحد بالدعاية الرسمية التى تتصل بالأحوال فى جبال (سيرا مايسترا).

إن (السيرا مايسترا) هى منذ الآن قلعة من القلاع التى لا تقهر وتأصلت جذورها فى أعماق جميع مواطنينا.

* * * *

معركة الأمبريتو

قبل أن يمضى شـهر على طابورنا كنا قد بدأنا نشعر بوطأة أخطار حـياة القعود التى نعيشها فى السيرا.

وكنا نعيش فى وادى «الأمـبريتو» (الرجل الصغيـر) الذى أطلق عليه هذا الاسم بسبب حـجرين كبيرين ذوى مـساحات شديدة التـسطيح على قمة المايسـترا حتى يتصور الناظر إليهما من أسفل أنه يرى شبحاً فى صورة قزم من الأقزام.

ولم نكن بعد إلا مـجموعـة من المتطوعين الجدد فلم يكن الرجـال مستـعدين لمواجهة محن مؤلمة وعـنيفة، ورغم ذلك فقد كانت احتياجـات حربنا الثورية تدفعنا قسراً إلى أن نواجه احتمال اندلاع معركة فى أية لحظة فقد كان واجبا تصفية حساب الطوابير التى قد تدخل هذا الجـزء من (السيرا مايسترا) التى يمكن أن نعـتبرها منذ مدة أرض كوبا الحرة.

وفى ٢٩ أغسطس أو بالأحرى فـى ليلة ٢٩ أغسطس أقبل إلينا فلاح ليـخبرنا أن جيشا كبيـرا يستعد للصعود إلى قمة المايسـترا بواسطة طريق «الأمبريتو الذى ينحدر إلى الوادى أو يستمر ناحية مرتفع (الكونرادو) ليخترق (المايسترا) وكان من شأن هذه الأنباء الخاطئـة التى أذاعها علينا هذا الرجل أن خلقت بداخلنا حصـانة ومناعة ضد كافة أنواع الرعب ووجدتنى أضعه فى حوزتنا كـرهينة لإرغامه على أن يقول الحقيقة وهددته بعقوبات قـاسية وعنيفة إن عاود لرواية الأنبـاء المغلوطة بيد أنه أقسم بأغلظ الأيمان على أن ينطق بالحق وأن جنود الحرس الحكومى احتشدوا فى مزرعة «خوليو زاياتيرو» على بعد كيلو مترين قبل المايسترا.

وانتظرنا الليـل لنتـوجه إلى المـكان لنحـدد نقـاط الحركـة وكـان على فـصـيلة «لالوسرديناس» أن تسـيطر على الجبهة الشـرقية من الموقع فى غابة من شـجيرات

الخشار الجافة وأن تصب نيرانها على الطابور حينما ينطبق على الطوق وكان على «راميرو فالديس ومجموعة الرجال المسلحين تسليحا أخف أن يشنوا من الجانب الغربى (الهجوم الصوتى) لنشر حالة من الرعب فى قلوب رجالنا.

وعلى الرغم من ضعف قوة النار التى لديه لم يكن فى مرمى الخطر على وجه الإطلاق لأنه هوة عميقة كانت تشكل عاملا فاصلا بينه وبين الحرس وينبغى على هؤلاء أن يجتازوها قبل أن يصلوا إليه.. وكان الممر الذى وجب عليهم أن يعبروه لكى يصعدوا بقع على جانب الجبل من الجهة التى نصب فيها (لالو) كمينه وحينئذ سيهاجمهم «سيرو» جانبيا وأما أنا فقد كنت مكلفا مع مجموعة صغيرة من الرماة المسلحين على أعلى مستوى من التسليح أن أعطى الأمر بإطلاق النار وذلك بإطلاق الرصاصة الأولى. ووقع الاختيار على أكفأ مجموعة من فصيلة (راميرو) وكانت بإمرة الملازم «راوول مركادر» حتى تصبح قوة الصدام لحصد ثمار النصر. وكانت الخطة من أسهل الخطط وهى تشير إلى جعل نحو ١٢ جنديا من جنود العدو يمرون على مفترق طريق صغير يتعرج فيه الطريق بزاوية تصل إلى ٩٠ درجة تقريبا لتدور حول صخرة كبيرة وبأن أطلق النار على آخرهم فى نفس اللحظة التى يعبر فيها الصخرة حيث ينعرج الطريق بحيث يبتعد هؤلاء عن بقية الطابور.. أما الآخرون فسوف ينقض عليهم رماتنا لتصفيتهم على جناح السرعة وتتقدم مجموعة (راوول مركادر) لكى تسيطر على أسلحة الجنود الصرعى.

بعد ذلك ننسحب بسرعة على أن تسترنا وتغطينا نيران مجموعة المؤخرة برئاسة الملازم «فيلوا كوينا» وعند الفجر كنا بالفعل محتشدين فى مزرعة لأشجار البن على الموقع المحدد «لراميرو فالديس» وكانت عيوننا جميعاً شاخصة أبصارها على بيت «خوليو زاباتيرو» من خلال مستوى منخفض على جانب الجبل.

ومنذ أن أشرقت الشمس بدأ كل شيء يتحرك واستطعنا أن نشاهد حركة الرجال الذين يخرجون ويدخلون ويذهبون ويعودون فى عملية الاستيقاظ المبكر..

وبعد قليل نصب بعضهم القبعـات على رؤوسهم وهكذا كانت تأكيدات الفلاح صحيـحة حيث أن طابور العدو يحـتشد بالفعل هناك وكان رجـالنا جميعـا يتأهبون لمواجهته فى نقاط القتال المعدة لهم غير أننى عدت قاصدا مركزى.

وكنا نرى صعود مقدمة الطابور الشاق. . وبدا لى أن الانتظار لا نهاية له وراحت أصـبعى ترقص وتلعب على زناد سـلاحى الجـديد بندقيـة (براوننج) الرشاشـة. . المستـعدة للدخول فى العـمل للمرة الأولى ضد العـدو. . وفى نهاية الأمر انتـشر وراج خبـر يشيـر إلى أن جنود العـدو بدورهم يتقـدمون ويقـتربون بل كنا نسـمع أصواتهم العالية وصيحاتهم المدوية.

والتف الجندى الأول حول الصـخرة الكبيرة وتبـعه الثانى والثـالث ولكنهم كانوا لسوء الطالع يسيرون فى حلقات متباعدة. ولهذا بدا واضحا أننا لا نستطيع أن نترك مجمـوعة منهم يمرون علينا مرور الكرام كمـا كان متوقعـا وما أن عددت الجندى السادس حـتى سمعت اسـتغرابا من المقدمـة ورفع أحد الجنود رأسه وكـأنه فوجئ بشىء. . عندئذ أطلقت النـار فسـقط الجندى السادس صـريعا فى الحـال وفى لمح البصر ساد إطلاق النار، وفى المجـموعة الثانية من طلقات البندقيـة الأتوماتيكية كان الجنود الستة قد اختفوا تماما.

وأصدرت أمرا بالهجوم فـقامت قوات (راوول مركادر) ومعها مـجموعة أخرى من المتطوعين الجدد كـانوا قد تأهبوا وارتقبوا تلك اللحظة ومن الجهـتين وقع العدو تحت نيراننا الكثيفة عليه.

وتقدم (ألفـونسو زاياس) و«ألسيبـيادس برمودس» (ورود ولفـوفاسكس) والملازم أورستش وهم من جنود المقدمة كما تقدم (راوول مركادر) نفسه ومن عند الصخرة المرتفعة بدأت قواتنا فى إطلاق النار على طابور العدو المكون من سرية واحدة بقيادة القومندان «مـيروب سوسـا» وانتزع (رودلفو فـاسكس) سلاح الجندى الذى أصبتـه بطلق نارى.

فى الواقع يجب الإقرار أننا تعرضنا لصدمة بالغة حينئذ حيث تبين لنا أنه كان ممرضا يحمل مسدسا بسيطا من طراز ٤٥ من مسدسات الحرس الريفى ومعه ١٠ أو ١٢ رصاصة . . أما الجنود الخمسة الآخرون فقد نجوا جميعا من قبضتنا وقد تركوا الطريق واتجهوا إلى أقصى اليمين بأقصى سرعة وقد هربوا عبر مجرى أحد الجداول القريبة.

وبعد قليل تعالت أصوات طلقات البازوس الأولى وقد أطلقها العدو بعد أن أفاق من صدمة المفاجأة وهو الأمر الذى لم يرد فى خاطره حين بدأ المسير فكرة لمواجهة قوات الثورة.

ولم تعمل البندقية «مكسيم» وهى قطعة السلاح الوحيدة الثقيلة التى كنا نملكها باستثناء بندقيتى الرشاشة ولم يستطع «خوليو بيريز» من إصلاحها أما من جهة «راميرو فالديس» فقد هاجم إسرائيل يادرو وخويل إيجليسياس للعدو بأسلحة تبدو كلعب الأطفال.

وأثناء ذلك كان رصاص البنادق ينطلق من جهتى اليمين واليسار وقد أثار عاصفة هائلة من الضوضاء أصابت جنود الحرس بحالة من الرعب والهلع وأصدرت الأمر بالتراجع لفصيلتى الجناحين، وعندما بدأنا فى الانكفاء فعلنا نحن مثلهما تاركين لمجموعة المؤخرة مهمة مواصلة إطلاق النار حتى مرور فصيلة «لالوسرد ينياس» لأن خطا ثانيا للمقاومة كان مستدركا وفى الوقت الذى كنا نتقهقر فيه التحق بنا (فيلو أكوينا) بعد أن قام بأداء مهمته وأبلغنا ساعتها بمقتل «هرمس ليفا» ابن خالة (خويل إيجليسياس» وفى طريق عودتنا شاهدنا فصيلة قادمة إلينا كان فيدل قد رأى أنه من المناسب أن يبعث إلينا وبدورى كنت قد أطلعته على قرب وقوع اشتباك مع قوات تتفوق علينا من حيث العدد.

وكان على رأس الفصيلة الكابتن «إيحناسيو بيريز) ومشينا حوالى كيلو متر على ما أظن. . وعلى هذه المسافة من مكان المعركة أقمنا كميننا الجديد على أمل وصول

رجال الحرس. . وتجمع هؤلاء عند المرتفع الصغير الذى كان ساحة للمعركة وقد أضرموا النيران فى جنة «هرمس ليفا» أمام أعيننا لكى يطفئوا نار غليلهم ويشبعوا شهوة انتقامهم.

وقد رأينا هذا المنظر الفظيع والنار كانت تغلى فى عروقنا لعجزنا عن القيام بأى رد انتقامى على هذه الصفاقة والخسة وإن كنا قد أطلقنا عدة طلقات من بنادقنا وبضع رصاصات من رشاشاتنا لكنهم أجابونا بطلقات مروعة من طلقات البازوكة.

وفى تلك اللحظة فقد ذكرت كلمة التعجب التى صدرت عن جندى الحرس الذى سبب إطلاقى النار على جناح السرعة «شيئا لذيذا» لقد قال ذلك ولاشك أنه أراد أن يعرب عن سعادته وبهجته ببلوغ قمة الجبل!!

وقد أوضحت لنا هذه المعركة إلى أى مدى كان استعداد قوتنا للقتال ناقصا فلم نكن حتى نملك القدرة على اطلاق النار بدقة على الأعداء الذين كانوا يمشون على مسافات قريبة جدا.

والواقع أنه لم يكن بين مراكزنا وبين مقدمة رتل العدو أكثر من ١٠ أو ٢٠ مترا) وعلى الرغم من كل شيء فقد كانت تلك المعركة بالنسبة إلينا انتصارا ضخما وهائلا ورائعاً. . حيث كنا قد أوقفنا زحف رتل «ميروب سوسا» الذى كان عند قدوم الظلام يتراجع وأحرزنا نصرا صغيرا على العدو حصلنا منه على مكافأة صغيرة جدا كانت عبارة عن قطعة سلاح قصيرة كلفتنا رغم ذلك حياة مقاتل شجاع من خيرة مقاتلينا. . وبقبضة من الأسلحة المتوسطة الفعالية واجهنا مجموعة كاملة لا يقل عدد أفرادها عن ١٤٠ رجلا مسلحين بكل ما تتطلبه الحرب الحديثة. . وقد دكوا مواقعنا بالبازوكا وإيما بمدافع الهاون أيضا وأطلقوا النار على رجالنا بغزارة كثيفة ولكن دون ضبط أكثر مما كانت قواتنا تصنع على المرتفع الذى تسيطر عليه المقدمة وبعد هذه المعركة أجريت ترقيات فرُقى (الفونسوزاياس) إلى رتبة

ملازم لشجاعته فى القتال. . وكانت هناك تنويهات وإشارات أخرى لأتذكرها الآن، وفى تلك أو فى اليوم التالى عقب تراجع قوات الحرس وانسحابها روى لنا (فيدل) وهو سعيد بل كان فى ذروة سعادته كيف أنه هاجم قوات باتيستا فى منطقة «لاس كويفاس» (المغارات) وقد روى أيضا أن رفقاءه كلهم تميزوا بالجسارة والشجاعة سقطوا قتلى فى هذا الهجوم وهم «خوفنتينو» الأركون من «مانزانيو» (وهو من أوائل المقاتلين) وباستور و«بايوكاستيو وأوليفر» وهو ابن ملازم فى الجيش الديكتاتورى ومقاتل كبير وشاب صلب عنيد وقوى مثل سائر الآخرين.

وكانت المعركة التى خاض فيدل غمارها أوسع نطاقا من معركتنا نحن فلم يكن الأمر مجرد كمين عادى كما كان حالنا ولكنه كان بالفعل هجوما واسع النطاق على أعلى مستوى على معسكر مجهز تجهيزا قويا وصلبا كالصخور للدفاع والمقاومة ورغم أنه لم يستطع تدمير قوات العدو بيد أنه سبب لها خسائر كبرى جعلتها تخلى الموقع فى اليوم التالى. . وكان أحد أبطال ذلك اليوم «الزنجى بيلون» المعروف بخبز السكر وهو رفيق كله شجاعة وبسالة.

وروى لنا أنه وصل أحد الأكواخ الذى كان فيه كمية من الأنابيب الغريبة وإلى جوارها صناديق صغيرة ولاشك أنها بازوكات كان العدو قد تركها. . ولكن فيلكس الزنجى بيلون) كان يجهل كل شيء عن هذا السلاح (ولم نكن بدورنا نعرف أكثر منه) فترك هناك كل قطع الحديد ثم اضطر أن ينسحب وقد أصيب فى ساقه وهكذا بددت عصابتنا فرصة كانت رائعة للسيطرة والاستيلاء على تلك الذخائر البالغة الفعالية فى الهجوم على تحصينات العدو الصغيرة.

وكان لمعركتنا تداعيات جديدة فبعد يوم أو يومين علمنا بتقرير خطى للجيش يعلن عن وقوع ٥ أو ٦ قتلى ثم علمنا أنه بالإضافة إلى رفيقنا الذى أضرموا فى جثته النيران قتل العدو أيضا ٤ أو ٥ فلاحين كانوا كما يزعم المجرم «ميروب

سوسا» مسئولين عن الكمين لأنهم لم يعلموا الجيش بوجود قواتنا فى الجوار ولعلى أذكر أسماءهم هنا وهم «أبيجاييل، كاليستو، يابليتو لوبون، (وهو بالمناسبة من أصل هايتى) وجونسولا جونسالين» وجميعهم غرباء عن نضالنا وكفاحنا. .

وإذا كانوا على علم بوجودنا فى القطاع أو لو كانوا يؤيدون قضيتنا كجموع الفلاحين فإنهم أبرياء على كل حال أبرياء كليا من المناورة التى كنا نجهزها. . ولعلمنا حق العلم بالأسلوب المتبع من قبل قادة جيش باتيستا كان من طبيعتنا أن نخفى نوايانا عن الفلاحين وإذا وقع أن مر واحد منهم بمكان كمين لنا أبقيناه فيما بيننا حتى يقع الاشتباك وقد حدث أن قام جيش باتيستا بقتل أربعة من الفلاحين المساكين الذين كانوا يعيشون فى أكواخهم وقد أشعل الجيش النيران فى تلك الأكواخ.

لقد أكدت لنا هذه المعركة كم هو يسير فى مثل هذه الملابسات الهجوم على رتل يتقدم ويزحف من أرتال العدو. . أضف إلى ذلك أننا أحسسنا وتأكد لدينا أننا قد صنعنا مخططاً تكتيكياً على أعلى مستوى من الذكاء والخبرة حيث كان هذا التكتيك يقضى بأن يطلق النار دائما على مقدمة الجيش السائر فى محاولة لقتل الجندى الأول أو أحد الجنود الأولين كى يرفض جميع الرجال الباقين التقدم.

على هذا المنوال واصلنا طريقنا لتجميد العدو، وقد تصاعدت حدة هذا التكتيك رويدا رويدا وانتهى بأن صرنا نقتفى أثره بدقة متناهية بحيث اضطر جيش العدو إلى التخلى بكل بساطة عن الدخول إلى منطقة سيرا مايسترا ولم يعد أحد من جنود هذا الجيش يقبل أن يكون من جنود المقدمة وأحدثت حركات التمرد الناشئة فضائح متعددة ولكننا لم نكن قد وصلنا هذه المرحلة بعد حين نشبت المعركة التى نتحدث عنها هنا.

ولقد تحدثنا (فيدل وأنا) عن الأعمال الصغيرة التى جرت فى المعركة بكل حذافيرها تلك الأعمال التى كانت رغم ذلك كبيرة نظرا للتفاوت الكبير بين جنودنا

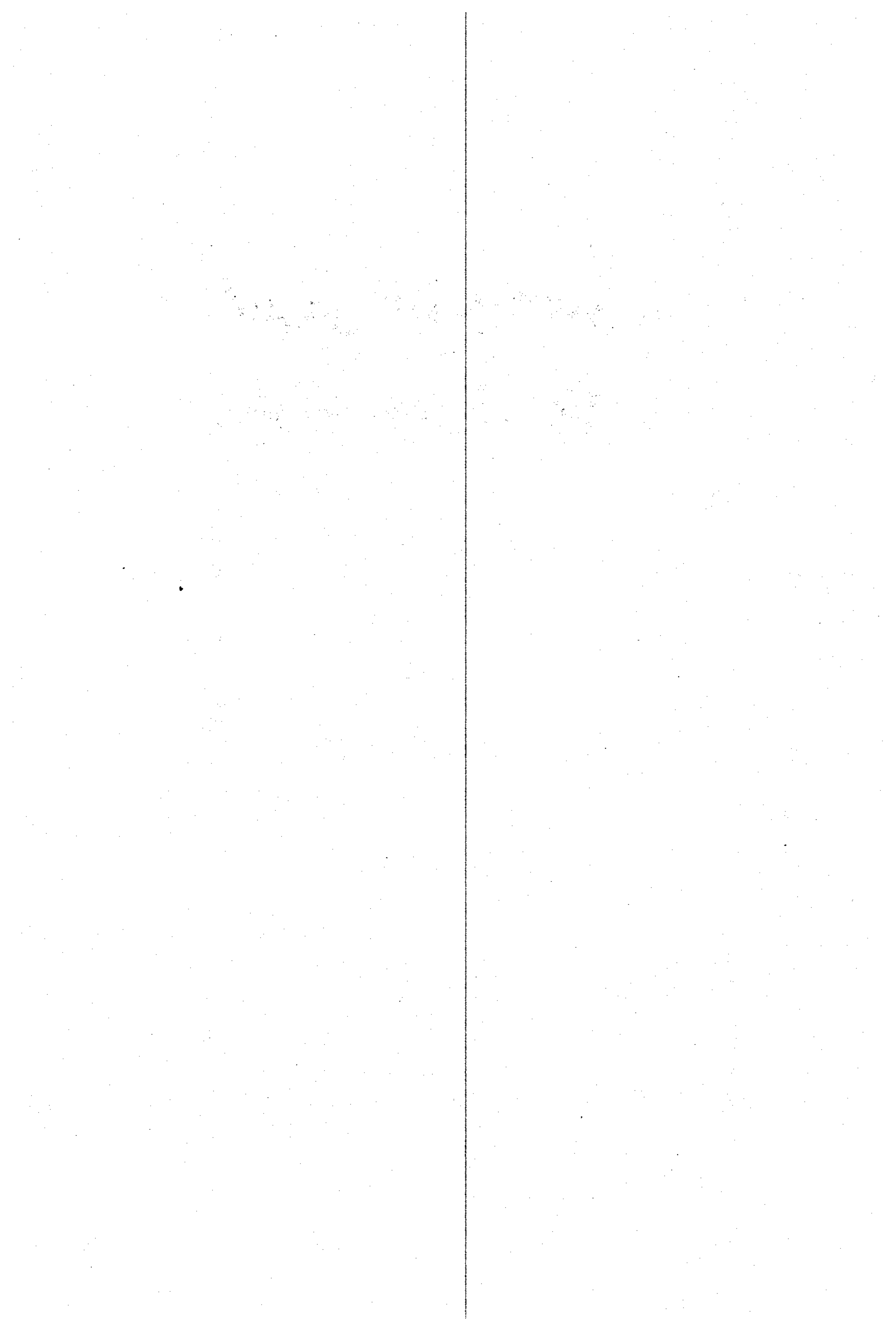
المسلحين تسليـحا فقيرا وقوات القـمع والقهر الديكتاتورى التى لم يكن ينقـصها أى شىء.

ومنذ ذلك الوقت بالتحديد هجـرت قوات باتيستا (السيـرا) بشكل نهائى والقائد الوحيد الذى دخلها بعد ذلك مرات نادرة على أية حال بعلامات ومظاهرة شجاعة وجسورة كان (سانتشس موسكيرا) أشجع قواد (باتيستا) العسكريين وأكثرهم تعطشا للدماء والصوصية.

* * * *

الفصل الثانى عشر

معركة بينودل أجوا



الفصل الثانى عشر
معركة بينودل أجوا

بعد أن التقـينا مع فيدل فى ٢٩ أغسطس مشينا عـدة أيام تارة فى حشد وطابور واحد وتارة أخرى تباعدت بيننا المسافات وكـنا قد قصدنا بذلك المرور مـعا بمنشرة «بيتودل أجوا» صنوبر الماء..

وكنا قد أبلـغنا أنه لم تكن هناك فى تلك الأثناء قوة للعـدو أو لم يكن هناك إلا قوة صغيرة على الأكثر.

وكان مخطط (فيـدل) يتلخص فيما يلى: أن نقوم بأسر القوة الصـغيرة فى حال وجودها وإذا لم تكن موجـودة أثبتنا نحن وجودنا على أن يتوجه هو وجـيشه باتجاه قطاع «تشفيريكو» فيـما نبقى نحن مختفين فى انتظار جيش بـاتيستا الذى سوف يأتى فى مثل هذه الحـال دون أى تكاسل ليظهر قـوته ويبدد النتـائج الثورية التى يخلفـها مرورنا فى نفوس الفلاحين وفى خلال الأيام التى سبقت معركة «بينو دل أجوا» أيام كنا نسير فى مسافات طويلة قـادتنا من (دوس براسوس دل جوايابو) (ذراعا القوافة) إلى مكان المعركة.. وقعت حـوادث مختلفة لعب أبطالها الرئيسيـون فيما بعد دورا فى تاريخ الثورة.

لقد كـان واجبنا أن نواجـه هروب فلاحين اثـنين من أبناء المنطقة همـا «مانوول ويويوبياتون» اللذين كانا قد انخرطا فى صفوف المقاومـة قبل وقت قصير من معركة الأوفيرو.

وكانا رفيـقينا فى القتال فى هذا اليـوم أما الآن فقد غادرا مـعسكر نا وبعد ذلك عاد هذا الشـخصـان إلينا فكشف فيـدل عن خيـانتهمـا ولكنهمـا لم يرتفعـا فوق

مستواهما على الإطلاق فقد كانا شقيين نصف بدوين ولسبب شخصى اغتال مانولو القومندان (كريستينونارانخو) بعد نجاح الثورة ونجح فى الهرب من قلعة كابانيا حيث اعتقل ثم شكل عصابة صغيرة فى المكان نفسه الذى كان قد قاتل فيه فى السيرا مايسترا.

وفى تلك الأثناء اغتال (بانتشو تامايو) رفيقنا المقدام الذى انخرط فى صفوفنا منذ بواكير الثورة الأولى. . وأخيرا اعتقلت جماعة من الفلاحين «مانواو» وشقيقة (يويو) واعدم الاثنان رميا بالرصاص فى سانتياجو.

ووقع حادث مؤسف آخر حيث جرد الرفيق «روبوتورودريجس) من سلاحه لعصيانه الأوامر الصادرة إليه، وكان يتصف بالفوضى الشديدة فأخذ منه ملازم مجموعة سلاحه كحق من الحقوق النظامية فما كان من روبرتو إلا أن أخذ مسدس أحد الرفقاء وأطلق الرصاص على نفسه ووقع سوء فهم بسيط للغاية فى شأنه حيث أبديت معارضتى فى الواقع من حيث تقديم مراسم عسكرية لتكريمه فيما اعتبره الرفاق المقاتلون أنه قتيل آخر ضمن قتلاهم. . ولكنى بينت لهم أن الانتحار فى ظروف مماثلة هو عمل قبيح يورط صاحبه ويدينه مهما كانت مزاياه وانتهى الأمر بالرجال إلى التحلى بالهدوء حتى أنهم قد اكتفوا بالسهر على الجثمان بدلا من تقديم مراسم عسكرية لتكريمه وقبل يوم أو يومين كان (روبرتو) قد روى جزءا من تاريخه

لقد كان دون ريب شابا شديد الحساسية وبذل جهدا كبيرا فى محاولات للتوافق والتكيف مع الحياة التى تعيشها عصابتنا خاصة ما يتعلق بالنظام الذى يجد فيه كل ما يتعارض مع ضعف بنيته الجسدية وغريزته بوصفه ثائرا.

وبعد مرور يومين بعثنا مجموعة صغيرة إلى «لاس منياس دى بويستون» لتستعرض بها قوتها حيث كان اليوم هو الرابع من سبتمبر وكان يرأس هذه الفرقة

الكابتن «سيرو ردوندو» فعاد إلينا بأسير يدعى (ليوناردو بارو) وقد لعب هذا الأسير دورا هاما فى صفوف أعداء الثورة وظل أسيرا لدينا وقتا طويلا وفى أحد الأيام روى لنا حكاية مؤثرة وحزينة تتعلق بمرض والدته وقد كان صادقا فى أقواله وحاولت رغم ذلك أن أجعل لإطلاق سراحه تداعيات سياسية واقترحت عليه أن يأخذ باصا لكى يرى والدته فى (لاهافانا) ثم بعد ذلك يطلب اللجوء السياسى إلى أى سفارة معلنا رغبته فى التوقف عن العمل المسلح ضدنا على أن يشجب النظام الحاكم أقصد نظام باتيستا) ولكنه رفض أن يشجب النظام متذرعا بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك خوفا على أشقائه من مطاردة النظام لهم وتصفيتهم جسديا. . وكان أن توصلنا لاتفاق نهائى وهو أن يكتفى بالتصريح وهو يطلب اللجوء بأنه لم تعد لديه الرغبة فى مواصلة القتال وبعثناه مع أربعة رفقاء. وأعطى هؤلاء أمرا مقصودا بمنعه من أن يرى أيا كان فى الطريق رغم أنه كان يعرف عددا من الفلاحين الذين أقبلوا لرؤيتنا فى المعسكر. . يضاف إلى كل ذلك أن على الرفقاء الأربعة المكلفين بمرافقته أن يترجلوا معه المسافة كلها سيراً على الأقدام حتى مداخل (بايامو) حيث يستطيعون أن يتركوه ثم يعودوا إلينا من خلال طريق آخر مغاير للطريق الذى سلكوه.

لكن هؤلاء الرفقاء الأربعة لم يستجيبوا لأوامرنا وتعليماتنا وتركوا عددا كبيرا من الناس يرونهم بل إنهم عقدوا اجتماعا شعبيا حضره (يارو) على اعتبار أنه مؤيدا ومباركا للثورة ثم أخذوا السيارة الجيب واتجهوا بها إلى «بايامو» وفى أثناء ذلك تعرضت لهم قوات باتيستا وقتلوا الرفقاء الأربعة ولم نعرف أبدا هل كان «بارو» قد غمس يديه أو لم يحدث ذلك فى هذه الحادثة البشعة لكنه ظل يعيش بشكل متواصل فى (لاس ميناس دى بريستيو) وقد وضع نفسه تحت إمرة السفاح «سانتشس موسكيرا» وراح يميز من بين هؤلاء الذين جاءوا لشراء حاجاتهم . . الفلاحين الذين كانوا على اتصال بمجموعتنا ويرشد إليهم جيش الطغيان.

ومن هنا كلف الخطأ الذى ارتكبته شعبة كوبا ضحايا لا تعد ولا تحصى وبعد أن انتصــرت الثورة بعدة أيام تم اعتــقال بارو وصدر ضده حكم بالإعــدام ونفذ على الفور.

وعلى إثر ذلك نزلنا (سان يابلو دى باو) فـاستقبلنا الأهالى بحفــاوة بالغة واحتللنا القرية الصغيرة عدة ساعــات دون حاجة إلى القتال (إذ لم تكن هناك أية قوة للعدو) وأقـمنا الاتصالات. . وتعـرفنا بشكل إيجـابى على أشخـاص مـختلفـين من أبناء الموقع. . ووضعنا كل ما استطعنا أن نحشد من أمـتعة وبضائع فى شاحنات جاء بها التــجار إلينا وقــد باعوا لنا البـضاعــة بالدين حيث كنا آنذاك ندفع المال مــن خلال إيصالات مـؤقتــة (وهذه هى المناسبــة التى عرفنا فــيها ليـدياودوس التى أوحت إلىَّ ذكراها مــا أشرت إليه فى فـصل سابق من هذا الكتــاب وتولينا بأنفسنا قــسرا نقل البضائع وبالطبع كان هذا عسيرا على أنفسنا حيث إن الطريق التى نصعده من (سان يابلودى باو) إلى (بيكوفـردى) (القــمة الخـضراء شــديدة الانحدار ولا تــتمكن من تسلقها إلا الشاحنات الخفيــفة الأحمال والمزودة بدايفرنسييل[١] مزدوج أمــا شاحناتنا فقد توقفت فى الطريق ومن ثم كان علينا أن نحــمل المؤن على ظهور البغال وظهور الرجال أيضــا إن هذه الأيام قد شــهدت عــددا من تدابير الفصل حــيث طرد من العصابة من المقاتلين الممتــازين لأنه ترنح من أثر الكحوليات أثناء الحملة فى (ياو) مما تسبب فى تعريض رفاقه للخطر الجســيم. وترك آخر هو «صورفى سوتوس» مركزه بصفته رئيس فصيلة وانطلق متجها إلى ميامى حاملا رسالة توصية من (فيدل).

والواقع أن سوتوس لم يتمكن - بحال من الأحــوال - من الانسجام مع السيرا ولم يكن رجاله يحملون له الحب بسبب عصبيته واستبداده وقد كانت سيرته تتأرجح بين الفشل والنجاح.

(١) الديفرانسيل هو جهاز ينقل قوة المحرك إلى دولاب السيارة الخلفية وذلك لحفظ توازنها.

وفى ميامى كان موقفا مترددا على الأقل ثم سرعان ما عاد مرة أخرى إلى صفوفنا ومن ثم منحناه عفوا وغفرنا له أخطاءه التى ارتكبها سابقا ثم خان فى عهد (هوبرت ماتوس) وصدر ضده حكم بالسجن لمدة عشرين عاما بيد أنه نجح فى الهرب بالاتفاق مع أحد الحراس واتجه إلى ميامى وكان يقوم بإعداد وتجهيز الخطوات الأخيرة والنهائية لغارة من غارات القرصنة فى الأرض الكوبية عندما لقى مصرعه إثر صعقة كهربائية فى حادث أليم.

ومن بين الرفقاء الذين غادروا معسكرنا فى ذلك الوقت نذكر أيضا «مرسيليو فرنانديس» الذى كان يقوم بتنظيم وإعداد وترتيب الحركة فى المدن وقد عاد إلى السهل بعد أن عاش بيننا فترة طويلة.

وبلغنا (بينودل أجوا) فى العاشرة من سبتمبر وهى قرية صغيرة شيدت مبانيها حول منشرة فى قلب الغاب فى المايسترا.

وفى ذلك الحين كان على إدارتها رجل أسبانى الأصل وهى تضم حفنة من العمال ولا يوجد فيها جندى واحد، وقد احتللنا القرية وكشف فيدل لأهلها عن خط سيره على اعتبار أنه لابد أن يكون هناك واحد منهم سيذهب لنقل حديثه إلى الجيش وقمنا بإجراء مناورة صغيرة من أجل الخداع والتمويه فيما كان رتل (فيدل) يواصل تقدمه ناحية (سانتياجو) يعلم الجميع وأمام أنظار الكل تعرجنا أثناء ساعات الليل واحشدنا فى كمين نصبناه بانتظار جيش العدو.

ووزعنا الرجال بشكل يمكننا معه أن نرصد جميع شاحنات العدو ووسعنا نطاق المراقبة حتى الطريق الذى ينتهى من (ياو) إلى البيكو ثردى) - القمة الخضراء - على بعد عدة أميال قبل بينودل أجوا دون أن نهمل الطريق الأكثر سهولة الذى يصعد إلى المايسترا ولا يمكن أن تسلكه الشاحنات وكانت السرية التى تمركزت على القمة الخضراء صغيرة جدا مسلحة ببنادق الصيد ولديها أوامر بإصدار إنذار عند

الضرورة. . حيث كانت تلك وسيلة رائعــة للتراجع والانسحاب كنا ننوى فى الواقع أن نتبعها عقب انتهاء العمليــة وأسند إلى «إينخينيو، ميخيراس» برصد إحدى الطرق الخلفية التى تأتى هى أيضا من قطاع القمة الخـضراء وبقى «لالوسردينياس» وفصيلته فى منطقــة (زاياتو) لحراسة عــدد من الطرقات المفـتوحة من أجل توظـيف الغابات وتنتهى على ضفة «البيلادوير» ولكن هذه الاحتياطات كانت غير ضرورية حيث كان العدو لكى يصل لهذه الطرقات أن يقوم بمواصلة السير الطويل فى قلب الجبل.

أضف إلى ذلك أنه لم يكن مــن عادات العــدو أن يمــشى فى رتل جنديا وراء الآخر من خلال الغابة وكلف «سيرو ردندو» مع فصيلة بكامل أسلحتها بالدفاع عن مدخل سيبريا».

وانتظرنا الجيــش على طول الطريق الصاعد من (جـيزا) فى غــاب على منحدر الجبل لكى نتمكــن من مباغتة الشــاحنات ونركز عليها طلقات نـيراننا وكان الوضع الذى وقع اختيارنا عليه يساعدنا على رؤية الشاحنات القادمة من مسافة.

وكانت الخطة بسـيطة. . فسنطلق على العــدو النار من الجانبين فنقـوم بتجمـيد الشاحنة الأولى عند أحد المنعطفات ونطلق النار على كــافة الشاحنات الأخرى حتى نوقف تقدمــها والفصيلة التى تقـوم بالعمل لابد أن تملك فى حوزتها أكـفأ وأحدث الأسلحة وقد أقبل بعض رجال الكابتن (راوول كاسترو مركاردر) لتعزيزها.

وبقينا سبعة أيام تقريبا فى الكمين نـتحلى خلالها بالصبر والتريث دون أن يتضح لنا أى شىء وفى اليـوم الســابع جاء من ينذر بأن العــدو يقـترب وبما أن الطرقــات الصاعدة تتصف بالانحدارات الشديدة فقــد ترامى لمسامعنا ضجيج الشاحنات التى كانت فى طريقها لشق الطريق الجبلى. . وقبل وقوع الاشتباك بحوالى عشرين دقيقة انهمرت الأمطار الشديدة وقد بللتنا بالماء ورغم ذلك فقد كان جنود العدو يتقدمون مهتــمين بالمطر أكثر من اهتمــامهم بإمكان وقوع هجوم عليــهم وكان الرفيق الذى

كلفناه بفتح النار حامـلا بندقية من طراز (تومسون) وقـد فتح النار بالفعل لكن دون أن يصاب أحد.

وساد إطلاق النار وإذا بجنود الشاحنة الأولى قد أخذتهم الدهـشة حيث باغتتهم نيراننا وتملكهم الهلع بسبب هجومنا وراح كل منهم ينجـو بنفسه ويلقى بكل جسده من الشاحنـة على الطريق ويختفـون وراء الصخـور بعد أن قتلوا مـقاتلا من كـبار مقـاتلينا هو شاعـر طابورنا ويدعى «خوسـيه دى لاكـروس» «يوسف الصليب وكنا نسميه «كروستيو» الصليب الصغير.

واختفـى جندى من جنود العدو تحت إحدى الشاحنـات عند المنعطف ولم ينشأ أن نرفع رأسنا بسببه..

وكانت قد مضت دقيـقة أو دقيقتان على بدء اندلاع المعركة حـينما بلغت ساحة القتال فـوجدت أن كثيرا من الرجال يقـوم بعملية انسحاب فى تنفيـذ أمر خاطىء، الأمر الذى يكثـر وقوعه أثناء المعـارك وعلى إثر ذلك تعرض أركـيموس فـونسيكا) لإصابة فى يده عندما كان يتناول البندقية الرشاشة التى تخلى عنها خادمها.

كان يجب أن نصدر أوامرنا وتعلـيماتنا بأن يعود الجميع إلى مراكـز القتال وكان لابد أن نطلب من قوات «لالوسردينياس» (وافيخينيو أمينخيراس» أن تتعاون معنا.

وكان يوجد على الطريق مقاتـل يدعى تاتين فعندما كنت أهبط هذا الطريق قال لى بصوت ينطوى على لهـجة عنيفة إنه هناك تحـت الشاحنة فلنذهب.. فلنذهب، «استجمـعت شجاعتى وقد أصـبت بصدمة قوية بسبب صرخـاته الجبانة هذه ولكن حين حاولنا أن نقترب من جندى العدو الذى يطلق النار من تحت الشاحنة أدركنا أننا سوف ندفع ثمن شجاعتنا غاليا وبسبب تهورنا واستعجالنا.

وكان عدد شاحنات الجيش خمسا وهى تـقل سرية واحدة وقد نفذت المجموعة التى يأمرها «أنطونيو لوبيز» التعليمات المعطاة لها بألا نترك أى أحد يمر بعد اندلاع

القتال أحسن تنفيذ ورغم ذلك فقد تمكن عدد من الجنود بمقاومتها القوية من أن يحولوا دون تقدمنا.

ووصل (لالو) (وافيخينيو) لتشجيع وتعزيز قوتنا فاقتحما الشاحنات وأزالا بؤرة المقاومة، وأخذ الجنود يهربون إلى المنحدر... بعضهم تشتت وبدا فى حالة من الفوضى وبعضهم فى شاحنتين أنقذوهما متخلين عن كافة الذخائر.

وبفضل «جيلرتوكالديرو» تمكنا أن نحصل على معلومات حول بعض خطط الأعداء وكان هذا الرفيق قد وقع أسيرا خلال مهمة استكشافية فى قطاع آخر.

وظل معتقلا بعض الوقت وجاء به العدو إلى هناك ليقوم بتسميم فيدل وكان يكفى أن يصب كمية من السم فى طعام قائد الثورة وحين سمع كالديرو الطلقات النارية نزل من الشاحنة مثل باقى الجنود ولكن بدلا من أن يهرب من النار راح يقدم نفسه إلينا فى الحال وعاد إلى صفوفنا.

وعندما تحرينا الشاحنة الأولى وجدنا قتيلين ومصابا واحدا كان لايزال يقوم بحركات مقاومة عندما بدأ فى الاحتضار فأجهز عليه أحد رجالنا بكل برود.

وكان المسئول عن هذا العمل الوحشى مقاتلا أباد جيش باتيستا أفراد عائلته كلها.. فوجهت إليه تأنيبا عنيفا دون أن أشعر بأن أقوالى يسمعها جندى جريح آخر كان يختفى تحت عدد من المعاطف وبقى فى داخل الشاحنة دون أن يحرك ساكنا فشجعته بأقوالى وبأننى لن أمس شعرة منه فإذا به يكشف عن وجهه القناع ويتوسل إلينا ألا نقتله.

وكانت ساقه مكسورة وكلما اقترب منه أحد مقاتلينا صرخ بأعلى صوته: لا تقتلونى.. لا تقتلونى.

إن تشى يقول أنكم لا تقتلون الأسرى» وعندما انتهت المعركة قمنا بنقله إلى المنشرة وأوليناه رعايتنا الطبية أما فى الشاحنة الثانية فلم تنزل بالعدو إلا خسائر طفيفة ولكننا ربحنا منها كمية كبيرة من الأسلحة.

هاك المغانم الختامية للمعركة: بندقية أتوماتيكية وخمس بنادق من طراز «جاراند» ورشاش ذو قواعد مع ذخائره وبندقية أخرى من طراز «جاراند» أيضاً اعتبر أفيخينو الذى كان يمثل مع رجاله جزءا من رتل فيدل أن مساهمة فصيلته فى القتال كانت مساهمة حاسمة وأن له حقا فى بعض الأسلحة التى ربحناها كغنائم.

ولكن فيدل ترك لى رئاسة هذه الفصيلة لمجرد رغبته فى أن يدعم سلطتنا وهكذا عمدت وبالرغم من جميع اجتماعات رجال أفينخينو إلى توزيع المغانم على رجال رتلى باستثناء بندقية جاراند التى كان قد أخذها افينجيو.

وأعطى الرشاش من طراز «براوننج» لانطونيو لوبيز لأدائه الرائع فى المعركة ووزعنا بنادق جاراند على الملازم خويل أيجليسياس وفير يللس وأوفيانى ومقاتلين آخرين لا أذكر أسميهما وأشعلنا النيران فى الشاحنات الثلاث حيث كان يتعذر علينا استخدامها.

وفيما كنا نجتمع راحت الطائرات الحكومية تحلق وقد بلغها خبر الهجوم ولكن بضعة رشقات باتجاهها أجبرتها على الابتعاد وكان منجولو أحد الإخوة «ياردو» قد ذهب يبلغ (فيدل) باقتراب الحرس الحكومى، ولكننا قررنا أن نبعث إليه موفدا آخر يحمل له نتائج المعركة.

وبعثنا إلى (سيرو) نقول له إن واجبه أن ينسحب من موقعه وكلف بهذه المهمة «مونجومارتينس».

وبعد لحظات قليلة سمعنا طلقات نارية حيث اكتشف عدد من رجالنا المسلحين بمجموعة من بنادق الصيد جنديا يتقدم متخفيا فطلبوا منه ن يتوقف بيد أنه حاول أن يقاوم فأطلقوا نحوه النار فهرب تاركا بندقيته وحمل إلينا الرجال البندقية وهى من طراز «سبرنجفيلد للتدليل على عملهم ويقظتهم..

وقد استغربنا أن لايزال هناك جنود مشتتون فى القطاع ورغم ذلك دخلت البندقية فى حسابنا وبعد يومين اثنين رأينا «مونجومارتينس» يعود وروى لنا أن جنود

الأعـداء باغتـوه وأطلقوا علـيه النار ببنادق صـيد وأنـه اضطر للهرب لأنه تعـرض للإصابة وكانت تبدو على ملامحه آثار الفزع.

وإذن علمنا من أين جاءت بندقية (سيرنجفـيلد) التى غنمها رفقاؤنا من بين أنياب العدو.

كانت النتـيجة أن رفيـقنا الجريح ظن جنود الحرس قـد اقتربوا منه فـسلك طريقا أخرى وتوارى فى البرية دون أن يتمكن من إبلاغ «سيرو ردوندو» بمعركتنا ودون أن ينقل إليه الأمر بالانسحاب وفى اليوم التـالى أرسل إلينا (سيرو) برسول فكررنا عليه الأمر.

* * * *

وفيما كانت الطائرات من طراز «ب ٢٦» تحلق فوق المنشرة على ارتفاع منخفض للبحث عن الضحايا كنا نحن نتناول إفطار الصباح بكل هدوء.

لقد جلسنا فى اتجهات مختلفة من المبنى نشـرب الشوكولاتة الساخنة التى تقدمها إلينا سـيدة المنزل المضطربة وتحليق الطائرات لاينتـهى وانتهى الأمـر بالطائرات إلى الاختفـاء وكنا على وشك أن نرحل بشكل هادئ للغاية عندمـا شاهدنا على طريق سيبريا وهى التى كـان سيرو يراقبها قبل بضع ساعـات، أربع شاحنات مليئة بالجنود وكان هـؤلاء مجمـوعة أخـرى جاءت فى الاتجـاه المعاكس تنضـم إلى المجمـوعة الأولى.

وكان بمقـدورنا أن ننقض عليهم بكميـن مشابه ولكن الوقت داهمنا حـيث كان عدد كبـير من رجالنا قد عاد إلى مـواقع أكثر سلامة وأمنا فـأطلقنا النار مرتين فى الهواء.. وكـانت هذه علامة للانسحـاب - ومن ثم رحلنا فى هدوء تام وفى هذه المعركة الهامـة بما كان لها من أصداء وتداعيات سقـط ثلاثة قتلى وجرح واحد فى

صفوف العدو وأسرنا بالإضافة إلى ذلك جنديا واحدا اعـتقلته فصيلة «أفيخينيو» فى اليوم التالى عندما فتشنا المنطقة تفتيشا متناهى الدقة للمرة الأخيرة.

وكان هذا الأسير العـريف «أليخاندرو الذى بقى معنا حتى نهـاية الحرب بوصفه طباخا.

وفى المكان نفسه دفنا «كـروستيو» وسط الحزن الشـديد والعام الذى سيطر على جميع الرجال الذين فقدوا فيه رفيقا ممتازا كما فقدوا فيه شاعرهم الفلاح.

وفى هذه المعركـة ينبغى أن نشير إلى مـا قام به «أفيخـينيوا أميخـيراس» و(ولالو سردينيـاس) والكابتن (فيكتورمورا) والمـلازم (أنطونيو لونيز) ومجـموعته ودرمـيرو أسكالونا وأركميـدس فونيكاس ولهذا الأخير سـلمنا الرشاش ذا القواعد ليسـتعمله بعد أن تشفى يده.

أما من جانبـا فقد فقدنـا قتيلا وأصيب أحـدنا بجرح طفيف كما أصـيب بعضنا برضوض وخدوش دون أن ننسى الحروق التى أصابت مونجو المسكين.

وغادرنا «بينو دل أجوا» بعـد أن اتبعنا خطوط سير مختلفة وكـان علينا أن نجتمع فى جهة القمة الخضراء ونعيد هناك تنظيم أنفسنا بانتظار وصول الرفيق فيدل.

وقد أظهر لنا تحليل المعركة أنها لم تكن تخلو من أخطاء كبرى ارتكبت وإن كانت قد أحرزت نصرا سياسـيا وعسكريا كبيرا فقد كان يتوجب اسـتغلال عنصر المفاجأة بشكل واسع من أجل إبادة جنود الشـاحنات الثلاث الأولى نهـائيا أضف إلى هذا وذاك أن أمرا بالانسـحاب كان خـاطئا صدر بـعد بدء القتـال الأمر الذى أدى إلى إضعاف السيطرة على الرجال وخفف حميتـهم وحماسهم للقتال. . ولاحظنا فتورا فى الاندفاع للسيطرة على الشـاحنات التى لم يكن يدافع عنها من جنود العدو إلا عددا قليلا.

يضاف إلى ذلك أيضا أننا عـرضنا أنفسنا للخطر بحمق إذ قضـينا ليلة كاملة فى المنشرة وأن انسحابنا الأخير حدث بفوضى عارمة وعشوائية شديدة.

وكل هذا أوضح لنا مـدى الضـرورة الملحة والرغـبة الـعارمـة من أجل تطوير وتحديث نظام قـواتنا وإعدادها إعـدادا أفضل للقتـال - وهى المهمة التـى وهبنا لها أنفسنا فى الأيام التالية.

* * * *

كاسترو رئيسا للوزراء

كانت حـركة السهل كلهـا تتخذ العدة بشـكل محموم لإعـلان إضراب ثورى عام. وتشكلت هيئة هى الجبهة العماليـة الوطنية تديرها وتوجهها من بعيد حركة ٢٦ يوليو وقد وقعت فى بواكيرها فريسة مرض الفئوية.

ومن جانبـهم أظهر العمال شيـئا من الملل نحو تلك المنظمـة الوليدة التى تلونت بألوان (٢٦ يوليو) والتى كانت أهدافـها ومراميها راديـكالية بشكل حاد وعنيف وهو ما لا يتواءم مع ظروف وأحوال تلك المرحلة.

وقبل ٩ إبريل ببضعة أيام أصدر فيدل كاسـترو بيانا أخيرا وجه فيه تهديدات إلى جميع الذين لم يتخـذوا طريق الثورة . . . وبعد وقت قصير أتبعه بـيان آخر وجهه إلى عمـال كوبا جميـعا يحثهم من خـلاله على الوحدة فى قلب الجبهـة الوطنية أو خارجهـا ذلك أن فيدل تنبه إلى أن الجبـهة هى فقط التى سوف تبـقى دوما لا تقوى على إعلان الحرب.

واتجهت قواتنا إلى الميدان ونزل الكابتن (كامـيلو سينفويجوس) قائد الطابور الرابع آنذاك. . إلى سـهول أورنيـتى من ناحـيـة (بايامو) حـيث أسـرع فى فرض ونشـر الاضطرابات والقلق والموت بين صفوف الأعداء.

ومع ذلك جاء (٩ أبريل) وأصبح نضالنا كله دون ثمار.

حيث إن الإدارة الوطنية للحركة ارتكبت خطأ جسـيما فى مبادئ وقيم ومنظومة الكفاح الشـعبى ومن ثم حاولت أن تبـدأ فى تفعيـل إضراب دون أن تعلن عنه فى السابق بشكل مفاجئ بواسطة إطلاق طلقات نارية.

وكما كان متوقعا رفض العمال المشاركة، ومات عدد هائل من كبار رفقائنا دون مقابل فى طول البلاد وعرضها. . لقد كان يوم ٩ أبريل نموذجا للفشل الذريع حيث

أخفقنا فى أن نزعـزع أركان النظام لحظة واحدة وبعد ذلك اليـوم الرهيب استطاعت أن تسحب قـواتها وتحشـدها بالتدريج فى أورنيـتى من أجل نشر الدمـار حتى فى السيرا.

فكان من واجـبنا تعزيز دفـاعنا باستمـرار لكى نتوغل أكـثر عـمقا فـى الغابات وضاعـفت الحكومة بدورها عدد الفـصائل التى وضعتـها فى حالة تأهب قـصوى لمواجهتنا حتى أصبـح تحت إمرتها ١٠ آلاف جندى فى المنطقة. فى ذلك الوقت بدأ هجوم ٢٥ مايو فى قريـة (لاس مرسيدس) التى كانت نقطتنا الأمامـية وكان ضعف مواردنا وقلة إمكاناتنا حـيث كنا نملك ٢٠٠ بندقية فى حـالة جيدة للقتـال ضد ١٠ آلاف سلاح من كل نوع.. فمـا أوسع الفرق، ومن جهة أخـرى كان يمكن بهذه المناسبة قيـاس معدل الملل الذى كان يبديه جيـش باتيستا فى القتال لقـد كان رفقاؤنا يقاتلون كـالأسود خلال يـومين متـواصلين بنسبة تـعادل واحد إلى خـمسة عـشر واضطر العدو إلى استـخدام الدبابات والمدافع والطيران لإجبـارهم على ترك القرية وكان رجالنا القليلو العـدد بقيادة الكابتن «أنجيل فرديسيا» الذى قـتل بعد شهرين فى قلب ميدان القتال.

وفى أثناء ذلك تسلم فيـدل كاسترو رسالة من العـميل الخائن «أولوخيو كـانتيو» الذى كتب بدهاء ومراوغـة كعادته بوصفه سيـاسيا قذرا غير شـريف وأيضا كرئيس لعملـيات العدو إلى قـائد الثورة يقـول له إن الهجوم سـيسـتمر بأى وسـيلة ولكن سيوفرون (الرجل) (أى فيدل) ينتظر النتيجة النهائية وجرى الهجوم مجراه فعلا وبعد استمرار المناوشات والاشـتباكات طوال شهرين ونصف الشهر فـقد العدو أكثر من ألف رجل بين قتيل وجـريح وأسير ومفقود وترك لنا ٦٠٠ قطعـة سلاح منها دبابة واحدة و١٢ مدفع هاون و١٢ رشاشـا من ذوى القواعد فضلا عن عشـرين بندقية رشاشة وكـمية كبـيرة من الأسلحة الأوتومـاتيكية دون أن نشير إلى الكمـية التى لا

تصدق من التجهيزات والذخائر من كل نوع أضف إلى ذلك ٤٥٠ أسيرا قمنا بتسليمهم إلى الصليب الأحمر فى نهاية الحملة.

هذا الهجوم الشهير الأخير على السيرا مايسترا) قد كان ضربة قاصمة لجيش باتيستا وإن كان هذا الجيش لم يكن قد قال كلمته بعد، . . . وعاودنا الصراع مرة أخرى وبدورنا أكملنا خططنا الإستراتيجية النهائية وتقرر أن نشن هجوما فى ثلاث نقاط فى سانتياجو كوبا الخاضعة لحصار مطاط وفى لاس فيلاس حيث يجب أن أتوجه، وفى «بينار دل ريو» فى الطرف الآخر للجزيرة حيث ينبغى أن يتوجه «كاميلو سيفويجوس على رأس طابوره الثانى المسمى (طابور انطونيو ماسيو) ولم يتمكن (كاميلو) من تنفيذ القسم الثانى من برنامجه إذ أن ضرورات الحرب ألزمته بالبقاء والاستمرار فى (لاس فيلاس) وحينما قمنا بالإجهاز على الفصائل التى شنت هجومها الأخير فى السيرا مايسترا) وأقمنا الجبهة على خطوطها الطبيعية وعززنا قواتنا بالرجال والمعنويات تقرر البدء فى الانقضاض على لاس فيلاس بالمقاطعة الوسطى «ومن الناحية الإستراتيجية كانت مهمتى الرئيسية أن أقطع بانتظام جميع طرق المواصلات بين الجزيرة.

وتسلمت أمراً يقضى بتدشين شبكة اتصالات مع جميع الفئات والاتجاهات السياسية التى يمكن أن توجد فى مرتفعات المنطقة الجبلية وكانت لى فى النهاية صلاحيات كبيرة وواسعة لحكم القطاع الذى كنت مسئولا عنه كحاكم عسكرى وعلى ضوء ذلك وتقديرا منى بأننا سوف نقطع المسافة فى أربعة أيام. . كنا على وشك الانطلاق فى الشاحنة يوم ٣٠ أغسطس ١٩٥٨ حينما وقع حادث لم يكن متوقعا فعرقل خططنا ففى تلك الليلة جاءنا رسول يحمل ثيابا عسكرية وكمية من البنزين التى سوف تحتاج إليها الشاحنات التى كانت تتأهب للسير.

ولكن فى الوقت ذاته حطت طائرة تنقل شحنة أسلحة فى مطار قريب للغاية من الطريق، وقد اكتشفنا الطائرة عند هبوطها رغم ظلام الليل البهيم فأمطر المطار بوابل

عنيف من طلقات المدفعية استمر من الساعة العاشرة مساء حتى الخامسة صباحا. . وفى تلك الأثناء أضرمنا النار فى الطائرة كى لا تسقط فى أيدى العدو أو يستمر القصف المدفعى طوال ساعات النهار مع نتائجه السيئة بالنسبة لنا. . . وهجمت قوات العدو على المطار واعترضت الموفد الذى يحمل الكثير من كميات البنزين حتى وجدنا أنفسنا على الأقدام. وعلى ضوء ذلك بدأنا فى السير فى ٣١ أغسطس دون شاحنات أو حتى خيل وكنا نرجو مع ذلك أن نلتقى بالشاحنات بعد أن نعبر الطريق من «مانزانيو» إلى (بايامو) ولقد وجدناها بالفعل. . ولكن فى أول سبتمبر داهم المنطقة إعصار قوى أدى إلى قطع خطوط وشبكات الاتصالات باستثناء الطريق الرئيسى وهو الطريق الوحيد الممهد فى تلك المنطقة الكوبية.

إذن لنستمر فى المضى قدما حيث ينبغى التخلى عن الانتقال فى الشاحنات ومنذ تلك اللحظة عاودنا مرة أخرى السير على الأقدام أو على ظهور الخيل ومشينا مثقلين بالذخائر وببازوكا مع ٤٠ بندقية وكل ما يستدعى السير مسافات طويلة وتدشين مخيم عاجل.

وجاءت أيام شاقة على أرض «أورنيتى» التى هى مع ذلك أرض صديقة. لقد كان ينبغى عبور أنهار ثائرة وقنوات وجداول تحولت إلى أنهار كما كان يجب مواصلة الكفاح دون توقف لمنع ابتلال الذخائر والأسلحة والقنابل بالماء وضرورة الحصول على خيل جديدة وترك الخيل المتعبة والابتعاد عن المناطق المزدحمة كلما ابتعدنا عن منطقة «أورنيتى» ومشينا نجر أذيال الإرهاق والعناء فى أراضى غمرتها المياه تداهمنا جحافل الحشرات والبعوض التى أزعجتنا طوال ساعات الراحة وكنا نتناول القليل من الطعام الذى كان رديئا ونشرب مياه الجداول المنسابة فى المستنقعات أو مياه المستنقعات نفسها. . وكنا نسحب أقدامنا بشكل يدعو للشفقة والعطف خلال تلك الأيام الفظيعة وبعد انطلاقنا بأسبوع عند عبورنا جدول (خوبابو) على الحد

الفاصل بين مقاطعتى «كاماجوى» وأورنيتى وكان الإجهاد قد استولى علينا. . أضف إلى ذلك أن جيشنا كان يعانى نقصا فى الأحذية حتى كان كثير من الجنود لدينا يترجلون حفاة القدمين فى الحفر الموحلة جنوبى «كاماجوى» وفى ليل ٩ سبتمبر كانت مقدمتنا تتسلل إلى مكان يسمى «لافدرالى» حتى وقعت المقدمة فى كمين العدو وسقط رفيقان شجاعان قتلى فى هذا الكمين ولكن الأسوأ من ذلك أن قوات العدو اكتشفت أمرنا فأرهقتنا حتى طار النوم من أعيننا. . وبعد معركة قصيرة أبيدت الحامية الصغيرة التى كانت هناك مقابل أربعة أسرى من رجالنا. . وكان ينبغى مضاعفة الحذر فضلا عن أن الطيران أصبح الآن يعرف خطوط سيرنا بشكل عام.

وبعد يومين وصلنا إلى مكان يدعى «لاجراندى لاجونى» (المستنقع الكبير) فى الوقت نفسه الذى وصل فيه كاميلو وطابوره فى مستوى صحى أحسن من مستوانا. . وهذا المكان جدير بأن يبقى فى ذاكرتنا حيث جيوش الناموس لا قبل لنا بها وهى التى لدغتنا دون توقف حتى كانت ساعات الراحة تعنى لنا ساعات العذاب والشقاء والمعاناة.

بعد ذلك ترجلنا على الأقدام أياما عسيرة على النفس خلال مساحات منعزلة لا يوجد فيها غير الماء والطين الموحل يفترسنا الجوع ويداهمنا العطش. . لا نكاد نستطيع التقدم بعد أن تصلبت سيقاننا وناءت أجسادنا بفعل الأسلحة الثقيلة وعاودنا السير على ظهور الخيل الرائعة التى تركها لنا (كاميلو) ليستقل هو شاحنات ولكننا مضطرون لتركها إلى جانب مصنع السكر المركزى «ماكارنييو» ولم يصل الأدلاء الذين كان يجب أن يصلوا إلينا فاندفعنا فى المغامرة لا أكثر ولا أقل، ووقت طليعتنا على إحدى نقاط العدو فى مكان يدعى «الرفقاء الأربعة» وكان ذلك بداية وقوع معركة رهيبة وانبلجت خيوط الفجر فاستطعنا بعد مشقة وعناء أن نحشد معظم قواتنا فى الغابة الصغيرة كان العدو يتقدم نحونا وكان لابد من القتال طويلا حتى نسمح

الذين تخلفـوا منا فرصـة المرور بخط حـديدى باتجاه أرض المقـاومة فى البـرية. . وعندئذ كشفنا طيران العدو. . وراحت طائراته من طراز (ب ٢٦) و(س ٤٧) (وس ٣) الكبيرة للاستطلاع ومعها طائراته الصغيرة تمطرنا بوابل من النيران على محيط لا يكاد قطره يبلغ ٢٠٠ متـر وبعد هذا الطوفان انسـحبنا. . وفقدنا رجـلا من رجالنا بفعل القنابل التى انهـمرت علينا كالمطر وحملنا عددا من الجـرحى منهم القومندان «سيلفا» الذى أبلى بلاء حـسنا حتى نجاح الثورة بكتف مكسـورة، وفى اليوم التالى تحسنت الأمـور بعض الشىء حيث أخذ بعض المتـخلفين منا يظهـرون واستطعنا أن نجمع مرة أخرى كل قواتنا باستـثناء عشرة رجال دخلوا فى طابور (كاميلو) ووصلوا معه حتى الجبهة الشمالية من مقاطعة (لاس فيلاس) إلى ياجوافاى.

وفى خلال المصـاعب والمتاعب التى تعرضنـا لها لم يحجب عنا الفـلاحون أبدا مساندتهم ودعمهم وتأييدهم. . فقد كان هناك دائما فلاح واحد يقودنا كمرشد أو دليل يساعدنا على تدبير الأطعمة حتى لا نموت صرعى للجوع، طبعا لم يكن هذا التأييد الإجماعى من جانب أهالى «أورنيتى»، ولكن كان هناك دائما أناس لا يملون من مسـاعدتنا، وحدث أن بعـضهم قد خـاننا حين كنا نعبـر أرض إحدى المزارع ولكن هذا لم يكن على أية حـال عملا مركـزا ضدنا من جانب الفـلاحين ولكن لابد من أن نفهم أن ظروف حـياة هؤلاء قد تحولوا بسبـبها إلى عبـيد، وقد أرعب الذين خانونا إمكانية ضـياع قوتهم اليومى فأطلعوا سيـدهم على الأمر أثناء مرورنا فى أرضه ولم يكن أمام هذا السيد سوى القيام بإبلاغ السلطات العسكرية عن طيب خاطر.

وبعـد ظهر يوم من الأيام سـمعنا من خـلال الراديو الصغـير الذى ننقله مـعنا (تقريرا قـدمه الجنرال «فـرنسيسكو تابـرينا دولس) حينئذ بكـل صلف وغرور الذى يتباهى بشجـاعته. . وقد أعلن فيه تدمير المجموعات الصغيـرة التى يترأسها «تشى

جيفارا» وقـائمة طويلة بالقتلى والجرحى والمقاتلين الذين لم يـتعرضوا لأذى. . وكل هذه الأخبـار مصدرها الأوراق التى عـثروا عليهـا من حقائبنـا التى وقعت فى يد العدو بعد اشتباكنا الرهيب معه قبل بضعة أيام. . وقد خلط معها معلومات مغلوطة جمعـتها أركان حرب الجيش الحكومى. . ولقـد أشاع نبأ موتنا مناخا يثـير الضحك والسخرية فى صفوف قواتنا الصغيرة.

ورغم ذلك فقـد كان التشـاؤم يداهم رجالنا بالتدريج حـيث إن الجوع والعطش والتعب والإحساس بالعـجز أمام قوات العدو الذى يزيد حصاره لنا أكثـر فأكثر. . ومرض الأقـدام المريع بوجه خـاص، وهو يخطوها المرء إلى الأمام كـل هذا حول مجموعتنا إلى مجموعة من الأشباح. . وكانت حالة رجالنا الصحية تزداد سوءا يوما بعد يوم. . والطعام الذى كنا نتناوله يوما ولا نتناوله يوما آخر وربما لا نتناوله يوما ثالثا لم يكن من شأنه أن يحـسن وضعنا. . وقد قضـينا أقسى أيامنا محاصـرين بالقرب من مصنع السكر المركـزى (باراجو) فى المستنقعـات الموبوءة يرهقنا الطيران دون أن تكون بحوزتنا نقطة مـاء تصلح للشراب ودون أن يكون لدينا حصان واحـد يساعد الضعـفاء على عـبور هذه الأرض الموحلة وقد تـشققت أحـذيتنا بهذه الميـاه المالحة وجرحت الـنباتات أقدامـنا الحافيـة، وعندما كـسرنا حـصار «باراجـو» لنبلغ طريق خوكارو - مورون الشهير- وهو المكان التاريخى الذى كان ميدانا وساحة لصدامات دامية بيـن الوطنيين والأسبان أثناء حرب الاسـتقلال. . كنا بالفعل فى وضع مـفجع وشنيع . . ولم يكن لدينا الوقت الذى يكفى لكى نسترد عافيتنا حيث إن قسوة المناخ فضلا عن هجمـات العدو قد أجبرتنا على استئناف السـير. . وكان التعب وتراجع الحماس يستحوذان أكثر فأكـثر على كافة رجالنا. . ورغم ذلك ففى أحرج الأوقات عندما لم نكن نسـتطيع أن نحمل الرجـال المرهقين على التقـدم إلا بعد الإهانة أو التوسل. . كـانت تكفينا مشاهدة أى شىء فى الأفق البـعيدة كى تجعلهـم يستردون

شجاعتهم وتنفخ روحا جديدة فيهم. . وكان هذا الشيء بقعة زرقاء إلى الغرب بقعة مرتفع «لاس فيجاس» الجبلى الزرقاء التى شاهدها رجالنا للمرة الأولى.

ومنذ هذه اللحظة بدأت ألوان الضيق والحرمان تبدو للرجال أخف وقعا حتى أن كل شيء أخذ يبدو سهلا يسيرا وقد نجونا من الحصار الأخير بعبورنا جدول «خوكارو» سباحة وهو الذى يفصل بين مقاطعتى (كاماجوى) (ولاس فيلاس) وشعرنا بأننا قد انتهينا من الظلمات.

وبعد مرور يومين كنا فى قلب سلسلة الجبال الممتدة من (ترنيداد) إلى ساتكتى (سبيرنيوس) فى مأمن من الأخطار واسترحنا يومين بعد ذلك. . حيث كان علينا أن نواصل سيرنا فورا ونقوم بما ينبغى القيام به للحيلولة دون الانتخابات التى كان يجب أن تجرى فى ٣ نوفمبر. وقد بلغنا منطقة لاس فيلاس» الجليلة يوم ١٦ نوفمبر. . فلم يكن لدينا إلا قدر بسيط من الوقت من أجل القيام بالمهمة الجبلية.

ومنذ أن وصلنا إلى جبل «الأسكمبراى» كان علينا أن نرهق جهاز الديكتاتورية العسكرية وبالذات شبكة مواصلاتها وكان هدفنا المباشر منع حدوث الانتخابات وهو عمل شاق بالنظر إلى قصر الوقت الذى لدينا وبالنظر أيضا إلى الاختلافات فى داخل الحركة الثورية والمنازعات العنيفة التى كلفت الثورة فى النهاية ثمنا باهظا بما فى ذلك عدد من الأرواح البشرية وكان علينا أن نشن هجوما على القرى الصغيرة المجاورة لنمنع عقد الاجتماعات ووضعنا خطة لكى نهاجم فى وقت واحد كلا من «كابايجوان» و(فومنتو) و(سانكتى سبيرتيوس) الواقعة فى السهول الغنية فى قلب الجزيرة بينما تكون حامية «جنييادى ميراند» قد توجهت إلى الجبال. ثم نهاجم حامية «باناو». . وفى الأيام التى سبقت ٣ نوفمبر أظهرنا نشاطا فائقا فهاجمت طوابيرنا فى جميع الاتجاهات جاعلة إقبال «كاميلو سينفويجوس» فى شمالى المقاطعة الحركة الانتخابية فقد توقف كل شيء. . من نقل جنود باتيستا إلى حركة النقل التجارى

وفى (أورنيتى) لـم يجر اقتـراع تقريبا. . أمـا فى «كامـا جواى» فكانت نسـبة أعلى بقليل. . وفى المنطقـة الغربيـة لوحظ برغم كل شىء عـدد كبيـر من الممتنـعين. . وجرى الإقناع غـريزيا فى (لاس فيلاس) إذ لم يكن بعـد قد أتيح لنا الوقت الكافى لننظم مقاومة الجماهير السلبية ونشاط حرب العصابات فى وقت معا.

وقد جعلت كثرة الهجـمات على خطوط المواصلات الموقف فى (لاس فيلاس) بالغ الدقـة والخطورة. . ولدى وصولنا غـيرنا بالكـلية أسلوبنا فى الكفـاح فى المدن حيث كنا فى كل مرحلة من مراحل السير نقـوم بنقل أفضل أفراد ميلشيا المدن إلى معسكر تدريب لكى يتعلموا فيه تكتيكا فى التخريب أتى ثماره فى ضواحى المدن.

وخلال شهـرى نوفمبر وديسـمبر ١٩٥٨ أقفلنا الطرقات شـيئا فشـيئا. . وأغلق الكابتن «سيلفـا» أغلاقا تامـا الطريق الممتد من «ترينيـداد» إلى سانكتى سييـريتوس» وتضررت الطرق الرئيـسية بصورة خطيـرة حينما قطع الجسـر القائم على «توينيكو» دون التمكن مع ذلك من تخريبه. . وقطع الخط الحـديدى الرئيسى فى عدة نقاط: فشبكة الخطوط الجنوبية قطعتها الجبهة الثانيـة، والشبكة الشمالية أغلقتها قوات «كاميلو سيـفويجـوس» وهكذا أضحت الجـزيرة مقـسومـة إلى قسمـين. . وكانت منـطقة «أورنيتى» أكثر المناطق توترا وهى وحدها كانت تتلقى بـواسطة الجو والبحر مساعدة حكومـية تتـضاعف اضطرابا. . وتكاثرت لدى العـدو أعراض التـفكك والانهـيار والتحلل.

ومنذ ١٦ ينـاير جـعل قطـع الجسـور وطرق المواصـلات الأخـرى، الحكم الاسـتبـدادى فى وضع سيئ. . فكيف يـدافع فى مثل هذه الظروف عن المراكـز الأمامية وحـتى عن مراكز الطريق الرئيسى؟ وفى فجر ١٦ يناير نـسف الجسر القائم على الطريق الرئيـسى فوق نهـر فالكون وقطعت عـمليا المواصلات بيـن (لاهافانا) والمدن الواقعة إلى الشرق من (سانتا كلارا) كـما أن عددا من القرى الصغيرة ومنها

(فومنتو) وهى أقصى هذه القرى إلى الجنوب حاصرتها قواتنا وهاجمتها. . وقد قاوم قائد المنطقة مقاومة حسنة نوعا ما خلال بضعة أيام. . ولكن على الرغم من تحليق الطيران فوق جيشنا الثائر لم تتمكن قوات الديكتاتورية من الصمود وقد أنهارت معنوياتها من التقدم لإنقاذ رفقائها المحاصرين وحين رأى هؤلاء عدم جدوى أية مقاومة استسلموا وانتقلت أكثر من ١٠٠ بندقية إلى جانب الحرية.

وحتى لا ندع للعدو فرصة للتنفس قررنا أن نشل الطريق الرئيسى فى الحال، وفى ٢١ يناير قمنا بالهجوم فى (وقت واحد) على «كابايجوان وجوايوس» وبعد عدة ساعات استسلمت «جوايوس» وتبعتها بعد يومين «كابايجوان» وجنودها التسعون، وفى كابايجوان رأينا عجز الديكتاتورية التى لم ترسل إلى المحاصرين أى مدد من المشاة فى أى وقت من الأوقات.

وهاجم «كاميلو سينفويجوس» عددا من القرى الصغيرة فى شمالى «لاس فيلاس» بينما كان يضرب الحصار حول «ياجواخاى» آخر حصن لقوات الطغيان بإمرة كابتن من أصل صينى قاوم أحد عشر يوما مجمدا قوات القطاع الثورية بينما كانت قواتنا قد مضت ناحية الطريق الرئيسى باتجاه «سانتاكلارا» عاصمة المقاطعة.

وبعد سقوط «كابايجوان» هاجمنا «يلاسيتاس» التى استسلمت بعد يوم واحد. . وقدمت لنا هيئة الإدارة الثورية مساعدة كبيرة. . وبعد الاستيلاء على «يلاستياس» حررنا بسرعة «رميديوس» وكابياربيين وهى (مرفأ هام) على الساحل الشمالى. وأظلم الموقف بالنسبة للديكتاتورية. . وكنا منتصرين دون انقطاع فى (أورنيتى) وقد هزمت جبهة «الأسكامبرى عددا من الحاميات الصغيرة وغدا «كاميلو سيفويجوس مسيطر على الشمال».

وعندما تراجع العدو منسحبا من (كاما خوانى) دون أن يظهر أى مقاومة كنا على استعداد لشن الهجوم النهائى على عاصمة (لاس فيلاس) أى (سانتاكلارا)

وهى مركز لـلسكك الحديدية وعقدة مـواصلات شديدة الأهمية تحـيط بها رواب صغيرة جرداء احتلتها قوات المستبد الغاشم مسبقا).

وكنا قـد حصلنا على عـدد كبـير وضـخم من البنادق عندما بدأنا بل كنـا قد استرجعنا أسلحة ثقيلة ولكن بغيـر ذخائر وكان لدينا بازوكا دون قنابل ولا خيار لدينا أمام قـتال عشر دبابات، ولكننا كنا نعـلم أن أفضل طريق للتصدى لهـا هو دخول الأحياء المكتظة بالسكان. . حيث تتضاءل فعالية هذا العتاد إلى حد كبير.

وبينما أخذت قوات هيـئة الإدارة على كاهلها مهمة الاسـتيلاء على الثكنة رقم ٢١ التى تتـبع الحرس الريفى قـصدنا نحن إلى فـرض حصار عـلى جميع الـنقاط المحصنة تقريبـا فى «سانتا» ورغم ذلك فقد وجـهنا أكبر جهودنا ضـد المدافعين عن القطار المصـفح الذى يقع على مدخـل طريق «كامـاخوانى» وهو مـوقع يدافع عنه الجيش بقوة.

وفى ٢٩ يناير بدأت المعركة وفى اللحظـات الأولى تم استخدام الجامعـة كقاعدة للعمليات وأقمنا بعد ذلك مقر قيادتنا العامة أقرب إلى قلب المدينة. .

وكان رجـالنا يقاتلون ضد قـوات تدعمهـا وحدات مصـفحة ويحـملونها على الفرار. . ولكن عددا كـبيرا دفع أرواحه ثمنا لأعـمال بطولية حيث امـتلأت المقابر بجثث القـتلى والجرحى يملئون المسـتشفـيات المرتجلة، وإنى أذكر حـادثة هامة تمثل نموذجاً لحالة قـواتنا المعنوية أثناء هذا الهجوم الأخير. فـلقد وجهت اللوم إلى جندى كان ينام فى أثناء اندلاع المعركـة فأجابنى إنهم قد نزعوا منه سلاحـه لأنه ترك عيارا ناريا ينطلق منـه وقلت له بأسلوبى المعـتـاد «اذهب إلى الخط الأول صفـر اليـدين وابحث لنفسك عن بندقية أخرى إذا استطعت أن تفعل ذلك.

وفى (سانتا كلارا) بينما جئت أواسى الجرحى فى المستشفى العسكرى أمسك بيدى جريح على فراش الموت وقال لى «هل تذكر ياقومندان؟ لقد أرسلتنى إلى «رميديوس» لآتى بسلاح لى.... وقد نجحت فى الحصول عليه».

وكان هذا الجريح هو المحارب الذى أطلق العيار النارى فى الهواء.. وقد مات بعد دقائق وبدا لى أنه سعيد لأنه أكد شجاعته.. أنهى جيشنا الثأر وبقيت روابى «كابيرو» تقاوم واستمرت المعركة طوال يوم ٣٠ يناير وفى الوقت نفسه سيطرنا على نقطة بل نقاط متعددة من المدينة وكانت المواصلات قد انقطعت بين قلب «سانتا كلارا» والقطار المصفح، وعندما وجد محتلو قلب المدينة أنهم محاصرون على روابى كابيرو حاولوا الفرار بواسطة السكة الحديد واختاروا الخط الذى كنا قد احتطنا بنسفه من قبل وهكذا خرجت القاطرة ومركبات عديدة عن الخط واندلعت معركة هامة للغاية.. وأرغم جنود القطار المصفح على تركه بقذائف «كوكتيل مولوتوف» وعلى الرغم من تحصينهم الرائع فلم يكونوا رغم ذلك قادرين على القتال إلا عن بعد انطلاقا من مواقع مناسبة وضد عدد غير مسلح عمليا، على الطريقة التى كان ينتهجها المستعمرون مع هنود غربى أميركا، أما وقد تم الهجوم على القطار من جانب رجال يحتلون أماكن مجاورة ويقذفون من مركبات قريبة جدا أوعية البنزين الملتهب.. فقد تحول بنقل ألواح الصفيح إلى فرن حقيقى للجنود.

وبعد عدة ساعات استسلم جميع ركاب القطار من مركبات الاثنتين والعشرين ومدافعه ورشاشاته المضادة للطائرات وما فيه من كميات خيالية من الذخائر واستطعنا أن نستولى على محطة الكهرباء المركزية وعلى كل القسم الشمالى الغربى من المدينة.. وأذعنا على موجات الأثير أن «سانتا كلارا» أصبحت تقريبا فى أيدى الثورة ،وخلال هذه الإذاعة التى أعطيتها أهمية بوصفى قائدا عاما لقوات لاس فيلاس المسلحة آلمنى وأحزننى أن أبلغ الشعب الكوبى مقتل الكابتن «روبرتو

رودريجس» (راعى البقر الصغير) الصغيـر سنا وقامة (رئيس فرقة الانتحاريين) الذى دفع حياته ثمنا من أجل الحرية وجاهد فى سبيلها كثيرا ولقد كانت فرقة الانتحاريين مكونة من المتطوعين الأكفاء ومن الذين تنبض الثورة فى قلوبهم وتجرى فى عروقهم كالدماء ومع ذلـك فحين كان يتعـرض رجل منهم للقتل كما كـان يحدث فى كل معركة - يعين مرشح جديد مكانه فى الفـرقة وقد يُقصى عنها بعض المرشحين فلا يستطيع هؤلاء أن يخفوا مـا بهم من ألم وحزن ولا أن يملكوا أنفسهم من البكاء.. وكم كان رائعا مشهد أولئك المحاربين النبلاء بملامحهم السمراء يدعون شبابهم وقد أذرفوا دموع اليأس لأنهم لم ينالوا شرف اختيارهم لمكان المعركة والموت الأول.

وبعد ذلك سـقط مركز الشـرطة وسُلمنا الدبابات التى كانت تـدافع عنه ثم جاء الاستـسلام السريع من ناحيـة الثكنة رقم ٣١ للقومندان كوبيـلا فيما كـان السجن وقصر العدل وقصر حكومة المقاطعة تسـتسلم لنا وكذلك الفندق الكبير حيث استمر المحاصرون يطلقون أعيرة النار من الطابق الـثانى حتى انتهى القتال وفى هذا الوقت لم يتبق فى أيدى الديكتاتورية إلا ثكنة «ليونسيو فيدال» أكبر قلعة فى وسط الجزيرة.

ولكن فى أول يناير ١٩٥٩ كـانت عـلامـات الاختـناق قد أخـذت تبـدو على المدافعين.

وفى صباح أول يناير أرسلنا الكابتن «نوثيس خمـينيس» (وورودريحس دى لافيجا) يفاوضان لاستـسلام الثكنة وكانت الأنباء غريبة ومـتناقضة: لقد هرب باتيستا مـسببا انهيار إدارة القوات المسلحة.

واتصل مندوبانا بواسطة الراديو مع كانتيو وأبلغاه عرض الاستسلام.. ولكنه من جانبه رأى أن مجرد قبول هذا العرض غير ممكن إذ هو يشكل إنذارا.

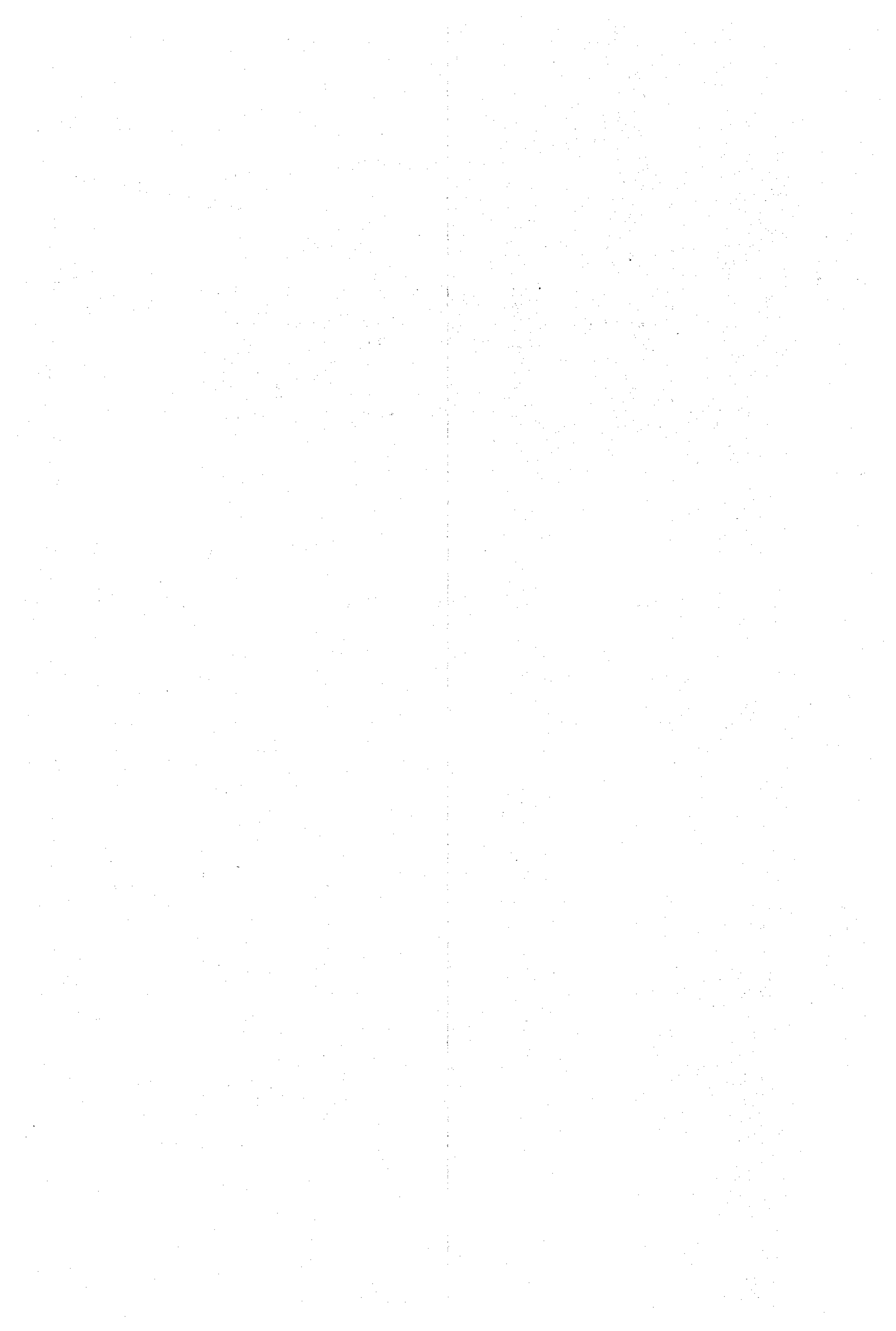
وإنه هو تولى إدارة الجيش وقد اتبع تعليمات فيـدل كاسترو بدقة متناهية واتصلنا فورا بفيدل وأطلعناه على الأمر وأعطيناه رأينا بموقف «كانتيو» المريب.

وكانت القناعة قد تمت عند فيدل فهــو أيضا على يقين من أن (كانتيو) خائن (فى تلك اللحظات الحرجة سمح (كانتيو) لجميع كبار المسئولين فى حكومة باتيستا بالفرار ويبدو موقفه يدعو للرثاء والعطف إذا اعتبرنا أنه ضابط أجرى اتصالا بنا ووثقنا به ظنا منا بكل سذاجة أنْ الرجل العسكرى إنما يقول كلمة واحدة ولا يعود عنها.

أما بقيــة القصة فالجميع على علم بهــا: لقد رفض فيدل كاسـترو أن يأخذ قول «كانيتو» بجــدية واهتمام وراح يصدر أمره بالزحف والتوغل نحو هافــانا ثم استيلاء الجنرال «باركين» على إدارة الجيش حالما خرج من سجن «جزيرة الصنوبر» واستيلاء «كاميلو سـينفويجوس» على مدينة كـولومبيا العسكرية وسـيطرة طابورنا الثامن على قلعة «كابانيا» وأخـيرا بعد مرور عدة أيام تم تنصيب (فيدل كاسـترو) رئيسا للوزارة فى الحكومة المؤقتة وكل هذا يشكل جزءاً من تاريخ البلاد السياسى الحالى».

* * * *

الفصل الثالث عشر
ذكريات جيفارا فى بوليفيا



جيفارا وحرب بوليفيا

هذه خلاصة الشهور التى قضاها أرنستو تشى جيفارا مناضلا مكافحا مقاتلا مستبسلاً فى بوليفيا من أجل تحرير الشعب البوليفى من قبضة الظلم والاستعباد.

وهذه الشهور التى صاغ يومياتها جيفارا بدأت منذ أن وصل إلى بوليفيا يوم ٧ نوفمبر ١٩٦٦ بادئا مرحلة جديدة من مراحل النضال الذى ساهم فيه بكل ما يملك.

لقد كان وسيظل جيفارا رمزا حيا للبطولة والفداء وهذه حلقة من حلقات مشواره الطويل والشاق الذى قطعه ضد شتى أنواع الظلم والاستبداد على أمل أن يحرر شعوب الدنيا ويطلق سراحها من المعاقل التى سجنها بداخلها الطواغيت ورموز القهر والقمع والفساد.

لقد كانت بوليفيا هى المحطة الأخيرة التى وصل إليها قطار جيفارا ليلقى بها مصرعه بعد أن ظل بها يعمل ويكافح ويناضل منذ ٧ نوفمبر ١٩٦٦ وحتى أسلم روحه لبارئها فى ٧ أكتوبر ١٩٦٧ ليوارى جثمانه الثرى بعد حياة حافلة بالتحديات والصعوبات..

* * * *

خلاصة (نوفمبر ١٩٦٦)

مضى كل شيء بشكل رائع حيث وصلت دون مشقة أو عناء وكذلك كان الأمر مع حوالى نصف الآخرين رغم أنهم قد تأخروا فى الوصول إلى حد ما.

إن مساعدى ريكاردو الذين نعتمد عليهم اعتمادا كليا سوف يناضلون ويقاتلون ضد كل التحديات والصعوبات، المشهد يبدو لى رائعا وجميلا ومثيرا فى هذه المنطقة البعيدة حيث إن كل الدلائل والإشارات تبرهن على أنه سوف يكون بإمكاننا أن نبقى هنا على المدى الذى نراه ضروريا.

أما خططنا فهى تتلخص فيما يلى وفى مقدمتها:

انتظار بقية العناصر المقاتلة من الرجال الشجعان وأن تتضاعف أعداد البوليفيين إلى حوالى عشرين مقاتلا على أقل تقدير.

بعد ذلك نبدأ فى العمليات المسلحة.

لا يزال أمامنا أن ندرس ونبحث ونعرف ما سوف يكون عليه رد الفعل عند مونجى مع طرح السؤال الهام الذى يفرض نفسه.

كيف ستفرض الجماعة نفسها على بوليفيا؟

* * * *

خلاصة شهر ديسمبر ١٩٦٦

لقد تجمع واكتمل فريقه العناصر الكوبية بشكل يبعث على الأمل وشعور بالزهو والنجاح وهو ما أدى إلى رفع معنوياتنا إلى عنان السماء.

صحيح أنه توجـد لدينا بعض المشكلات والعقبات الصـغيرة التى من الممكن أن نقفز عليها أو نتجاوزها حتى نستطيع الوصول إلى مرامينا وأهدافنا.

إن أهل بوليفيـا يتصفون بالروعة والـبسالة والشجاعـة والإقدام رغم قلة عددهم النسبية.

إن موقف مونجى من شأنه إعاقة المضى قدما للأمام وإن كان فى تقديرى سوف يعمل على نحو أو آخر على التقدم بخطى سريعة وواسعة لكى أتحرر أنا ومن معى من العقبات والورطات السياسية التى من الممكن أن تعرقل مسيرة نضالنا.

أما فـيمـا يتصل بشـأن الخطوات التاليـة فضلا عن انتظار عـدد لا بأس به من البـوليفـيين فهـو يتعلق بإجـراء حديث مطول مع جـويفار فـضلا عن الأرجنتـينى موريسيو وجوزامى «ماسيتى والحزب المنشق».

* * * *

خلاصة يناير ١٩٦٧

كما هو متوقع فقد كان موقف مونجى فى بادئ الأمر يتصف بالمراوغة والدماء والمكر ومن ثم لم يكن مستغربا أن يتحول فيما بعد إلى إنسان خائن.

إن الحزب قد أشهر سلاحه ضدنا الآن ولم أعد أعرف إلى أى مدى ستقودنا الأيام القادمة أمام هذا التطور الخطير والتصعيد الذى ينبئ بأن الأحداث التى سوف تندلع فى المستقبل سوف يكون لها أبلغ الأثر فى مجريات الأمور بيننا لكن على أية حال لن يكون ذلك اختبارا لقدراتنا وكفاءة سلاحنا وإرادة وصلابة رجالنا بل أظن أن على العكس قد يكون ذلك مفيدا لنا فى المستقبل البعيد «أنا على يقين من ذلك» إن أشجع الرجال وأكثرهم بسالة وصمودا هم الذين يناضلون معا رغم صراعاتهم مع ضمائرهم.

إن جويفارا قد تجاوب حتى الآن تجاوبا كريما.. وسوف ترى كيف يشق طريقه هو ورجاله فى مستقبل الأيام القادمة.

لقد سافرت مرة أخرى ولكن لا توجد أية علامات منها أو من الأرجنتين هذا هو وقت بداية مرحلة قتال العصابات الحقيقى وسوف نجرى اختبارات قياسية على المقاتلين والزمن هو الذى سيمنح النتائج وينزع النقاب عن المدى البعيد للثورة البوليفية.

على أية حال إن ذلك كله كنت أتوقعه حيث إن انضمام البوليفيين هو الذى استغرق وقتا طويلا ومدى واسعا لإتمامه.

* * * *

خلاصة شهر فبراير ١٩٦٧

رغم عدم وفرة أية معلومات لدى حول ما حدث من وقائع داخل المعسكر فإن كل شىء كان يسير سيرا رائعا وجيدا باستثناء بعض الأشياء الصغيرة.

أما فيما يتصل بالشأن الخارجى فلم تكن لدينا أية أخبار بخصوص الرجلين اللذين يجب أن يرسلا من أجل استكمال حلقات المجموعة المقاتلة.

ليس لدى أى أخبار واردة حتى تلك اللحظة من الأرجنتين ولا حتى من تشينو وقد بلغت الخطابات التى وردت إلينا فى أى وقت لكلتا الجبهتين.

سوف يكون الرجل الفرنسى المسئول عن تدريب واستكمال المجموعة قد وصل لاباز وأظن أن هذا الرجل سوف يكون فى المعسكر فى أى وقت من الأوقات منذ تلك اللحظة إن موقف الحزب مازال حتى الآن يبدو متردداً أو ذا وجهين وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنه فى وجهة نظرى على الأقل على الرغم من أن هناك شرحا وتفسيرا وتوضيحا آخر سوف يكون نهائيا وذلك عندما أتحدث مع الوفد الجديد.

لقد نفذت المسيرة بصورة أكثر من رائعة وإن كانت قد تلطخت بالحادثة التى أدت إلى مقتل بنجامين الذى دفع حياته ثمنا لها.

إن المجموعة لاتزال حتى الآن تتصف بالوهن والضعف وقلة الحيلة والخوف ولن يكون بوسع أهل بوليفيا جميعا أن يتحملوا ويصبروا ويتريثوا على أيام الجوع التى مضت وولت وهو ما أدى إلى وضوح تراجع فى الشعور بالحماسة والاندفاع نحو تحرير الوطن وفك قيوده وكسر أغلاله.

وما من شك أن هذه الصورة تتجلى حين يصبح أهل بوليفيا منقسمين على أنفسهم متفرقين تتنازعهم الخلافات وتعرقلهم العقبات وقلوبهم قد باتت لمن يراها وجلة خائفة.

أما بخصوص أهل كوبا فهناك إثنان من بينهم يتمتع كلاهما بخبرات دون المستوى أظنها قليلة للغاية، وباتشو وويبو لم يحدث أن تجاوبا معا تجاوبا إيجابيا وإن كان أليجاندرو قد تجاوب بكل تأكيد.

أما فيما يتصل بشأن القدامى فإن ماركوس يسبب صداعا لى باستمرار فيما أن ريكاردو لا يتحمل أعباءه على أن الباقين يعملون بصورة جيدة وحسنة للغاية.

* * * *

خلاصة مارس ١٩٦٧

كان هذا الشهر عامراً بالأحداث وقد كانت صورته العامة تحتوى على الآتى:

فترة تدعيم وتطهير لحركة العصابات وقد أنجزت إنجازا تاما وكاملا.. لقد كانت فترة تقدم بطىء فيما يتصل بشأن انضمام هؤلاء الذين وفدوا من كوبا.. وقد بدا على وجوههم أنهم يتصفون بالقوة والبسالة والشجاعة والإقدام وكذلك الأمر أيضا بشأن جماعة جويفارا.. إنهم يتصفون بالضعف بشكل عام (هرب من بين صفوفهم اثنان وقد وقع أحدهم أسيرا) «هو الذى أقر واعترف» ثم هناك ثلاثة استسلموا واثنان بدوا لنا ضعيفين للغاية).

وإنها مرحلة بدأ فيها القتال وقد اتسمت بهجوم منظم ومشهود ورائع ولكنها تشوهت من خلال تردد بدا واضحا ومفضوحا وذلك قبل ابتداء المعركة بل وبعدها أيضا (انسحاب ماركوس من عملية براوليوس) وإنها مرحلة ابتداء الهجوم المضاد من خلال قوات العدو.

وقد اتصف حتى الآن بما يلى:

١ - الميل لوضع أماكن مراقبة بهدف إقصائنا وعزلنا.

٢ - الضجة والجلبة والإثارة على كافة الأصعدة خاصة الوطنية والدولية والعالمية.

٣ - غياب الفعالية وحسم الأمور حتى الآن.

٤ - حشد وتجميع وتعبئة الفلاحين.

ومن الواضح أننا ينبغى أن نبدأ فى مسيرتنا قبل المدة المحددة التى كنت قد قدرتها وفقا لحساباتى.. وقد تركنا خلفنا مجموعة من الرجال الاحتياط فضلا عن عرقلة ضخمة تكونت من عدة عقبات.

إن الأمر لا يتسم بالروعة حيث تواجه حركة العصابات مرحلة جديدة من التجارب سوف تعود بالفائدة على المقاتلين حين يتم اجتيازها.

* * * *

التشكيلات

الطليعة: القائد ميجويل، أفرادها: يينجنو وباتشو ولورو واينسينو، وكامبا، ودوكو وداريو وجوليو وبابلو وراوول.

المؤخرة: القائد جوكوين، أفرادها: سيجوندو وبراوليو وروبيسو وماركوس وبيدرو وميديكو وبولو وولتر وفيكتور (بيبي وباكو وإبوزيير وتشينجالو).

القلب: أنا ومعى كل من أليجاندرو ورولاندو إنتى وناتو وتيوما وايربانو ومورو وينجرو وريكاردو وابوستاكيو وجويفارا وويلتى ولويسى وأنطونيو وليون (تانيا وبيلادو ودانتون وتشينر، وهؤلاء جميعا زائرون).

أما سيرابيو فقد كان لاجئاً.

* * * *

خلاصة أبريل ١٩٦٧

مضت الأمور فى إطار مقبول على أية حال رغم أن هناك خسارتين فادحتين قد تعرضنا لهما وهما مقتل روبيو ورولاندو.

ومقتل هذا الأخير على وجه الخصوص يمثل ضربة قاصمة لنا حيث كنت أعتزم بتسليمه إلى الجبهة الثانية عندما يأتى موعد فتحها.

قمنا بأربع عمليات كانت كلها إيجابية وناجحة بوجه عام وكانت إحداها جيدة جدا وهى الكمين الذى قتل فيه روبيو.

أما من جانب آخر فإن عزلتنا لا تزال حتى الآن مفروضة علينا فرضا كاملا.. المرض يفتك بصحة بعض من الرفاق وهو ما يدفعنا إلى توزيع قوانا الأمر الذى يعمل على تخفيض مستوى فاعليتنا.

لم نتمكن حتى تلك اللحظة من إقامة اتصال بجوكوين ولم نتمكن حتى الآن من بناء وتشييد قاعدة من الفلاحين تعمل تحت إمرتنا ورهن إشارتنا.

ويبدو أنه بوسعنا أن نلجأ إلى الإرهاب المنتظم لإرغام معظمهم على التحلى بسياسة الحياد أما كسب تأييدهم لنا فسوف يأتى لاحقا.. لم ينضم إلينا أحد.. إلى جانب الذين سقطوا قتلى وصفوفنا.. لقد فقدنا لورو الذى اختفى تماما بعد معركة «تابيريلاس» وعلى ضوء الملاحظات التى تم تدوينها حول الإستراتيجية العسكرية يمكننا الآن استخلاص الدروس الآتى ذكرها:

١ - لم يكن الحصار المضروب علينا فعالا حتى الآن وذلك مرجعه ضعف الجيش وجمود حركته.. أنهم يريدون إزعاجنا لكنهم لا يستطيعون عرقلة تحركاتنا ويمكن أن نفترض بأنهم سوف يتعلمون ويستوعبون ويدركون رغما

عنهم مـا جـرى من خلال المشـاغبـة مع الكلاب ومدربـها الأمـر الذى يضاعف من حذرهم فيما يخص مسألة التوغل فى الغابات.

٢ - الجلبة لاتزال قائمة حتى الآن.. وقد قمت بنشر مقالاتى فى هافانا، ما من شك فى أن كلا الطرفين على يقين بوجودى هنا يبـدو مؤكداً أن الأمريكيين الشماليين سوف يتدخلون بقوات عسكرية فى بوليفيا.

لقد شـرعوا الآن فى إرسال طائرات عـسكرية عامودية وأظن أنهم قد أرسلوا بالإضافة إلى ذلك بعض رجـال (الفرق الخاصة)[١] رغم أن أعيننا لم تقع على أى منهم حتى تلك اللحظة.

٣ - شهد الجـيش طفرة تقنية (أعتـقد أن ذلك قد حدث على مسـتوى سرية أو أكثر) ولقد كانت مفاجأة لنا مستوى الأداء الذى ظهر لنا بوضوح فى معركة «تابيريلاس» وقـد حرص أفراد الجـيش أثناء تلك المعركـة على شجاعـتهم وكفاءتهم ورباطة جأشهم فى معركة «إل ميزون».

٤ - التعبـئـة المتعلقة بمجـتمع الفـلاحين معدومـة للغاية باسـتثناء بعض أعـمال التجـسس التى تثير إزعـاجنا بعض الشىء لكن الذين يتحمـلون مسؤليتـها يتـصفـون بالبطء الشـديد وغيـر فـعاليين ومن المـمكن وضع حد فـاصل لأنشطتهم.

لقد تغيرت صورة إل شينو وسوف يصعد إلى رتبة مقاتل حينما نفتح الجبهة الثانية أو الثالثة.

دفع دانتون وكارلوس ثمنا باهظا لتـعجلهما فى الرحيل وذهبا ضـحية لعدم بذل جهد كـاف للحيلولة دونه. هكذا انقطع اتصـالنا بكوبا (بسبب دانتون) وقد فـقدت خطة العمل فيما يتعلق بالأرجنتين (بسبب كارلوس).

---

(١) هى فرق متدربة تدريبا رفيعا على حرب العصابات.

الخلاصة لما سبق ذكره أنه:

يمكن الزعم بأن شهر أبريل وقعت فيه الأمور بشكل طبيعى إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطوارئ التى ينبغى لحرب العصابات خوضها ومواجهتها.

إن المعنويات بلغت عنان السماء عند جميع الرفاق الذين اجتازوا أول امتحان لهم كرجال عصابات.

* * * *

خلاصة مايو ١٩٦٧

إن النقطة السوداء فى هذا الأمر هى صعوبة الاتصال مع جوكين بغض النظر عن رحلتنا فوق مرتفعات قمم الجبال. البراهين تدلل على أننا انحرفنا ناحية الشمال.

نجاح رائع على الجبهة العسكرية حيث إننا قد قمنا بالاشتباك فى ثلاث معارك جديدة أوقعنا للعدو خلالها خسائر عديدة وقد خرجنا منها سالمين واستطعنا أن نتوغل فى «بيريرندا فى كاراجا أرندا» تبين أنه لا جدوى على وجه الإطلاق من استخدام الكلاب ومن ثم سحبت من التداول!

أهم مزايا شهر مايو:

١ - قطع الاتصالات بمانيلا ولاباز وجوكين وهو الأمر الذى يؤدى إلى تقليل عدد أفراد فرقتنا إلى ٣٥ رجلا.

٢ - فشل تام فى اجتذاب عناصر الفلاحين رغم أنهم قد تخلصوا من مخاوفهم المسكونة بداخلهم وبدأنا نلفت أنظارهم ونثير إعجابهم إنها مهمة تتصف بالبطء الشديد لكنها تتطلب أن نتذرع بالصبر.

٣ - أعلن الحزب بواسطة كوللى عن استعـداده وحرصه على التعاون ويبدو أنه لا يثير أية تحفظات.

٤ - الضجة المـثارة حول قضيـة ديريه هى فى الأساس تعد دعاية لحـركتنا وهى أفضل على أية حال من عشره معارك ظافرة.

٥ - تستمـر حرب العصابات باكـتساب تأييد كـاسح وإذا استطعنا توظيف هذا التأييد بذكاء حتى نضمن النصر.

٦ - لايزال الجيش فى حالة تفكك وانهيار ولم يرتفع مستوى التقنية فيه على نحو واضح.

إن تخوف لورو وفـراره يعد فى تقديرى مـن أبرز وألمع أنباء هذا الشهـر وحان الوقت لكى يعـود إلينا أو يتـوجه إلى لاباز من أجل إقـامـة الاتصالات الضـرورية والهامة.

لقد أدلى الجيش ببيان كشف فيه قيـام السلطات الحكومية باعتقال جميع الفلاحين الذين ساعدونا وساندونا فى منطقة (ماسيكورى). . حان الوقت الذى يمارس فيه كل من الطرفين ضغطه على الفلاحين ولكن من خلال اتجاهين مختلفين إن انتصارنا فى هذه المعركة هو التغيير التكتيكى الذى سوف يؤدى إلى قفزة فى تطور حركتنا.

* * * *

خلاصة شهر يونيو ١٩٦٧

النقاط السلبية هى التالية: صعوبة الاتصال بجوكين وخسارتنا الواضحة لمقاتلينا الذين يمثل فقدان كل واحد منهم هزيمة نكراء بحد ذاتها رغم أن الجيش لا علم له بذلك خضنا معركتين صغيرتين خلال هذا الشهر.

كبدنا فيها العدو أربعة قتلى وثلاثة جرحى وفق ادعاءات مصادر قوات جيش العدو نفسه.

أهم مكاسب الشهر:

١ - انعدام الاتصالات بشكل عام الأمر الذى أدى إلى تراجع عدد رجالنا إلى حوالى ٢٤ رجلا مع بومبو الجريح وسرعة تحرك منخفضة.

٢ - لا نزال نشكو ونئن من فشلنا فى اجتذاب الفلاحين، إنها حلقة مفرغة حقا ولكى نستطيع اجتذاب الفلاحين ينبغى القيام بعمليات مستمرة فى المناطق المزدحمة لكن القيام بذلك يستدعى المزيد من الرجال.

٣ - أسطورة حرب العصابات تنمو وتكبر... نحن الآن رجال أكفاء نابغون لا يستطيع أحد قهرهم إطلاقا.

٤ - انقطاع الإتصالات يشمل الحزب أيضا رغم أننا قمنا بمحاولة اتصال به بواسطة باولينو لعلها بذلك تحقق بعض النجاح.

٥ - لازال ديريه يتصدر الأنباء إلا أنه مرتبط الآن بقضيتى حيث أوضح كقائد لهذه الحركة أننا فى انتظار نتائج الخطوة التى أقدمت عليها الحكومة حتى نكتشف هل كانت إيجابية أم سلبية؟

٦ - معنويات الرفاق فى أعالى السماء والتصميم على النضال يتزايد.. جميع الكوبيين قدوة فى هذه المعركة، يوجد بين البوليفيين بعض الرفاق الضعفاء، لكنهم لا يتجاوزون الثلاثة.

٧ - لايزال الجيش صفرا على الشمال خصوصا بالنسبة للعمليات العسكرية لكنهم ينشطون فى أوساط الفلاحين بأسلوب لا يمكن بحال الاستخفاف به حيث يتحول جميع أبناء القرية إلى مخبرين وعملاء.. هل كان ذلك عن طريق الإرهاب أو بواسطة تضليلهم بشأن أهدافنا.

٨ - المذبحة التى ارتكبها الجيش فى المناجم تكشف الصورة بالنسبة إلينا، وإذا استطعنا تعميم بلاغتنا العسكرية فذلك من شأنه إضفاء المزيد من الوضوح على الوضع الراهن.

إن أهم مهمة حاليا هى تعزيز الاتصالات مع لاباز من أجل الحصول على العتاد العسكرى والأدوية لكى تجتذب أكثر من خمسين رجلا مقاتلا فى المدينة رغم أن ذلك قد يخفض عدد المقاتلين الفعليين إلى ما بين ١٠ و٢٥ مقاتلا.

* * * *

خلاصة شهر يوليو ١٩٦٧

مازالت النقاط السلبية مثلما كانت عليه فى الأشهر السالفة أى استحالة الاتصال بجوكين أو الخارج وخسارة المزيد من الرفاق، لم يبق منا الآن إلا اثنان وعشرون رفيقا بينهم ثلاثة مشلولين بمن فيهم أنا شخصيا - الأمر الذى يؤدى إلى بطء حركتنا. اشتبكنا مع الجيش فى ثلاث مناسبات بما فى ذلك معركة سومايباتا فقتلنا سبعة من جنوده وجرحنا نحو عشرة.

إن هذه الأرقام تقريبية بسبب تناقض البلاغات الرسمية نفسها.

فقدنا رفيقين وجرح واحد منا.

أهم مميزات الشهر:

١ - انعدام الاتصالات كليا مازال مستمراً.

٢ - لانزال نشعر بالفشل فى اجتذاب الفلاحين رغم أن الإشارات المشجعة التى برزت فى الاستقبال الحافل الذى أقامه لنا أصدقاؤنا من الفلاحين القدامى.

٣ - أسطورة حرب العصابات تنهض وتنمو وتكبر.. قررت أونجانيا إقفال حدودها مع بوليفيا فيما بادرت البيرو باتخاذ تدابير وإجراءات وقائية.

٤ - أخفقنا فى محاولة إقامة اتصال بواسطة باولينو.

٥ - لايزال الجيش فى تلك الجلبة يبدو مثل الأصم الذى يمشى وسط زفة عروسين.. رغم أن القدرة القتالية لبعض الوحدات قد ارتفعت.

٦ - إن معنويات الفرقة المقاتلة وتجربتها القتالية تزداد مع كل معركة.. مازال كامبا وتشاباكو ضعيفين.

٧ - الأزمة السياسية تتفاقم على مستوى الحكومة بيد أن الولايات المتحدة تقدم بعض القروض كعون ودعم كبير لنظام الحكم القائم إذا أخذنا حجم بوليفيا بعين الاعتبار..

وما من شك فى أنها تساعد على التخلص من السخط والتذمر والاحتجاج.

إن المهمات التى تتصف بالإلحاح هى: إعادة الاتصال وضم المقاتلين الجدد فضلا عن أهمية استجلاب الأدوية والحصول على العتاد.



خلاصة شهر أغسطس ١٩٦٧

منا من شك فى أن هذا هو أصعب وأسوأ شهر قضيناه منذ بداية الحرب. إن خسارة كل الكهوف بما فيها من وثائق وأدوية شكل ضربة قاصمة لنا وبشكل خاص على الجانب المعنوى.

كذلك فإن مقتل رفيقين فى نهاية هذا الشهر، ومتابعة السير وما من زاد لدينا قد حط من معنويات الرفاق مسببا أول حادثة تساقط.

كامبا الذى يمكن اعتبار إعلانه عن التخلى عن المعركة حدثا مفيدا لنا لو أن الأمور كانت غير ما هى الآن.

انعدام الاتصال بالخارج وجوكين خاصة وكون الأسرى من مجموعته قد أقروا باعترافات ضارة قد أدى أيضا إلى الحط من معنويات فرقتنا بعض الشىء.. يولد مرض بعض التخاذل عند العديد من الرفاق.

وقد اتضح ذلك فى الاشتباك الوحيد الذى أجريناه خلال هذا الشهر حيث كان بوسعنا أن نقتل عدة جنود فلم نفلح إلا بإصابة واحد منهم بجروح.. وإلى جانب ذلك كله فإن المسيرة الصعبة عبر الجبال مع الظمأ تركت آثارا سلبية على الرفاق.

أهم مميزات الشهر:

١ - مازلنا حتى الآن بغير اتصالات من أى نوع ولا أمل بإجراء أي منها فى المستقبل القريب.

٢ - كالعادة لم نتمكن من ضم عناصر ريفية إلى صفوفنا وهذا أمر لا يتعذر فهمه نظرا لقلة الاتصالات التى كانت لنا بهم خلال الآونة الأخيرة.

٣ - انخفضت قدرة الرفاق القتالية بيد أنى أتوقع أن يكون ذلك حدثا عرضيا.

٤ - الجيش لا ترتفع فعاليته أو قدرته القتـالية. معنوياتنا قد انخفضت بغير شك، وتقلصت الأسطورة الثورية المنسوجة حولنا.

إن المهام المُلحة هى ذاتها مهام الشهر المنصرم أى محاولة إعادة الاتصالات وضم المقاتلين والحصول على الدواء والعتاد.

جدير بالذكر أن أنتى وكوكو يظهران أكثـر من أى وقت مضى بوصفهما مقاتلين وقياديين على الصعيد الثورى والعسكرى.

❊ ❊ ❊ ❊

خلاصة شهر سبتمبر ١٩٦٧

كان من المتوقع أن يكون هذا الشهر شهر استراحه محارب وفرصة حسنة لالتقاط الأنفاس وكاد أن يكون كذلك حينما سقط كل من ميجوبل الذى أفسد علينا كل شيء. فضلا عن خسارة ليون.

أما بخصوص اعتقال كامبا فأنا أراه مكسبا رائعا وأكيداً لحركتنا.

وقعت اشتباكات خفيفة مع العدو أسقطنا فى غمارها حصانا وجنديا وجرحنا آخر وتبادل أوريانو طلقات النار مع إحدى الدوريات بغض النظر عن الكمين المشؤوم فى لاهيفيرا. . لم يبق لنا سوى البغال وأظن أننا نستخدم الدواب لعدة طويلة إلا إذا تراجعت صحتى مرة أخرى وداهمنى داء الربو.

ومن جانب آخر أتصور أن المعلومات التى أذيعت عن المجموعة الثانية صحيحة ويجب أن نتعامل معها على اعتبار أنها قد انتهت، هذا إلا إذا ظل بعض منها على قيد الحياة فراحوا يتجولون فى المنطقة فى تفادٍ واضح للاشتباك بالجيش والذى قد يعزز هذا الاعتقاد أن الأنباء عن مقتل سبعة ثوار فى معركة واحدة قد تكون مغلوطة أو مجسمة على أقل تقدير.

مزايا شهر سبتمبر ١٩٦٧.

هى مزايا لا أظنها تختلف بشيء عن مزايا الشهور الأخرى باستثناء المزيد من الفعالية فى القتال عند الجيش ورفض الغالبية العظمى من أبناء الريف البوليفى من مد يد الدعم والمؤازرة لنا مع تحولهم إلى مخبرين عند الجيش

إن المهام الملحة هى التسلل من بين الحصار المضروب والبحث عن مناطق ملائمة وإعادة الاتصال على الرغم من أن الجهاز قد انهار وتحلل وتفكك فى لاباز حيث قدمت لنا قوى القمع ضربة قاصمة.

إن معنويات جميع الرفاق جيدة إلى حد ما.

إن ما يساورنى من قلق يتعلق فقط (بويلى) الذى قد يغـتنم فرصة وقوع اشتباك مع الجيش لمحاولة الفرار هذا إذا لم أجر معه حواراً صريحا.

* * * *

يوم وفاة أرنستو تشى جيفارا

لقد مضى أحد عشر شهرا منذ أن أعلنا حرب العصابات.. مر النهار بغير أية تعقيدات.. أكاد أقول كان رومانسيا حالما حتى الثانية عشرة والنصف عندما مرت بالوهد امرأة عجوز لاهم لها سوى رعى الماعز والاعتناء بها..

وبما أننا كنا نتردد على هذا المكان فقد اضطررنا إلى احتجاز هذه العجوز.. لم تقدم لنا أية معلومات موثوقة عن الجنود متذرعة بجهلها لكل ما يجرى لأنها لم تذهب إلى هناك منذ وقت طويل.

زودتنا ببيانات عن الطرقات: نحن الآن.. وفق روايتها - على بعد أمتار من هيفيراس وآخر من جاجاى، وعلى بعد أمتار من بوكارا.

فى السابعة عشرة والنصف ذهب كل من دانتى وانيستو وبابليتو إلى منزل العجوز حيث توجد ابنتاها إحداهما قعيدة والأخرى قصيرة القامة صغيرة الحجم أعطيناها خمسين «بيزوس» طالبين منها عدم الإفشاء بكلمة واحدة عنا .. بيد أن الأمل ضعيف بأنها ستفى بما وعدت به.

كنا سبعة عشر رجلاً نمشى الهوينا تحت ضوء القمر الخافت الشاحب.

المسيرة كانت شاقة ومرهقة وقد خلفنا العديد من آثار وجودنا فى الوهد.

لا توجد منازل قريبة، لكن هناك حقول مزروعة بالبطاطا ترويها الساقية فى تمام الساعة الثانية.

توقفنا عن السير لكى ننال قسطاً من الراحة مادام التقدم بدون أية فائدة..

إن تشينو يتحول إلى عبء ثقيل علينا عندما نضطر إلى السير فى جنح الظلام الدامس.

لقد أدلى الجـيش بمعلومات وبيانات مـثيرة للغـرابة تشير إلى وجـود نحو ٢٥٠ جنديا فى سيرانو من أجل الحيلولة دون هروب الذين فرض عليهم الحصار الشديد إنه يقدر عددنا بنحو سـبعة وثلاثين مقاتلا، ويعتبـر أننا فى مكان ما بين نهر «أثيرو» ونهر «أورو» إننى أتصور أن الهدف من وراء هذه البيانات هو التضليل ليس إلا.

* * * *

جيفارا قـد كتب هذه اليوميات ليرحل عن عالمنا بـعدها ومن ثم كان هذا اليوم الذى كتب فـيه يومياتـه الأخيرة هو السابع من أكـتوبر ١٩٦٧ بعد أن لفظ أنفـاسه الأخيرة بفعل رصاصات استقرت فى جسده من قوات العدو.

* * * *

كيف قتلوا جيفارا؟!
بقلم فيدل كاسترو[1]

فى اليوم الثامن من شهر أكتوبر ١٩٦٧ وفى تمام الساعة الواحدة من بعد ظهر هذا اليوم كان الثائر الوطنى ومحرر شعوب أمريكا اللاتينية أرنستو تشى جيفارا فى شعاب تتصف بضيق المساحة ينتظر أن يسدل الليل أستاره لعله يتمكن من فك الحصار المضروب بيد أن إحدى الفرق الكبرى المنسوبة لقوات العدو قد انقضت عليهم وكانت الأعداد القليلة من الرجال يشكلون البطولات فى أروع صورها فى ذلك اليوم. كانت مجموعة هؤلاء الرجال تناضل وتقاتل ببطولة حتى خيوط الفجر من خلال مراكز فردية قائمة فى بطن الشعاب وعلى رؤوس النتوءات ضد فرقة الجنود الذين حاصروها وهاجموها.

لم يبق أحد بجوار جيفارا حيا حتى الطبيب الذى كان يعمل بالقرب منه فى وضع سيئ جدا. . وكان بجواره أيضا مقاتل بيروانى يشكو بدوره سوء حالته وهذا يدل على أن جيفارا حتى اللحظة التى سقط فيها جريحا قد بذل غاية جهده لتغطية انسحاب هذين الرفيقين إلى مكان لا يبعد فى الغالب عن كويبرادا دل يورو.

إن شدة انحدار الأرض الصخرية المتعرجة جعل الاتصال البصرى بين مقاتلى العصابات صعبا جدا وفى بعض الحالات محالاً.

أما هؤلاء المدافعون عن الموقع القائم فى المدخل الآخر للشعب على بعد عدة مئات من الأمتار من جيفارا كان من بينهم إنتى بيريدو، فقد توقفوا عن القتال عند الفجر لما تمكنوا من الإفلات من العدو، فتوجهوا إلى مكان الالتقاء.المتفق عليه فى السابق.

---

(١) زعيم كوبا .

لقد تأكدنا أن جيفارا مضى فى قتاله رغم ما به من جراح حتى دمرت فوهة بندقيته ال «م - ٢» بطلق نارى وأصبحت متعطلة تماما.

وأما المسدس الذى كان يحمله فلم يكن معه له مخزن ذخيرة.

إن هذه الظروف التى لا تصدق هى التى تفسركيف تم اعتقاله حيا؟ وإذا كانت الجراح التى أصيبت فيها ساقاه قد عرقلته عن السير بغير دعم بيد أنها لم تكن مميتة.

نقل إلى بلدة هيجوراس وعاش حوالى ٢٤ ساعة أخرى وقد رفض أن يتحدث مع الذين أسروه وإذ حاول ضابط مخمور أن يستفزه فقد أجابه بصفعة على وجهه.

واجتمع فى لاباس كل من باريتتوس وأوفاندو وقادة عسكريين آخرين فقرروا اغتياله بكل برود أعصاب، أما تفاصيل الطريقة التى اتبعوها فى تنفيذ اتفاقية الخيانة في المدرسة فى بلد هيجوراس فهى معروفة جداً.

لقد أصدر كل من الميجور ميجويل أيورو والكولونيل أندريس سيلنخ وهما جنديان مدربان من خلال اليانكى أوامرهما إلى الضابط ماريوتيران لتنفيذ القتل.

وعندما ذهب هذا الأخير إلى المكان وكان سكرانا. . كان تشى جيفارا قد سمع الطلقات التى قتلت فى تلك اللحظة مغاورين أحدهما بوليفى والآخر بيروانى. . وحين رأى الذى جاء لاغتياله مترددا قال له فى ثقة وثبات «أطلق النار لا تخف» فما كان من الأخير إلا أن تراجع مما أرغم رئيسه إيورو وسيلنخ أن يكرر الأمر. فعاد لكى ينجزه مطلقا النار من مدفعه الرشاش من الوسط إلى أسفل.

وكانت الرواية قد ذاعت وشاعت بأن جيفارا قد مات بعد عدة ساعات من انتهاء القتال. . لذلك صدرت الأوامر لقاتليه ألا يطلقوا النار على الصدر أو الرأس حتى لا يحدثوا جراحا مميتة.

فأدت هذه القسوة إلى إطالة أمـد عذاب تشى جيفارا حتى جاء رقـيب مخمور أيضا فأطلق عليه طلقا ناريا من مسدسه استقر فى جانبه الأيسر.

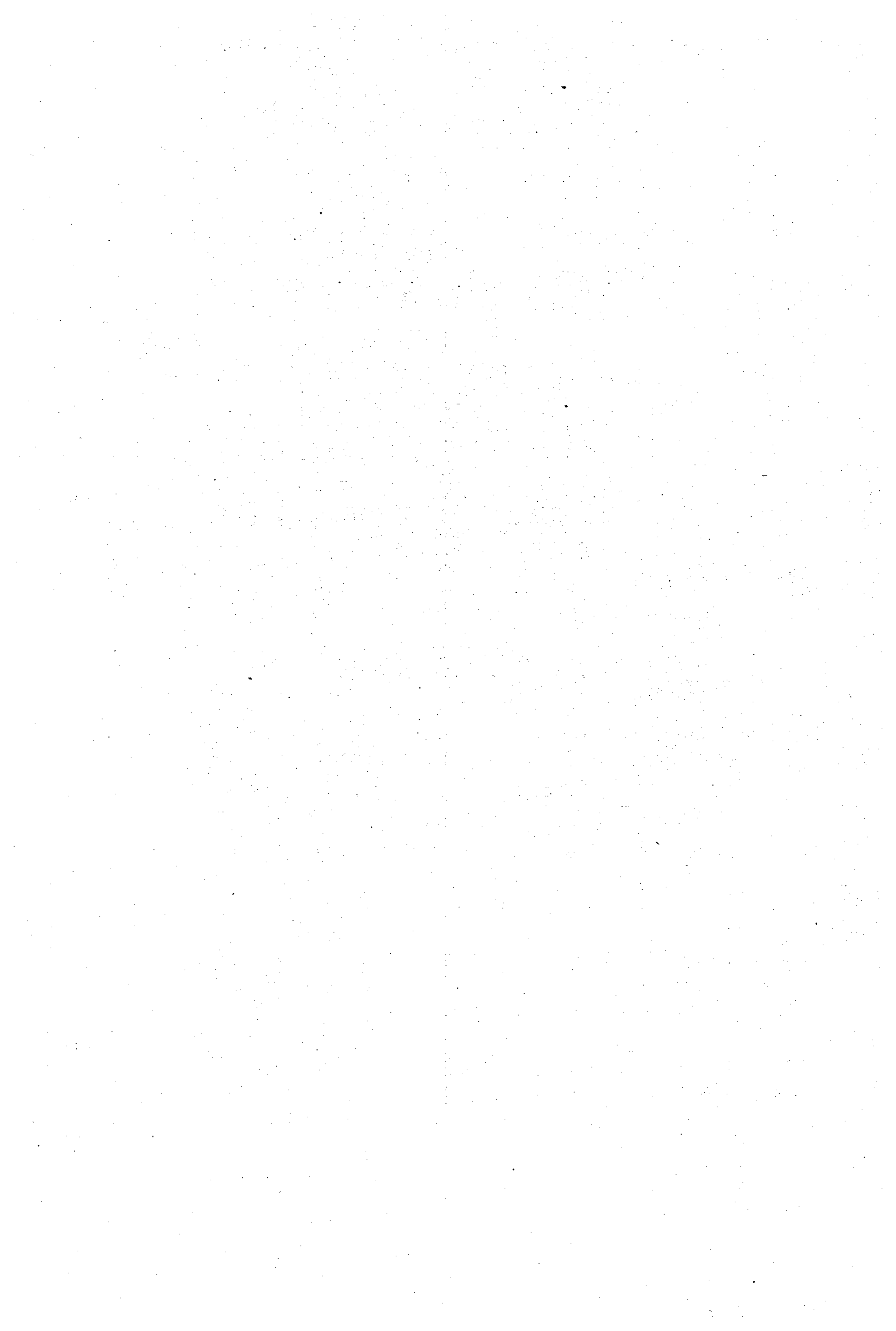
إن هذا العمل إجـراء إجرامى إذا ما قـورن بالاحترام الذى كـان يعامل به تشى جيفارا بغير استثناء ضباط وجنود الجيش البوليفى الذين وقعوا أسرى بين يديه.

لابد وأن تكون الساعات الأخيرة التى عاشها فى قبضة أعدائه المكروهين ساعات مريرة بالنسبة له..

ولكن لا يوجـد هنالك إنسان مـهيأ أكـثر من تشى جـيفـارا لمواجهة مـثل هذا الامتحان.

فيدل كاسترو

الزعيم الكوبى



فهرس